

محاضلت

المؤسية التقافي الم

لكليكة اللفكة العهبيكة

هيئة الإشراف

عميد الكلية يُبين قسمالدرإسات العليا العربية وكيل الكلية (سكرتيرالتحريم) د. عليان محمالحازمی د.حسن محدماجوده د. صالحجمال بدوي

بسسطِللة الزَّمن الرَّحبيد

نحمدك اللهم حمدا يليق بجلالك ونصلي ونسلم على عبدك ورسولك محمد _ صلى الله عليه وسلم _ المبعوث رحمة للعاملين وبعد :

فيسعد كلية اللغة العربية أن تقدم الكتاب الأول من محاضرات الموسم الثقافي التي نظمت خلال العام السدراسي ١٤٠٢ - ١٤٠٣ هـ. وإذا كانت هذه هي المرة الأولى التي تطبع فيه هذه المحاضرات فلابد أن نشير الى أن قسم الدراسات العليا العربية وقسم اللغة اعتادا عندما كانا بين أقسام كلية الشريعة والدراسات الاسلامية الكلية الأم في هذه الجامعة - تنظيم مشل هذه المحاضرات والندوات رغبة منها في تنشيط النقاش الحر البناء الذي يهدف الى اشاعة البحث العلمي الأصيل تأسيا بعلمائنا الأوائل الذين ملأوا أسماع الدنيا بها جاءوا به من فكر أصيل .

كما أن الكشف عن سمو اللغة العربية وما تتميز به من أصالة فكر وأدب رفيع غاية تتغياها الكلية وتحرص دائها على تحقيقها .

وسيجد القاريء الكريم في هذه المحاضرات موضوعات تتناول قضايا معينة في اللغة والأدب وأصول البحث العلمي والتحقيق ، وهي قضايا لاتزال مطروحة للبحث والنقاش . وكل ما نهدف اليه هو الوصول الى الحقيقة ، والحقيقة ضالة المؤمن أنى وجدها .

نسأل الله التوفيق في كل عمل نعمله راجين منه عز وجل أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم انه سميع مجيب ، ، ،

هيئة الاشراف

تعتلديم

الحمد لله ربّ العالمين ا والصّلاة والسّلام على أشرف المرسلين سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :

إنّ الإسهام منّى في التّعريف بهذا العمل العلميّ والتّقديم له وهوبعنوان «ماضرات الموسم الثقافي لكلية اللغة العربية» أريد منه إلقاء بعض الضّوء على العوامل الّي صاحبت هذا العمل . لقد اعتاد قسم الدّراسات العليا العربيّة منذ سنوات أن يعقد خلال العام الدّراسيّ في كلّ يوم اثنين جلسة لمجلس القسم أوندوة . يحدث بالتّناوب . وليس عقد النّدوات أو المحاضرات مقصوراً على أساتذة القسم . وكان ذلك الموسم الثّقافيّ يلقى كلّ دعم من كلّيّة الشّريعة والدّراسات الإسلاميّة التي كان القسم أحد أقسامها . وكانت كلّ النّدوات والمحاضرات ـ ولا زالت ـ تسجّل في أشرطة لازال يحتفظ بها في مركز الوسائل التعليمية . وكانت النيّة متّجهة لطبع هذه ألم عال ، الّي قدر لبعضها أن يطبع فعلاً منفرداً في بعض المجلّات والصّحف ، وقدّر لبعضها الآخر أن ينمو وأن يطبع في صورة كتب . كما أنّ الكثير من هذه الأعمال لازال حبيس أشرطة التسجيل . ولكن ما طبع من هذه الأعمال مفرّق كما أنّه اعتمد على المجهود الفرديّ .

وأنشئت كلّية اللغة العربية الّتي يرتبط بها قسم الدّراسات العليا العربية . وتحقّق من القائمين على شئونها كلّ الّدعم المادّيّ والمعنويّ السّابق . وتبنّت الكلّية الموسم الثّقافي الّذي امتّدت أطنابه ورسخت أوتاده بحمد الله تعالى . وتوّج كلّ ذلك بتحويل الأمنيّة الّتي كانت حبيسة ، إلى حقيقة تجسّدت في طبع أعمال الموسم الثّقافي لعام ١٤٠٧ - ١٤٠٣ هـ في هذه المحاضرات التي بين يدي القاريء . فللقائمين على شئون الجامعة والكليّة الجزاء من الله تعالى وحسن الثّواب منه جلّ وعلا ثم الشّكر من عباد الله تعالى .

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين .

والسّلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

د. حسن محمد باجوده
 رئيس قسم الدراسات العليا العربية

الوقوفعيلى الاطلال

عندشعراء المعلقات

د. مصطفى عبد الواحد

,

• في تراثنا العربي مقولات شاعت وتناقلها الخلف عن السلف لكنها لم توضع موضع التحقيق العلمي الذي يثبتها أو ينفيها . .

ومن هذا القبيل قولهم: ان امرأ القيس «أول من وقف واستوقف وبكى واستبكى»! هكذا قال محمد بن سلام الجمحي في طبقاته:

«فاحتج لامريء القيس من يقدمه قال: ما قال ما لم يقولوا، ولكنه سبق العرب الي أشياء ابتدعها واستحسنتها العرب واتبعه فيها الشعراء: استيقاف صحبه، والتبكاء في الديار»(١)

وهكذا قال ابن قتيبة :

«وقد سبق امرق القيس الى أشياء ابتدعها واستحسنتها العرب واتبعته عليها الشعراء ، من استيقاف صحبه في الديار ورقة في النسيب وقرب المأخذ»(٢)

وهذه الأولية التي أولع النقاد بنسبتها إلى امريء القيس منقوضة بها ذكره ابن قتيبة من سبق شاعر آخر لامريء القيس في بكاء الديار إذ يروي عن ابن الكلبي أن : «أول من بكى في الديار امرؤ القيس بن حارثة بن الحهام بن معاوية ، واياه عني امرؤ القيس بقوله :

يَاصِاحِبِيَّ قِفَا النواعِجَ ساعِةً نَبْكي الديارَكما بكى ابنُ مِمَامِ (٣) ورواية البيت في ديوان امرىء القيس:

عُوجَا على الطَّلل المحيل لأننا نبكي الديار كما بكى ابنُ جِذَام (¹⁾

♦ كانت هذه المحاضرة هي بداية الموسم الثقافي لقسنم الدراسات العليا العربية بكلية اللغة العربية للعام الدراسي ١٤٠٢ / ١٤٠٣ بتاريخ ١٤٠٧ / ١٤٠٣ هـ

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ، تحقيق الأستاذ محمود شاكر : ١ / ٥٥ .

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة ، تحقيق الأستاذ أحمد محمد شاكر ١ / ٥٧ .

 ⁽٣) الشعر والشعراء ، مرجع سابق ، ١ / ٧٦

⁽٤) ديوان امري القيس ص ١١٤ ، تحقيق/أبو الفضل ابراهيم .

وسواء زعم الرواة أن أول من بكى الديار ووقف بالأطلال امرؤ القيس ابن حجر أو امروء القيس بن حمام ، أو ابن حذام ، أو ابن خذام _ فإن هذا الزعم من قبيل الظن الذي لا ينهض على إثبات دليل فإن هذه المشاعر الإنسانية العامة لا يجوز أن تنسب إلى شاعر بعينه ، بل لابد أن تكون قديمة في الناس مألوفة للشعراء وغاية ما يمكن تأويل زعم الرواة به : أن امرأ القيس أول شاعر بلغنا عنه شعر في بكاء الطلول . . لا أن يكون هو مخترعه ومبتدئه !

بكاء الطلول في شعر امريء القيس:

• وإذا كان النقاد القدماء حريصين على أن يجعلوا امرأ القيس اماما للشعراء في باب الوقوف على الأطلال وبكاء الديار ، فإن أحدا منهم لم يضع شعر امريء القيس في هذا المعنى موضع النقد الصحيح ، ليرى أتصح زعامته للشعراء في هذا الباب ، أنها مقولة اشتهرت بين الناس دون حقيقة !

وها نحن نعالج هذا النقد ، بعد هذه السنين المتطاولة ، وأمامنا ديوان امريء القيس نستقريء مطالع قصائده لنرى مدى التزامه بالمقدمة الطللية ، ثم مدى إبداعه وإحسانه فيها .

أما الجانب الأول فإن الاستقراء فيه ينتهي إلى عجب . . اذ نرى ديوان امريء القيس كله يخلومن ذكر الأطلال إلا في بضع عشرة قصيدة في شعره المتفق عليه المنسوب اليه والمنحول . وقد كان الظن أن امرأ القيس يفتتح قصائده أو أكثرها بالوقوف على الأطلال ، ما دام هو الذي سن للشعراء هذه الطريقة ، كما ذكر ابن سلام وابن قتيبة !

لكن الحقيقة تخالف الظن ، كما تخالف النظام الذي يكاد ابن قتيبة يقنعنا أنه نظام القصيدة العربية الذي لاينبغي أن يتغير ، إذ يقول :

« وسمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مقصّد القصيد إنها ابتدأ فيها بذكر الديار والدَّمَن والآثار فبكى وشكا وخاطب الرَّبع واستوقف الرفيق ، ليجعل ذلك سببا لذكر أهلها الطاعنين عنها ، إذ كان نازله العُمُد (١) في الحلول والظعن على خلاف ما عليه نازلة المدَّر ، لا نتقالهم عن ماء إلى ماء ، وانتجاعهم الكلاً وتتبعهم مساقط الغيث

⁽١) نازلة العمد : أصحاب الأبنية الرفيعة الذين يتنقلون بأبنيتهم .

حيث كان ، ثم وصل ذلك بالنسيب فشكا شدة الوجد وألم الفراق ، وفرط الصبابة والشوق ، ليميل نحوه القلوب ويصرف إليه الوجوه ويستدعي به إصغاء الأسماع إليه

وإذا كان هذا نظام القصيدة العربية . . وإذا كان امرؤ القيس أول من سبق إليه . . فها بال يقنع باتباع هذا النظام في قصائد معدودة في ديوانه كله وفي المنسوب إليه . . ويبتديء أكثر قصائده بغير الوقوف على الأطلال ؟! كقوله :

ونام الخيليُّ ولم تُرْقُد وبات وباتت له ليلة كليلة ذي العاشر الأرْمَـدِ وأنبئت عن أبي الأسود(1)

تطاول ليلك بالأثمدا وذلك من نبأ جاءني

وقوله في مطلع قصيدة أخرى :

ويَعْدُوعلى المرء ما يَأْتمر (٥) لا يدّعب السقوم أنّ أفِر وكِنْدَةُ حَوْلِي جميعًا صُبرُ(١)

أحـــارِ بنَ عِمــرو كأنِّي خَمِرْ لا وأبيك ابنة العامري تميــم بن مُرَّ وأشــيــاعُــهــا

وقوله:

مُتلج كفُّيْه في قَتْرَه(٧) غير باناةٍ على وَتُره (^)

رُبِّ رامٍ من بني ثُعَــلٍ عارض أَزُوْراء مِنْ نشَمَ

⁽١) العمدة ١ / ٢٢٦ (ط. محى الدين).

⁽٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١ / ٢٠ .

⁽٣) الأثمد: اسم موضع.

⁽٤) ديوان امريء القيس ص ١٨٥ .

⁽٥) خر : خامره داء أوحب . ويعدوعليه : يصيبه وينزل به .

⁽٦) ديوانه ص ١٥٤ .

⁽٧) بنو ثعل : قبيلة من طيء ، متلج كفيه ، أي يدخل كفه في القتر ، وهي بيوت الصائد .

⁽٨) الزوراء : القوس الماثلة الجوانب ليرمى بها ، غير باناة أصلها : غير باثنة ، والأبيات في ديوان امريء

وهكذا يتبين أن هذه المقدمة الطللية لم تكن ملتزمة في شعر امريء القيس ، وإنها هي لون من ألوان مطالعه . ويتبين لنا من تتبع دواوين شعراء الجاهلية أن هذه المقدمة لم تكن ملتزمة لديهم كذلك ، ، وإنها ساعد على توهم التزامها أن أكثر القصائد الطوال التي سميت بالمعلقات قد بدئت بالوقوف على الأطلال . ولأن هذه القصائد قداعتبرت مثلا لمتخبر الشعر الجاهلي . . فقد حسب النقاد القدماء أن هذا هو نظام القصيدة العربية في صورتها المثلى : حتى نرى ابن رشيق وهو ناقد مغربي في القرن الخامس الهجري يقول : «وكانوا قديها أصحاب خيام يتنقلون من موضع إلى آخر ، فلذلك أول ما تبدأ أشعارهم بذكر الديار ، فتلك ديارهم (١)) .

فقول ه «أول ما تبدأ أشعارهم بذكر الديار» يوهم أن تلك خطة عامة لا تخلومنها قصيدة في القديم . . بينها النظر فيها انتهى الينا من الشعر الجاهلي يكذب هذا الظن . ويكفي أن نشير هنا إلى ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس ، فلن نجد فيه إلا قصيدتين بدئتا بالجديث عن الأطلال : أولاهما قوله :

ما بكاء الكبير بالأطلال وسؤالي وهل تَردُّ سؤالي وهم وهل تَردُّ سؤالي وهي إحدى القصائد المختارة في جمهرة أشعار العرب للقرشي . .

والثانية قوله :

لِلْمُ شَاءَ دارُقد تعفَّتْ طُلولُها عَفَتْها نَضِيضاتُ الصِّبا فمَسيلُها لِللَّهُ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهُ اللْمُلْمُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّاللَّا اللَّهُ اللْمُلْمُ الللِّهُ اللللْمُ الللَّهُ الللَّهُ اللْ

[.]

⁽١) العمدة ١ / ٢٢٦ (ط. محي الدين) .

⁽٢) ديوان الأعشى ص ١٣٤ (ط. صادر)

• وقبل الاستطراد في الاستدلال عليها . . نقف أمام القيمة الفنية للمعاني والصور التي جاءت في شعر امريء القيس عن الأطلال الذي قال فاتبعته الشعراء في قوله . . ويبدو إعجاب النقاد القدماء بالبيت الأول في معلقة امريء القيس ، وهو قوله :

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذكرى حبيبٍ ومنزل بِسقْطِ اللَّوى بين الدَّخُول فحَوْملِ إِذ يقول أبو هلال العسكري:

«وقد بكى امرؤ القيس واستبكى ، ووقف واستوقف ، وذكر الحبيب والمنزل في نصف بيت وهو قوله :

«قفا نَبْك من ذكرى حبيب ومنزل» فهو من أجود الابتداءات(١) »

وهو مانقله ابن رشيق أيضا ، عن السابقين :

« وهو عندهم أفضل ابتداء صنعه شاعر ، لأنه وقف واستوقف وبكى واستبكى وذكر الحبيب والمنزل في مصراع واحد(٢)).

• ولا نريد نقض هذه الأحكام لهوى في النفس ، ولكننا ندعو إلى تأملها وفق مقاييس النقد الصحيح . . وهنا يتبين لنا أن مثل هذه المقولة قد تناولها رواة الشعر ودونها مصنفو النقد وقبلوها إجلالا لمكانة امريء القيس ، وتسليماً بأنه أول من سَلك هذه الطريق فاتبعه الشعراء . .

ولكننا لا نرى في مثل هذا المصراع مارآه فيه القدماء . . من فن وإحكام . . لأنه جمع فيه كل هذه الأمور: الوقوف والاستيقاف . . والبكاء والاستبكاء . . وذكر الأحباب والديار . . لأن الغرض هنا ليس الإيجاز . . أو الإدلال بهذه المقدرة على تزاحم المعاني في كلمات معدودة . . وإلا فها الفرق في الحقيقة بين الوقوف والاستيقاف ، أو بين البكاء والاستبكاء ؟ والمقصد كله أن الشاعر وقف مع صاحبيه وبكوا جميعا من تذكر الأحباب ومنازلم . . ومن العجيب أن هذا الايجاز الرائع الني حمده النقاد القدامي لامريء القيس . . لم يغض منه عندهم هذه الإطالة في تبيان حدود منازل الأحباب من جهاتها المختلفة . .

⁽١) كتاب الصناعتين لابي هلال العسكري ص ٤٥٣.

⁽٢) العمدة لابن الرشيق ١ / ٢١٨ .

بسقط اللوى . . بين الدخول فحومل . . فتوضح . . فالمقراة . . لم يعف رسمها . . بسبب اختلاف الرياح عليها ! ولم ينس أن يشبه بعر الظباء في جنباتها وقيعانها بحب الفلفل ! ولم يكشف امرؤ القيس عن وجده في هذه القصيدة إلا في أبيات معدودة كقوله :

وإن شف ائي عَبْرة إن سفَحْتُها وهل عند رَسْم دارس مِنْ مُعوَّلِ فهل كان وصف من ازل الأحباب آثر عند امريء القيس من تصوير مشاعره وأحزانه لفراق الأحباب ؟!

بينها نجد أن أبا تمام الشاعر العباسي - قد احتزر مما وقع فيه امرؤ القيس ، من ذكر منازل الأحباب مع الأحباب في البكاء . . إذ قال :

فعليه السلام لا أُشْرك الأط للال في لَوْعتي ولا في نَحِيبي فعليه السلام لا أُشْرك الأط ودعائي بالقَفْر غير جُيبِ فسواء إجابتي غير داع إلى المنافقة المنافقة

قال الآمدي: » قوله لا أشرك الأطلال في لوعتي : أي أجعل ذلك خالصا لأحبى، أي لا أقول كما قال امرؤ القيس :

«قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل» فاستوقف ليبكي على الحبيب والمنزل معاً^(١)».

والعجيب أننا نجد في ديوان امريء القيس مطلعا طللياً آخر على هذا النمط، من الجمع في البكاء بين الحبيب ورسوم الديار الدارسات ، وذلك قوله : (٢٠

ورسم عفت آیاته مند أزمانِ كخطٍّ زَبُورِ^(۱) في مصاحف رُهْبانِ عقابيل عَيْسَة من ضمير وأشجان

قف انبك من ذكرى حبيب وعرفان أتت حِجَجُ بَعْدِي عليها فأصبحتْ ذكرت بها الحيَّ الجميعَ فهيَّجَتْ

⁽١) الموازنة للآمدي ١ / ٦٤٥ (تحقيق السيد صقر)

⁽٢) ديوانه ٨٩ تحقيق (محمد أبو الفضل ابراهيم) .

⁽٣) الزبور : الكتاب .

⁽٤) العقابيل : البقايا ولا واحد لها ، ويقال هي وجع في الفؤاد .

فسحَّت (١) دموعي في الرداء كأنها كُلَّي (٢) من شعيب ذات سَخَّ وتَهْتَانِ (٦)

ولا نفهم الحكمة التي تجعل شاعرا متقدما ، يعد من أئمة الشعر الجاهلي يكرر مطلعا بعينه بهذا التصرف القليل . . كأنها ضاقت عليه مطالع الوقوف بالأطلال . . أو كأنها أعجبه احتفاء الناس بقوله :

قفا نبك من ذكري حبيب ومنزل . .

فأعاده في قافية أخرى :

قفا نبك من ذكري حبيب وعرفان . .

وقد فسر شارح ديوانه - الأعلم الشنتمري - العرفان في هذا البيت بأنه: «ما عرف من علامات الدار فدعاه إلى الوقوف والبكاء»(4).

وعلى هذا يكون المعنى : قفا نبك من ذكرى الحبيب ومن عرفاننا لآثار الديار. . ومن الرسم الذي تغيرت ودرست علامته !!

وقد فات امرأ القيس في هذا المطلع أن يسمي مواضع هذا الرسم وأن يَحُدّه بحدوده ، كما صنع في مطلع معلقته الشهيرة!

وقد كان امرؤ القيس حريصا على التحديد الدقيق لهذه الرسوم في مطالعه الأخرى كقوله (°)

فعساً يتسين فهَضْبِ ذي أقدام (1) مشسي السنعاجُ بها مع الآرام (٧) وليس قَبْلَ حوادثِ الأيامِ

لَنِ الديسارُ غَشِيتُها بِسُحَامِ فصفَا الأطِيط فصاحتَين فغاضِرٍ دارُ لهندٍ والرَّبَابِ وفَرْتَني

⁽١) سحت : سالت .

⁽٢) الكلى : الرقع التي تكون في المزادة .

⁽٣) التهتان: السيلان.

⁽٤) ديوانه ٨٩ .

⁽٥) ديوانه ١١٤ .

⁽٦) سحام اسم موضع أوجبل . وعهايتان : جبلان . والهضب : جمع هضبة ، وهي قطعة من الجبل موتفعة . وذو أقدام : جبل .

⁽٧) صفا الأطبط وصاحتان وغاضر كلها مواضع . الأرام : الغزلان .

عُوجَا على الطَّلَلِ المُحَيلِ لأننا نَبْكي الديارَكما بكى ابنُ خِذَامِ (١)

وهذه المواضع التي يسميها امرؤ القيس لابد أن تكون في ديار قومه ، وسواء أمكن تحديدها على مانعرفه من هذه الديار أم لم يمكن . . فإننا نرى أن الإغراق في هذه التسمية للأماكن ليس بمستحب في موطن تصوير الأحزان لفراق الأحبة . .

كما أن امرؤ القيس في هذا المطلع قد جمع عدة أسماء لنسوة لاندري أيتهن يقصد:

دار لهند والرباب وفَرْتنَى ولميس . . .

وقد فهم شارح ديوانه أن هندا هي المحبوبة المقصودة وأن الباقيات صواحبها(٢)

ولكن لم لا تكون هذه الأسماء مقصودة كلها لامريء القيس الذي ألف اللهو . . وتبدل الأحباب ولم يعرف الصدق في عاطفته . . كما يدل على ذلك كثرة من ذكر من النساء في شعره !! والذي يَرِيبُنا في هذا المطلع كذلك هو إقحام هذا البيت الذي ليس له من معنى :

عُوجَا على الطَّلل المُحِيل لأننا نبكي الديار كما بكي ابنُ خِذَام

وأين بكاء ابن خذام للديار ، حتى نستطيع قياس بكاء امريء القيس عليه ؟

لا نجد إلا هذه الإشارة التي رواها الآمدي _ صاحب الموازنة في كتابه «المؤتلف والمختلف» في حديثه عن امريء القيس بن حمام ، إذ يذكر أنه القائل :

لم يَمْتُ جِدَّتها ريتُ وأمطارُ لايطَّبين أبكارُ لايطَّبين أبكارُ أَنَّلَهُ القَّومِ عُوَّارُ القَّومِ عُوَّارُ

لآل هند بِجَنْبِي نَفْنَفٍ دارُ إما تَريْني بَجَنْبِ البيت مضطجعا فرُبَّ بيتٍ يُصِمَّ القومَ رَجَّتُه

ثم يقول الآمدي:

- (١) المحيل: الذي أتى عليه حول فتغير.
 - (۲) ديوانه ۱۱۶ .
 - (٣) يطبيني: يستميلني.
 - (٤) أفأته : غنمته .

(0,0) وهي في أبيات شعر كلب ، والذي أدركه الرواة من شعره قليل جداً

ثم يذكر الآمدي أن بعض الرواة يروي بيت امريء القيس بن حجر: عوجًا على الطَّلل المُحِيل لعلنا نبكي السديار كما بكى ابن حمام يعني امرأ القيس هذا . . ويروي ابن خذام (٢)

• ولا نرى في هذه الأبيات المروية لابن حمام أو ابن خذام ما يصلح أن يكون أصلا يقاس عليه في بكاء المديار ولماذا لم تحفظ أشعاره كما حفظت أشعار امريء القيس ؟ وفرق بين رواية ديوان امريء القيس .

عُوجَاعلى الطَّلَلِ المُحِيلِ لأننا نَبْكي الديارَكما بكى ابنُ خِذَامِ ورواية ابن قتيبة في الشعر والشعراء: عُوجَا على الطَّلَلِ المُحِيلِ لعلَّنا وهي كذلك رواية الآمدي في الموازنة وفي المؤتلف والمختلف.

فقوله في رواية الديوان: لأننا. يفيد أنه يحتذي هذا المثال وأنه يسلك سبيله. أما رواية: لعلنا. فهي تعني محاولة المري القيس أن يحتذي هذا المثال دون أن يستيقن قدرته على ذلك. وإذا كان القياس يقتضي وضوح الأصل الذي يقاس عليه، فإننا نقرر ما قلناه من قبل من عجزنا عن إجراء المقارنة، لضياع أشعار ابن حمام أو ابن خذام!

• وهكذا نرى أن الوقوف على الأطلال في شعر امريء القيس لم يبلغ من الإجادة مبلغا يعصمه من النقد . إذ تكاد الطريقة تكون واحدة في أكثر مطالعه التي ذكر فيها ديار الأحبة . .

ولننظر إلى قوله في مطلع آخر (٣)

⁽١) المؤتلف والمختلف للآمدي ص ٧ (تحقيق عبد الستار فراج)

⁽٢) المصدر السابق ص ٨.

⁽۳) دیوانه ۷۸ .

غَشيتُ ديارَ الحيِّ بالبكراتِ(١) فَغْولٍ فحلِّتٍ فنَفْ؛ فمنْعِجٍ ظلَلْتُ ردائي فوق رأسي قاعــداً أعِنى على التهام والذِّكرات

فعارمةٍ فَبُرْقَةِ العِيرَاتِ إلى عاقل فالجُبِّ ذي الأمراتِ(١) أعلُّ الحَصَى ماتنقضي عَبراتِي يَبِتْن على ذي الهَـمّ مُعْتكـراتِ

فاذا أعرضنا عن هذه المواضع التي ذكرها والتي لا يستطاع معها تصور لموضع واضح المعالم ـ مما جعل الشراح يكتفون بقولهم إنها مواضع . . . أوجبال . . أوأرض فيها حجارة ورمل ! وما أشبه ذلك . . فهاذا نجد في هذا المطلع من بكاء أوحزن ؟!

لقد ظل امرؤ القيس قاعدا في ديار الأحبة النازحين . . مستغشيا رداءه فوق رأسه يعد الحصى ما تنقضي عبراته! ولا نعرف كيف يتفق عد الحصى مع هطول الدمع إلا على نحو مانسبوه إلى مجنون ليلى :

عشبة مالي حيلة غير أنني بِلْقَطِ الحَصى والخطِّ في الدار مؤلِّعُ

أخطُّ وأمحوكلُّ ماقد خطَطْتُه بدمعيَ والغربان حولي وُقَّعُ (٣)

ورواية البيت الثاني في «الزهرة » لمحمد بن داود الظاهري :

أخط وأمحوكل ما قد خططت بكفي والغربانُ في الدار وُقَّعُ (١)

فإذا كان مجنون ليلي قد صور حَيْرته وذهوله بِلَقْط الحصى . . والخط في الرمال . . ثم محوما خطه . . فها معنى عد الحصى فيها يصوره امرؤ القيس في وقوفه على الأطلال ؟

وما الذي يعنيه قول امريء القيس أيضا في مطلع آخر^(٥)

(١) البكرات : جبيلات بطريق مكة كأنها شبهت بالبكرات من الابل . والبرقة أرض فيها حجارة ورمل ! والعبرات مواضع الآعيار ـ وهي الحمر الوحشية .

(٢) غول وحليت ونفء ومنعج : كلها مواضح وعاقل : جبل ، والأمرات : الأعلام واحداها أمرة ، وهي الجبيل الصغير.

⁽٣) ديوان مجنون ليلي ١٨٨ .

⁽٤) الزهرة لمحمد بن داود الظاهري ص ١٩٥

⁽٥) ديوانه ص ١٠٥ .

إلَّا على الرَّبْع القديم بِعَسْعَسَا فلوأن أهل الدارفيعا كعهدنا

كأنَّى أنادى أو أكلُّم أخْسرسَا وجدت مقيلا عندهم ومُعَرَّسا

إلا أن يكون تحسره على أنه لم يجد الَقِيل والمأوى الذي ينزل فيه للقِرَي!! ثم نجد في مطالع امريء القيس مطلعين يحيِّي فيها الطلل تحية الصباح . . ويدعو له بالنعيم ، أولهما قوله(١):

> ألا عِمْ صباحا أيها الطَّلل البالي وهــل يَعِــمَــنْ إلا سعــيـــد نُخلُّذُ ۗ وهل يَعِمِنْ من كان أَحْدَثُ عهده ديارُ لِسَلْمَي عافيات بذي خال ِ وتحُسنب سَلْمَى لاتسزال ترى طُلاً

وهل يَعِمَنْ من كان في العصر الخالي قليل الهموم مايبيت بأوجال ثلاثين شهراً في ثلاثة أحوال! ألحَّ عليها كلُّ أَسْحَم هطَّال (١) من الوحش أوبيضا بِمَيثاء مِحْلال(٢)

وثانيهما قوله: (١)

ألا انْعمْ صباحا أيها الرَّبْعُ وانطق وحمدًّثْ بأنْ زالَـت بليـل مُحولهـا

وحد لله حديث الرَّكْب إن شئتَ واصدلت كنَخْلِ من الأعراض غير مُنبِّق (٥)

وهذه المطالبة للرُّبْع أن يجيب وأن ينطق بحديث الركب . . قد بين امرؤ القيس نفسه في موطن آخر من مطالعه أنها مطالبة لا تتحقق كقوله(١) ؛

يادار سَلْمسى دارساً نؤيها بالسرمل فالخَسْبَتَيْن من عاقل صَمَّ صَداها وعفا رَسْمُها واستعجمَتْ عن مَنْطق السائل

وقوله(٧)

درَسَتْ وتَحْسِبُ عَهْدَها أمس

لِمَن السديسار عفَسُوْنِ بالحَسْبس

(١) ديوانه : ٢٧ . (٢) الأسحم: السحاب الأسود، والهطال: المطر الدائم.

(٣) الطلا : ولد الظبية والبقرة . والميثاء : مسيل الوادي ، والمحلال : الذي يحل عليه كثيرا . أي ينزل .

(٤) ديوانه : ١٦٨ .

(٥) الأعراض : الأودية ، والمنبق : المثمر .

⁽٦) ديوانه : ٢٥٥ .

⁽V) الديوان : ٢٤٣ .

• وهكذا نَقض امرؤ القيس في هذه المطالع مابناه في مطالعة التي استوقف فيها صاحبيه واستبكاهما على الأطلال! وهي مشكلة لا تفسير لها إلا بالتنوع في التعبير عن المشاعر . . بدلا من محاولة البحث في كون بعضها منحولا والآخر صحيحاً.

وأعجب مافي مطالع امريء القيس أنه استوقف صاحبيه على غير طلل . . في قصيدة منسوبة إليه . . وهي قوله(١):

نُقَضِّي لِبَاناتِ الفؤادِ المعلَّبِ من الدهرينْفعني لدى أمَّ جُنْدبِ وجدتُ بها طِيباً وإن لم تَطيَّب خليليَّ مرَّا بي على أمِّ جُنْدُب فإنكها إنْ تُنظراني ساعَةً ألم ترياني كلما جئت طارقا

وهذه القصيدة قد جزم الدكتورطه حسين بأنها منحولة (١) وعلل ذلك بها في مطلعها من رقة اسلامية ظاهرة . . وحكم على قصيدة منافس امريء القيس علقمة بن عبدة ، بأنها منحولة أيضا : «وأنت تستطيع أن تقرأ القصيدتين دون أن تجد فيها فرقا بين شخصية الشاعرين . بل أنت لا تجد فيها شخصية ما ، وإنها تحس أنك تقرأ كلاما غريبا منظوما جمع مايمكن جمعه من وصف الفرس جملة وتفصيلا . وأكبر الظن أن علقمة لم يفاخر امرأ القيس ، وأن أم جندب لم تحكم بينهها ، وأن القصيدتين ليستا من الجاهلية في شيء ، وإنها هما من صنع عالم من علهاء اللغة لسبب من الأسباب التي أشرنا إلى أنها كانت تحمل علهاء اللغة على النحل ، وكان أبو عبيدة والأصمعي يتنافسان في العلم بالخيل ووصف العرب إياها أيهم أقدر عليه وأحذق به . . وما نظن إلا أن هاتين القصيدتين وأمث الهما أثر من آثار هذا النحو من التنافس بين العلهاء من أهل الأمصار الإسلامية . (١) »

⁽١) ديوانه : ٤١ .

⁽٢) في الأدب الجاهلي للدكتور طه حسين ص ٢٠٧ ـ ٢٠٨ .

⁽٣) المصدر السابق ص ٢٠٨.

• ولسنا هنا بصدد مناقشة المنهج الصحيح في قبول الشعر الجاهلي أورده . . فقضية الانتحال في هذا الشعر قديمة ، بدأها محمد بن سلام الجمحي ودعا إلى التثبت في رواية الشعر . . وعرضه على نقدته أهل البصر به . . وترك الأخذ من الصحف . . دون تصحيح للرواية . .

ولكننا أمام هذا المطلع الغريب من مطالع امريء القيس لا نملك الا أن نقرر غالفته للمألوف في الاستيقاف ، فقد جرت عادة الشعراء على طلب الإسعاد والعون من الأصحاب في الوقوف بديار الأحبة النازحين . . لما يكون في هذا الموقف من أسى ولوعة . . ولكن امرأ القيس في هذا المطلع يطلب من صاحبيه أن يمرّا به على أم جندب ، وقد كانت أم جندب هذه امرأته ، حين قال هذه القصيدة التي كانت سببا في طلاقها منه على ما جاء في رواية التحكيم بينه وبين علقمة الفحل . فكيف يحتاج إلى صاحبيه ليمرا به عليها . . وكيف يقول "نقضي لبانات الفؤ اد المعذب والصحيح أن يقاس هذا المطلع على قوله في معلقته : «قفا نبك» لأن صاحبيه يشاركانه البكاء على الطلل . . ولكنها لا يشاركانه في قضاء حاجات الفؤ اد المعذب . . إلا إذا كان يتحدث بضمير المعظم نفسه ! وهذا ما يحملنا على الشك في هذا المطلع المهلهل . . إذ يقول :

فإنكا إن تُنظراني ساعةً من الدهرينفعني لدى أم جندب!

فكيف تكون علاقة امريء القيس بامرأته ، أم جندب على هذا النحو العجيب، الذي يتمنى فيه على خليليه إمهاله «ساعة من الدهر» تنفعه لديها! كيف والرواية نفسها تزعم أنه تزوجها حين هرب من المنذر بن ماء السهاء وصار الى جبلي أجًا وسُلمى فكانت معه حتى مربه علقمة بن عبدة التميمي فتذاكرا . . ثم تحاكها الى أم جندب ففضلت علقمة عليه . (1)

وشعراء المعلقات:

• وإذا كان هذا موقف امريء القيس في حديثه عن الأطلال . . فإن الصورة لا تتضح إلا بتأمل مطالع القصائد المختارة لشعراء الجاهلية ، كما أوردها أبوزيد محمد

⁽١) الرواية عن الأصمعي في شرح الأعلم لديوان امريء القيس ص ٠٠٠ .

ابن أبي الخطاب القرشي في جمهرة أشعار العرب فهذه معلقة زهير بن أبي سلمى ومطلعها(١):

أمِنْ أمَّ أُوْفَى دِمْنَةُ لَمْ تَكلَّم بَهُ دِيار لَهَا بِالسرق متين كأنها مر بها العِين والآرامُ يمشين خِلفةً وأ وقفت لها من بعد عشرين حِجَّةً فلا أضافيَّ سُفْعاً في مُعَرَّس مِرْجَل وفُ فلما عرفت الدار قلت لربعها ألا ترى من ظعائن تح

بَحَوْمانة السَّرَاج فَالْمَتَهُلَّمِ (") مراجيع وَشْم في نَواشِرَ معْصَم وأطْلاؤها يَنهضن من كل عجْثم (ف) فلأياً عرفتُ السدارَ بعد توهُم ونُوُّياً كجِذْم الحوض لم يتثلم (ف) ألا انعم صباحا أيها الرَّبْع واسْلَم تحمَّلن بالعلياء من فوق جُرْثَم (آ)

فقد وصف زهير الديار وصفاً عملوءا بالحركة . . في مشي بقر الوحش والظباء . . ونهوض أطلائها من أماكنهن . وواضح السهات والألوان فيها بقى بهذه الديار بعد عشرين عاما من مفارقته لها . . كها صور جهده في التعرف عليها بعد مراجعة ذكرياته عنها . . فلما اتضحت له المعالم اتجه بتحيته الى الربع ودعا له بالسلامة !

⁽١) جمهرة أشعار العرب ١٠٥ (ط. صادر) .

⁽٢) الدمنة : ما آسود من آثار الدار بالبعر والرماد ونحوهما .

⁽٣) الرقمتان حرتان . مراجيع وشم : وشم مجلد . ونواشر معصم : عروقه .

⁽٤) العين : بقر الوحش ، والآرام : الظباء . وخلفة : سربا بعد سرب ، وأطلاؤها : أولادها ، والمجتم : المكان الذي يجتمن فيه .

⁽٥) السفع : السود . معرس المرجل : المكان الذي يكون فيه . والمرجل : القدر . والنؤى : ما يحفر حول الخيام اتقاء السيل ، وجذم الحوض : أصله . يتكسر .

⁽٦) الظعائن : جمع ظعينة وهي المرأة في الهودج . والعلياء وجرثم موضعان .

• فإذا جئنا إلى قصيدة النابغة الذبياني التي اختارها القرشي . . فإننا نجد في مطلعها لونا آخر من الوقوف بالأطلال إذ يقول(١):

> عُوجُ وا فحيُّ والنُّعْمِ دِمْنَة الدِّار أقْــوَى وأقْــفـرَ من نَعْــم وغــيرَه وقيفت فيبهها سراة اليبوم أسألهها فاستعجمَتْ دارُنعْم ماتكلّمنا فها وجــدتُ بها شيئــاً ألُــوذُ به وقد أراني ونُعْماً لا هيَسِنْ بها

ماذا تحيُّــون مِنْ نؤى ٍ وأحـجــار(٢) هُوجُ الرياح جابي الترُّ ب مَوَّار (") عن آل نعم ، أمُوناً عَبْر أسفار (١) والمدار لوكلم شناذات أخبار إلا السُّامُ وإلا مَوْقد السارِ (°) والدهر والعيشُ لم يَهْمم بإمرار(١)

وهنا تبدو العاطفة التي افتقدناها في أشعار امريء القيس . . التي أزرى بها لهوه واستهتاره . . إذ نجد النابغة يطيل في الحديث عن نعم . . صاحبة هذه الديار التي وقف عليها . . حتى يرسم خياله صورة وجهها قد بدا وسط الظلمات فأضاء :

أقول والنجم قد مالَتْ أواخرُه إلى المَغِيب تثبَّتْ نطرة حار (٧) أم وَجْهُ نُعْم بِدَالي . . أم سَنَا نار؟ فلاَحَ مِنْ بَين أثـوابٍ وأسْـتَــارِ (^)

أَلْحة مِنْ سَنَا بَرْقِ رَأى بَصري بل وَجْــهُ نَعْمِ بدا والليــلُ مُعْتكــر

(١) جهيرة أشعار العرب : ١١٢ .

 (٢) عوجو: قفوا. وقال الأمدي: «العرب لاتقصد الديار للوقوف عليها وإنها تجتاز بها. فإن كانت واقعة على سنن طريقهم قال اللذي له أرب في الوقوف لصاحبه أو أصحابه: قف وقفا وقفوا. وإن لم تكن على سنن الطريق قال : عوجا وعرُّجا . وعوجوا أو عرجوا . كما قال امرؤ القيس :

عُوجًا على الطلل المحيل لعلنا نبكي الديار كما بكس ابن حذام

(٣) أقوى : خلا ، أقفر : صار قفرا ، هابي التراب : سافيه ، الموار : المتحرك.

(٤) سراة اليوم : وسطه . والأمون : الناقة القوية .

(٥) الثمام: نبات (٦) الامرار: تغير الطعم إلى المرارة.

(٧) حار : مرخم حارث . . وهو صاحبه .

(٨) جمهرة أشعار العرب ١١٣ - ١١٤ .

وهذا ما يجعل المقدمة الطللية في هذه القصيدة ذات صلة قوية بموضوعها . . إذ لم تأت هنا مَعْبر المديح . . ولم يتخلص منها إلى غرض آخر . . بل وصلها بالحديث عن محبوبته وتصوير مشاعره نحوها.

أما الأعشى ميمون بن قيس ، وهومن شعراء اللهووالمجون في الجاهلية فإن مقدمته الطللية لا تكشف عن عاطفة ولا تعبر عن حزن . . بل انه يبدؤ ها بالتعجب من هذا الوقوف و الإنكار عليه إذ يقول(١)

ما بكاء الكبير بالأطلال! وسؤالي وما تردُّ سؤالي دِمْنَـةُ قَفْـرةُ تعــاورهــا الـصيف بِريحَــين مِنْ صَبــاً وشـــمال َ لات هنا ذِكْرِي جُبَيْرة أو من جاء منها بطائف الأهوال

فهويري أن الوقت لايتسع لذكري المحبوبة . . التي تفصله عنها الأبعاد الواسعة :

حَلَّ أهل بَعَلْنَ الغُمَيْس فبادُو لي وحلَّتْ عُلُّويةُ بالسَّخَالِ (١) تَرْتعي السَّفْح فالكثيب فذاقا رِّ ، فَرْوضَ الغَضَا فذاتَ الرِّئال (")

رُبَّ خَرْقِ مِنْ دُونها يُخْرسُ السَّفِ مَر ومِيل يُفْضي إلى أمْيال ومن هنا يحمد الأعشى نَأي محبوبته . . فقد أورثه هذا النأي الراحة وقلة الهموم :

حي قليلَ الهموم ناعمَ بال!

فلئن شّطّ بي المزار لقد أُضْ

وارعوي بعد أن أدركه الحلم بل لقد صرفته عن هواها أشغاله ا م ، عدَاني عَنْ هَيْ جكم أَشْعَالي (١) فاذهبي ، ما إليـك أدركني الحِلْد

(١) جهرة أشعار العرب: ١١٩.

(٢ الغميس ، وبادولي ، والسخال : مواضع .

(٣) السفح والكثيب وذو وقار وروض الغضا وذات الرئال : مواضع .

(٤) الهيج : الهيجان ، عداني : صرفني .

وليس هذا بعجيب من أمر الأعشى الكبير . . بل إن تصفح ديوانه يكشف عن نظره إلى المرأة نظرة عابثة مستخفة ، لا تحفل بالعاطفة ، ، ولا تلقي بالا لغير اللذة واللهو . . شأنه في ذلك شأن امريء القيس وأضرابه .

معلقة لبيد:

• والقصيدة التالية لقصيدة الأعشى هي معلقة لبيد ومطلعها :(١)

بِمنِي تأبّد غولها فرجامُها(٢) خَلَقاً كَمَا ضمن الوُحِيُّ سِلاَمُها(٣) حِجَجُ خَلَوْنَ حلالها وحَرامُها(٤) وَدْقَ الرواعد جَوْدُها فرهامُها(٩) وعشية متجاوب إرزامُها(٢) بالجلهتين ظباؤها ونعامها(٢) عُودًا تأجّل بالفَضاء بهامُها(١) زُبُسُرُ تُجِدُّ متونَها أقلَامُها(١) كفَفاً تعرض فَوْقهن وشامُها (١) صُمَّا خوالدَ مايَبِينَ كلامُها (١) عفَت الديارُ عَلَّها فمُقَامُها فمدَافعُ الريّانِ عُرِّي رَسْمُها فمدَافعُ الريّانِ عُرِّي رَسْمُها دِمَنُ تَجَرَّمَ بَعْدَ عهدِ أَنِيسِها رُزقَت مرابيعَ النجوم وصابَها من كل ساريةٍ وغادٍ مُدْجِنِ فعلا فروع الأيهقان وأطفلت والعِينُ ساكنة على أطلائها وجَلَا السيولُ عن الطُّلول كأنها أورَجْعُ واشمةٍ أُسِفَّ نَوُورها فوقفتُ أسالها ، وكيف سؤ النا فوقفتُ أسالها ، وكيف سؤ النا عَرِيَتْ وكان بها الجميعُ فأبْكروا

⁽١) جمهرة أشعر العرب ١٢٩ .

⁽٢) عفت : درست . ومني : موضع قريب من طخفة ، وليس بمنى مكة ، تأبد : توحش . الغول والرجام جبلان .

⁽٣) الريان : واد بحمى ضرية ، ومدافعه : مجارى الماء فيه ، والوحي : الكتابة . السلام : الحجارة .

⁽٤) تجرم : مضى .

⁽٥) مرابيع النجوم : أنواء الامطار في الربيع ، صابها : أمطرها ، الودق : المطر ، الجود : الغزير ، الرهام : الضعيف .

⁽٦) السارية : السحابة تسير بالليل ، والغادي : الذي يسير بالغداة ، والمدجن : المظلم ، والإرزام : صوت الرعد .

⁽٧) الأيهقان : نبت . أطفلت : أصبحت ذات أطفال . الجلهتان : الجهتان .

⁽٨) العين : بقر الوحش . الأطلاء : الأولاد . العوذ : الحديث النتاج . . تأجل : تجمع ، البهام : صغار الضأن والمعز والبقر .

⁽٩) الزبر: الكتب، وتجد: تجعله جديدا.

⁽١٠) • النؤور : دخان الشحم . وأسف : ذرّ . والكفف : المستديرات وتعرض : ظهر .

وقد شرح العلماء هذه المعلقات ، ومنها معلقة لبيد ، شرحا لغويا وبلاغيا ، ولكن هذه الصورة الرائعة بحاجة إلى تذوق يكشف مافيها من جمال تضافرت عليه عوامل عدة ، من الإيقاع والقافية ودقة التصوير ويكفي أذ نقف أمام قوله :

دِمَنُ تَجرّم بَعْدَ عهدِ أنيسها حِجَجُ خلَوْنَ حلالها وحرَامُها أو قوله:

وجَلا السيولُ عن الطلول كأنها زُبُرُ تُجِدُّ متونَها أقلامُها

وقد أعجب الفرزدق بهذا البيت أيها إعجاب ، كما أعجب به الكثير من النقاد في القديم ، قال الأمدي :

« وهذا مازلت أسمع العلماء تعجب من حسنه ولطافة معناه $^{(1)}$. وأورد خبرا عن الفرزدق يدل على إعجابه بهذا البيت ، ولكنه يحتوي على مبالغة مذمومة $^{(1)}$.

وهـذا الإعجـاب يرجـع لما فيه من تشبيه بارع . . بل لما فيه من تناسب رائع بين اللفظ والمعنى . . وتناسب بين الكلمات في الإيقاع . أو قوله : عريت وكان بها الجميع . .

وغير ذلك من لمسات حارت . . تنقل شعور الأسى والتفجع على خلاء الديار من أهلها . . ولا نحس فيها البرودة التي تسيطر على أطلال امريء القيس والأعشى !

* * *

أما أطلال طرفة . . فليس فيها إلا هذا التشبيه المعجب (٢):

لِخَوْلَة أَطْلَال بُبرْقَةِ ثَهْمَدِ تَلوح كَباقي الوَشْمِ في ظاهر السِدِّ (٣)

- (١) الموازنة ١ / ٤٨٩ والحبر في الأُغاني ١٤ / ٩٨ .
 - (٢) جمهرة أشعار العرب ١٤٩ .
- (٣) خولة : امرأة من بني كلب ، ثهمد : موضع .

قال الأمدى:

« وقد تصرف شعراء الجاهلية والإسلام في وصف آثار الديار أحسن تصرف وأتوا فيه بكل تشبيه مستحسن ومعنى مستغرب ، فمنه قول طرفة :

تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد(١) >>

• ولم يكن طرفة وحده هو الذي شبه بقايا الديار ببقايا الوشم . . فإن زهير بن أبي سلمي قد أتي بقريب من هذا التشبيه في معلقته إذ قال :

ديارُ لها بالرقمين كأنها مراجيع وَشُم فِي نَواشر مِعْصَم . . . أما البيت الثاني في معلقة طرفة :

وقوف بها صَحْبي عليَّ مَطِيَّهُمْ يقولون لا تَهْلِكُ أَسَّي وتجلَّدِ فإنه يبدو محاكاة لبيت امرىء القيس:

وقوف بها صحبي على مطيَّهم يقولون لا تهلك أسي وتجمُّل

ومثل هذا التشاب بين بيتين في معلقتين شهيرتين خليق أن يجعلنا نتثبت في الرواية ، وخاصة أن ابن سلام قد روى البيت الأول من هذه المعلقة على نحو يخالف الرواة الذين جمعوا هذه المعلقات والشراح الذين شرحوها . فقد روى ابن سلام صدر هذه المعلقة هكذا :

لَخُوْلَةَ أَطُلالُ بِرِقَةَ ثُهُمدِ وقفتُ بها أبكي وأبكي إلى العدد (١)

⁽١) الموازنة ١ / ٤٨٩ .

⁽٢) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ١ / ١٣٨ .

وبعيد أن يعمد طرفة إلى بيت شاعر سابق فيأخذه بجملته ولا يبدل فيه إلا لفظ القافية !

وأيا كان الأمر ، فإن مطلع معلقة طرفة ليس من فن الأطلال في شيء . . إذ شابه بيته الأول بيت زهير . . وشابه الثاني بيت امريء القيس . . فلم يبق له إلا الإحسان في وصف ناقته !

* * *

أما معلقة عنترة فصورة الأطلال فيها واضحة ، ووقوفه عليها وقوف محب صادق العاطفة ، يقول : (١)

هل غادر السهعراء من مُتردَّم أم هل عرفتَ الدار بعد توهُم (٢) الله رواك نَ بَيْسنه ن خصائصُ وبقي هُ من نُوْها الله مرنَّم (٤٣) دارُ لانسة غضيض طرفها طوع العنان لذيذة المتبسم يادار عَبْلة بالجِوَاء تكلّم وعمي صباحاً دارَ عَبْلة واسْلَمِي فوق فيها ناقتي وكأنها فَدَنُ لأقضى حاجة المتلوَّم (٤)

وكأن عنترة يمهد لوصف الطلل بقوله: هل غادر الشعراء من متردم . . أي هل بقى من مجالات الوقوف بالأطلال ما يستطيع أن يتحدث عنه حديثا جديدا أويأتي فيه بصورة معجبة . .

ولم يشغلنا عنترة في هذه الصورة بتحديد مواقع الديار ، بل اختصر القول اختصارا ، فجعل هذه الداربالجواء وناداها بعد أن وصفها : يادار عبلة بالجواء تكلمي . .

⁽١) الجمهرة ١٦١ .

 ⁽٢) المتردم: الموضع الذي يحتاج إلى إصلاح ، تردم ثوبه: رقعه.
 (٣) الرواكد: الأثافي ، وهي الحجارة التي توضع عليها القدر. والخصائص: الفرج ، جمع فرجة ، والنؤى

⁽٤) الفدن : القصر ، والمتلوم : المتمكث .

ووقف عليها وحده دون صخب ونداء للأخلاء ليعينوه:

فوقفت فيها ناقتي . .

ثم كانت تحيته للطلل الذي تقادم عهده:

حُيِّيت مِنْ طلل تقادم عهدُه أَقْوَى وأَقْفَر بعد أمِّ الْهَيْثَم

ولأن عنترة فارس محبّ فقد مضى خلال معلقته يتحدث عن فروسيته حينا وحبه حينا آخر . . وأخذ يتابع رحيل عبلة عن هذه الديار :

في الحرب أُقْدم كالهِزَبْر الضَّيْغَم كيف المزارُ وقد تربُّع أهلُها بعُنيْزتين وأهلُنا بالغَيْلَم إن كنت أزْمُعْتِ الفراة، فإنا زُمَّت ركائبكم بليل مظلم ما راعني إلا حولة أهلها وسط الديار تُسفُّ حَبُّ الخِـمْـخِـم (١)

ياعَبْلُ لو أبصرْتِني لرأيتِني

والجديد في معلقة عنترة ـ مما تميز به عن أصحاب المعلقات أنه جمع بين وصف أطلال ديار عبلة بالجواء . . . في مطلع قصيدته . . ووصف ديارها التي نزحت إليها في عرض القصيدة ، إذ قال: (١)

> ولقد مرَ رْتُ بدار عَبْلة بعدما جادت علیه کل بکر حُرّة سَحِّا وتُسْكابا فكل عشية وخَلا الله بارم بها فليس ببارح هَرْجًا مُ يَحِكُ ذراعَه بذراعه

لعب الربيع بربعها المتوسم فتركْنَ كلَّ قرارةٍ كالسدرهم (٣) يجري عليها الماء لم يتصرُّم (١) غَردًا كفِعْلِ الشارب المترنَّم قَدُّح المكتِّ على الزِّنادَ الأجدم(٥)

⁽١) حب الخمخم: حب تعلقه الابل.

⁽٣) البكر: السحابة. الحرة: الخالصة. القرارة: الحفرة.

⁽٤) السح : الصب بشدة . والتسكاب : السكب . يتصرم : ينقطع .

⁽٥) الهزج: المصوت. المكب: المقبل على الشيء. الأجدم: المنقطع اليد.

وقد بلغ من جمال هذا الوصف _ وإن كان وصفا للذباب _ أن تحاماه جميع الشعراء _ كما قال الجاحظ:

«فإنه وصفه فأجاد صفته ، فتحامى معناه جميع الشعراء ، فلم يعرض له أحد منهم . ولقد عرض له بعض المحدثين ممن كان يحسن القول ، فبلغ من استكراهه لذلك المعنى ومن اضطراب فيه أنه صار دليلا على سوء طبعه في الشعر ولم أسمع في هذا المعنى بشعر أرضاه غير شعر عنترة(١).

وقد نستطيع تعليل هذه الإجادة بقوة العاطفة التي تتبدى في هذه القصيدة المختارة لعنترة ، ففي مطلعها قوة . . وفي صورها كذلك قوة ناشئة عن النظرة الجمالية التي رأى بها عنترة كل شيء في دار محبوبته . . حتى حركة الذباب وطنينه .

معلقة الحارث:

ثم ننظر في قصيدة الحارث بن حلزة اليشكري وقد بدأها بذكر الفراق . . ثم عاد بذكرياته إلى العهد السابق . . حين كانت الديار ملأى بالحياة والحركة :

رُبَّ ثاوِ يُمَـلُّ منه الـشُّـوَاءِ(٢) ء فأَدْنَى ديارها الخَلْصاء ق فتاقٍ فعاذِبُ فالوفا؛ بُب فالسَّعبتان فالأبلاء

آذنَـــُنـا سَــُنها أسله بعد عهدٍ لنا ببُرْقة شَمَّا فالمحياة فالصفاح فأعسا فرياض القَطا فأودية الشَّرْ لا أرى من عهدت فيها فأبكي الم يَعِير البكاء (٣)

وهو مطلع جديد لا يرجع فيه الحارث بن حلزة إلى نموذج سابق . . إلا في تعداد أساء المواضع التي كانت محبوبته تقيم بها . لكنه أوجز القول أيها إيجاز في نظره إلى هذه الأطلال وافتقاده من كانوا يعيشون فيها . . ومن ثم كان بكاؤ ه وذهاب فؤ اده :

(١) الحيوان للجاحظ ٦ / ٣١١

(٢) آذنتنا : أعلمتنا . الثاوي : المقيم ، الدله ذهاب الفؤ اد

(٣) ويحير : يرجع .

يسوم دُلُها وما يجبر البكساء لا أرى من عهدت فيها فأبكى الـ

وللحارث بن حلزة قصيدة وقف فيها على الأطلال غير هذه أوردها المفضل الضبي في مختاراته الشعرية ومطلعها : (١)

سُفع الخدود يَلُحْن كالشمس (٣) راض الجمادِ وآيةِ الدُّعْسِ (كلِّ الأمور وكنت ذا حَدْس (٥)

لِمَن السديسار عفَوْنَ بالحَسْس آيساتها كمهسارق الفُوْس (٢) لاشــيء فيــهــا غير أصْــورَةٍ أو غير آثار الجياد بأع فحبست فيها الركب أحدس في

وليس فيها إلا مزيد من التصوير لهذه الآثار . . يضاف إلى الصور العديدة التي سجلها ديوان الشعر العربي في الجاهلية لهذه الأطلال . .

لكن الحارث بن حلزة يذكر في هذه القصيدة أنه حبس الركب . . وأخذ يحدس ويتأمل . . فلما أحس باليأس انصرف إلى ناقته السريعة :

راف الظِّلال وقِلْنَ في الكُنْس (١) منها ولا يُسليك كالماس تَهِصُ الحصي بمواقع خُنس (٧)

حتى اذا التفع الظّباء بأط ويئــــت مما قد شُغــفــتُ به أنْمِي الى حَرْفٍ مُذَكِّرةٍ

(١) المفضليات ص ١٣٢ (الطبعة الرابعة)

(٢) عفون : درسن ، الحبس : موضع . المهارق : الصحف .

(٣) الأصورة : جمع صوار وهو القطيع من البقر . والسفع : السود .

(٤) الأعراض : النواحي والجهاد : موضع . آية الدعس : أثر وطء الاقدام .

(٥) الحدس: الظن.

(٦) الكنس : بضمتين : جمع كناس وهو مأوى الظبي .

(٧) الحرف : الناقة الماضية . المذكرة : التي تشبه الفّحل ، تهص : تدق فتكسر . الخنس : القصار .

فدل بذلك على أنه تناول موضوع الوقوف بالأطلال تقليدا ولم يكن له موقف ذاتي في هذا المطلع .

عمروبن كلثوم:

• وتبقى من المعلقات السبع واحدة خلت من الاشارة إلى الأطلال أو البكاء على النازحين . . وهي معلقة عمرو بن كلثوم التغلبي ومطلعها (١) :

ألا هُبِّي بِصَحْنَاكُ فَاصْبِحِينًا وَلا تُبْقِي خُورَ الأندرينا(١)

وهي المقدمة الخمرية الوحيدة في المعلقات السبع . . التي بدأت كلها بذكر الأطلال إلا قصيدة عمروبن كلثوم.

وقد ألقى الدكتورطه حسين في كتابه « في الأدب الجاهلي » ظلالًا من الشك حول تلك القصيدة . . إذ قال (٣) : «فلسنا نعرف كلمة تضاف إلى الجاهلين وفيها من الإسراف والغلوما في كلمة عمرو بن كلثوم هذه ، على أنَّ رأي الرواة فيها يشبه رأيهم في معلقة امريء القيس ، فهم يشكُّون في بعضها ، وهم يختلفون في الأبيات. الأولى منها أقالها عمرو بن كلثوم أم قالها عمرو بن عدي ابن أخت جَذِيمة الأبرش ؟ فأما الذين يضيفون هذه الأبيات لعمروبن كلثوم فيرون أن مطلع القصيدة:

ألا هُبِّي بصحنك فاصبحينا . .

وأما الآخرون فيرون أن مطلعها:

قِفي قَبْلَ التفرق يا ظَعِينا . .

وأولئك وهؤ لاء لا يختلفون في إنطاق عمرو بن عدي بالبيتين:

⁽١) الجمهرة ١٣٩.

⁽٢) هبي : انهضي . الصحن : القدح العظيم . اصبحينا : اسقينا الصبوح . الأندرين : قرية بالشام .

 ⁽٣) في الأدب الجاهلي للدكتورطه حسين ٢٢٠ - ٢٢١ .

صددْتَ الكأسَ عنا أمَّ عمرو وكان الكأس عَبْراها اليَمِينا وماشرُّ الشلاشة أمَّ عمرو بصاحبِكِ الذي لا تَصْبَحِينا

ثم يوضح الدكتور طه حسين الأدلة التي يستند إليها في الحكم بأن هذه القصيدة منحولة فيقول :

« وأنت حين تمضي في القصيدة ترى فيها أبياتا مكررة تقع وسط القصيدة و في آخرها ، ولكن هذا النحومن الاضطراب مشترك في أكثر الشعر الجاهلي ، مصدره اختلاف الروايات ، فإن قرأت القصيدة نفسها فستجد فيها لفظا سهلا لا يخلومن جزالة ، وستجد فيها معاني حسانا وفخرا لا بأس به ، لولا أن الشاعر يسرف فيه من حين إسرافا ينتهي به إلى السخف كقوله :

إذا بلّغ السرضيع لنا فطاما تخرُّ له الجباب ساجدينا وستجد فيها أبياتا تمثل إباء البدوي للضيم واعتزازه بقوته وبأسه كقوله:

ألا لا يَجْه لَنْ أحدُّ عليا فنجه لَ فوق جَهْل الجاهلينا

قلت إن هذا البيت يمثل إباء البدوي للضيم ، ولكنى أسرع فأقول إنه لا يمثل سلامة الطبع البدوي وإعراضه عن تكرار الحروف إلى هذا الحد الممل . . فقد كثرت هذه الجيهات والهاءات واللامات ، واشتد هذا الجهل حتى مُلَّ ، وهم يَعْملون على الأعشى بيتا فيه مثل هذا النوع من التعسف ، لكننا نشك في صحة هذا البيت الذي يضاف إلى الأعشى . ومهها يكن من شيء فإن في قصيدة ابن كلثوم هذه من رقة اللفظ وسهولته ما يجعل فهمها يسيرا على أقل الناس حظا من العلم باللغة العربية في هذا العصر الذي نحن فيه ، وما هكذا كانت تتحدث العرب في القرن السادس للمسيح وقبل ظهور الاسلام بها يقرب من نصف قرن . وما هكذا كانت تتحدث ربيعة خاصة في هذا العصر الذي لم تسد فيه لغة الشعر،، (1)

• وإنها وقفنا أمام تلك المعلقة ، لمخالفتها إجماع أصحاب المعلقات على البداءة بذكر الأطلال ، على تفاوت بينهم في الطريقة كها أوضحناه . . ولكن هذا لا يحملنا على الحكم على هذه المعلقة بأنها منحولة ، كها صنع الدكتور طه حسين ، ولا بأن المصدر السابق ٢٢١ - ٢٢٢ .

مقدمتها الطللية قد ضاعت كها قال غيره (١) ولكننا نقول إن دلالة خلوهذه المعلقة من ذكر الأطلال أن ذلك التقليد لم يكن ملتزما . . وإلا لما وسع عمروبن كلثوم أن يخالفه . . ثم تختار العرب قصيدته وتسلكها مع هذه القصائد والمختارات التي كتب لها أوفر حظ من الذيوع والتقدير . .

• فإذا عرفنا أن عمروبن كلثوم لا يعرف الرواة له إلا هذه القصيدة ، وليس كغيره من شعراء الجاهلية من أصحاب الدواوين . . أدركنا تعذر وقوع النحل في قصيدة واحدة هي كل ما عرف لهذا الشاعر الجاهلي . . فقد يتصور الانتحال في ثنايا شعر شاعر من أصحاب الدواوين ، كما صنع الرواة في شعر امريء القيس . . أما عمرو ابن كلثوم فإن كل حظه من الشعر هذهالقصيدة . كذلك فإن ابن سلام الجمحي ، قد أورد مطلع هذه القصيدة دون خلاف وهو :

ألا هُبي بِصَحْنَكَ فاصبحينًا ولا تُبْقِي خُور الأنْدرينَا

وجعله من الطبقة السادسة: « أربعة رهط لكل واحد منهم واحدة (٢) » وهم عمرو بن كلثوم ، والحارث بن حلزة وعنترة بن شداد ، وسويد بن أبي كاهل . وقد ذكره ابن قتيبة في الشعر والشعراء ونسب هذه القصيدة إليه ، فقال : وعمرو بن كلثوم هو القائل :

ألا هبي بصحنك فاصبحينا .

وكان قام بها خطيبًا فيماكان بينه وبين عمروبن هند وهي من جيد شعر العرب القديم ، وإحدى السبع ، ولشغف تغلب بها وكثرة روايتهم لها قال بعض الشعراء :

أَلْهَى بني تغلبِ عن كلِّ مكَرُمةٍ قصيدة قالها عمروبن كُلْشوم في ينف بني تغلبِ عن كلُّ مكَرُمة في اللَّرِجال لفخر غير مَسْؤوم (٣)

(١) انظر رأي الدكتور حسين عطوان في كتابه مقدمة القصيدة في الشعر الجاهلي ص ١٧١ ـ ١٧٣ .

⁽٢) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ١ / ١٥١ .

⁽٣) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١ / ١٨٨ (تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر)

أما ما أشار إليه الدكتور طه حسين من اختلاف الرواة في نسبة بعض أبيات هذه المعلقة . . فذلك إنها وقع في البيتين اللذين أشار إليهها . . فقد قال التبريزي في شرحه للمعلقات : »بعضهم يروي هذين البيتين لعمرو ابن أخت جذيمة الأبرش (١)

وقد ذكرهما المرزباني في معجم الشعراء منسوبين إلى عمروبن عدي بن نصر اللخمى ، فقال :

وعمرو هو القائل في رواية المفضل \dots (۲)»

ثم ذكر البيتين . . ولكن جاء في هامش مخطوطة المرزباني : «البيتان يرويان في معلقة عمرو بن كلثوم» .

إذن فقد وقع الاختلاف بين بعض الرواة في نسبة هذين البيتين إلى عمروبن كلشوم ، أو إلى عمروبن عدي ، وهذا الاختلاف دليل على التحري في النسبة والضبط في الرواية . . فلا ينبغي أن يكون دليلا على الشك في الرواية كلها وإسقاطها جملة عن عمروبن كلثوم !

وقد أشار أبو العلاء في رسالة الغفران إلى أمر هذا الخلاف في شأن هذين البيتين عما يدل على شهرته ، وانتهي إلى أن عمروبن كلثوم ربها سمعها من عمروبن عدي «فحسَّن بهما كلامه واستزادهما في أبياته» (٢٠)،

وأما ما أبداه الدكتورطه حسين من أسباب لرد هذه القصيدة ، ترجع إلى يسر معانيها وسه ولة فهمها . . وسهولة ألفاظها مع إقراره بأنها لا تخلومن جزالة _ فهو سبب يصلح لرد الشعر العربي كله . . ففي كل عصوره كانت السهولة وكان اليسر مع الغلظة والخشونة والغرابة جنبا إلى جنب . . وفي شعر امريء القيس قصائد عملوءة بالغريب . . وأخرى تفهم بأقل حظ من معرفة اللغة . . فليس عمروبن كلثوم بدعا في عصره وليست قصيدته بمختلفة عن كثير من القصائد التي يقر بصحتها النقاد .

⁽١) شرح المعلقات للتبريزي ص ٢١١ .

⁽٢) معجم الشعراء للمرزباني ص ١١ (تحقيق عبد الستار فراج)

⁽٣) رسالة الغفران (تحقيق الدكتورة عائشة عبد الرحمن) ص ٧٧٨ .

وقد عاد الدكتورطه حسين في آخركتابه «في الأدب الجاهلي» فأقربأنه لاينبغي أن تتخذ غرابة اللفظ دليلا على الصحة والقدم ، ولا ينبغي أن تتخذ سهولة اللفظ دليلا على النحل والجدة (١) .

وأما البيت الذي ردِّه لما فيه من تكرار لبعض الحروف :

ألا لا يَجْهِلُن أحدُّ علينا فنجهلَ فوق جهل الجاهلينا

فهو سبب غريب دفعه الشيخ محمد الخضر حسين رحمه الله بقوله: « التكرار في ذاته لا يخدش وجه الفصاحة ، وإنها مرجعه الذوق السليم فهو الذي يقضي بسوء أثره أو حسن موقعه من الكلام. وقد بسط البحث وحققه في هذا الوجه الشيخ عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز ، وضرب أمثلة للتكرار الذي لايمس فصاحة الكلام ومن هذه الأمثلة:

. وجهل كجهل السيف والسيف منتضي وجهل كجهل السيف والسيف مغمد^(٢)

* * *

وحسبنا هذه النظرة الشاملة إلى المعلقات السبع طبقا لاعتبار القرشي في جمهرة أشعار العرب ، ولاعتبار غيره . فالقرشي أدخل الأعشى في أصحاب المعلقات وأخرج منهم الحارث بن حلزة . وهذا هو الخلاف الوحيد بين اختيار القرشي واختلاف غيره وقد نظرنا إلى هذه القصائد الثانية . . السبعة التي اختارها القرشي . . والثامن الذي أخرجه منهم واعتبره غيره من أصحاب المعلقات وهو الحارث بن حلزة . .

⁽١) في الأدب الجاهلي ص ٢٦٢ .

⁽٢) نقض كتاب في الشعر الجاهلي للشيخ محمد الخضر حسين ص ٧٣٥.

• وقد اتضح لنا أن مطالع هذه القصائد تتفاوت في اعتبار الوقوف على الأطلال. فقد خلت قصيدة عمروبن كلثوم من هذا الوقوف وأنكره الأعشى واستخف به . . كما تتفاوت في العاطفة التي أبداها الواقفون . . فمنهم من كشف عن صدق كزهير وعنترة ولبيد . ومنهم من وقف وقفة اللاهي ، بدليل ما عقب به هذا الوقوف من مجون وهو امرؤ القيس . ومنهم من أشار إشارة لا تكشف عن إحساس كطرفة .

ولا نستطيع هنا المفاضلة بين أصحاب الإحساس الصادق منهم . . فلكل منهم طريقته وأسلوبه في تصوير عواطفه ، ولكن عنترة يتميز من بينهم بأن موضوع قصيدته هو الحب والحرب ، فلذلك أطال النفس في الحديث عن المحبوبة . وكان حديثه عن دارها بالجواء موصولا بحديثه عن دارها التي نزحت إليها .

وأشير هنا إلى أن بعض أحكام الباحثين المعاصرين في هذه القضية لم تكن مبنية على استقراء ، بل على غلبة الظن . ومن ذلك ما قاله الدكتور محمد غنيمي هلال عن بكاء الأطلال في الشعر العربي القديم : «وغالبا ما كانت أجزاء القصائد القديمة التي موضوعها هذا البكاء هي أصدق وأنبل وأقوى ما في تلك القصائد جميعا ، وفيها يظهر الحزن وتبدو العواطف الذاتية المشبوبة من وراء الوصف الدقيق لرسوم الديار وأطلالها وصفا يستجلى فيه طابع البادية وتقاليدها وخصائص الحياة الطبيعية والاجتماعية فيها» (1)

• ومع أنه يبني حكمه على الغالب . . إلا أن الذي يتضح من استقراء أشعار الجاهلية أن الصدق في التعبير وتصوير العواطف في البكاء على الأطلال هو القليل . وأن الكثرة من هذا الشعر تتخذ من الوقوف غرضا تقليديا ومعبرا إلى ما وراءه من موضوعات القصيدة . ويتضح هذا من تأمل هذه القصائد المختارة التي سميت بالمعلقات . فهي كما أوضحناه ليست سواء في صدق التعبير أو تصوير الشعور .

فإذا جاوزناها إلى غيرها من المختارات الشعرية الجاهلية ، فإن هذا التفاوت يطرد . . مما لا يصح معه القول بأن أجزاء هذه القصائد التي تتحدث عن الأطلال هي أصدق وأنبل وأقوى ما فيها !

⁽١) الأدب المقارن للدكتور محمد غنيمي هلال ص ١٩٦

•

,

الاعراب سم العرب الفصحي

د. محمد ابراهيم البنا

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد:

فقد كان الاعراب وما زال هو قطب الدائرة في النحو، به يفتتح النحاة حديثهم، ومن خلاله يتناولون خواص التركيب المختلفة لايتركون منها شيئا، وإنه اذا كانت قضية الاعراب قد شغلت القدماء وعنوا بها وأصلوها، فانه يبدو أن القيمة الأساسية للاعراب قد ذهب بها هذا الاصرار الجاد على رسم صورة الاعراب وتقنينه وترسيخه في مدارك الدارسين والمتعلمين، حتى أصبحنا لانرى من الاعراب الاتلك القواعد الصارمة التي يحكمون بها على التراكيب، وتلك العلامات التي يحددون بها كل باب من أبواب النحو، ويريدون لنا أن نترسمها في أساليبنا ولا نخل بعلامة منها، لقد أصبحنا لانرى من الاعراب الا قول النحاة: انه الأثر الذي يجلبه العامل في آخر الكلمة، وأن المعرب هي الكلمة التي وقع فيها الاعراب، أوما اختلف آخره باختلاف العوامل لفظا أو محلا، وانتقل بنا النحاة الى أحاديث تتصل بأنواع الاعراب باختلاف العوامل لفظا أو محلا، وأيها الاصل في الأسهاء والأفعال، الاعراب أو البناء؟ وأصبح مصطلح البناء مقابلا لمصطلح الاعراب، ولا علاقة لغويا تسيغ هذه المقابلة. وأصبح مصطلح البغوم فيه معايشة لواقع اللغة، واستلهام لنصوص القدماء، ومحاولة لبعث الدلالة اللغوية للاعراب، وعودة الى ذلك العالم الأول الذي وضع هذا المصطلح: الاعراب.

ان السمة البارزة للنحو-كما قلنا- أنه نحواعرابي ، فهويقوم في منهجه على الاعراب ، وقد بدا هذا واضحا منذ بدأ التفكير في النحووحتى عصرنا هذا ، يقول سيبويه ذاكرا اهتمام السابقين عليه بالاعراب : «ان النحويين ممّا يتهاونون بالخلف إذا عرفوا الاعراب» (۱) ، يريد أنهم قد يتهاونون بالمحال من القول إذا عرفوا إعراب الكلم ، فبين الخليل وسيبويه خطأهم في ذلك ، وأنه لابد من استقامة الدلالة في التراكيب . وهذا النص يقفنا على مدى ما للاعراب من مكانة عند رواد النحو ، وهي مكانة سوف نحاول التنبيه عليها وعلى دواعيها فيها يأتى .

⁽١) الكتاب من ٢ / ٨٠

ان هذا التصنيف في النحو، والذي توخى فيه المؤلفون خاصة واحدة من خصائص التراكيب فجعلوها معتمد حديثهم وتناولوا باقي هذه الخصائص من خلالها _ليقفنا على أن هذا النظام الاعرابي قد فاق في الأهمية ما سواه ، وكأنهم أدركوا أنه اذا خلا منه الأداء فقد ذهبت عنه مسحة العربية . ولقد يكون من حقنا أن نستنتج أنه كان في مقابل هذا الأداء المعرب أداء آخر لايتسم بهذا الوضوح ، ولا يلتقي العرب في مختلف بيئاتهم حوله ، كما يلتقون حول هذا الأداء المعرب . ويبدوأن المتقدمين من علماء اللغة قد وجدوا _ حين تصدّوا لوصف هذه اللغة _ نمطين من الأداء ، أحدهما واضح بين ، والآخر ليس بهذه المنزلة من الوضوح والبيان ، تختلط فيه الابنية وتمتزج ، فعزوا وضوح النمط الاول الى هذه العلامات التي تمثل حدودا للابنية داخل الجمل، اذا أقيمت على وجوهها فإن البناء يصبح واضحا بينا ، أما اذا أغفل هذا الأداء الاعرابي فقد تتعرض البنية لكثير من التغييرات التي لاتقف عند حد آخرها ، بل تتعداه الى داخلها ، وذلك على نحوماصنعت لغة الخطاب في بيئاتنا العربية . ولاحِظِ الآن كيف نتكلم في ذهب من البناء - في كثير من التراكيب - صوت أو صوتان، ولاحظ كيف تتداخل الأبنية في التركيب فلا يستبين بعضها من بعض، ولسنا في حاجة لتقديم نهاذج من أساليب الخطاب ، فنحن ندرك جيدا ما صنعت بأصوات اللين في أواخر البناء ووسطه ، ثم إن الاصوات الصامتة كثيرا ماتغيم في الأداء فلا تتمكن في مخارجها ، هذا الى تآكل بعض هذه الاصوات كما قدمنا ، ويصل الأمر في النهاية الى أن يكون مناط الفهم هو العرف ، ومن هنا كانت اللهجات في كل بيئة من بيئاتنا .

ان منبع الوضوح في الأداء الاعرابي هو أنه كان يلتزم فيه أداء صوت لين بعد الحرف الصامت في نهاية كل بناء ، وقد يزاد على صوت اللين هذا نون التنوين في الاسهاء المنصرفة ، وإن الحرص على نطق هذه الاصوات بعد البناء يستتبع حتما إيضاحه ونطقه كاملا على نحو ما نجد الآن في أداء القراء والشعراء والخطباء .

والـذي أعنيه بالأداء الاعرابي هو الملتزم للعلامات التي وضعها النحاة ، والتي يكون عليها آخر البناء ، سواء أكانت هذه العلامات متغيرة أم ثابتة ، وسواء أكانت حركة أم سكونا ، وسواء أكانت الحركة قصيرة أم طويلة ، فها عدّه النحاة حركة بناء لا

يفترق في الحقيقة عن حركة الاعراب من حيث الوظيفة التي حددناها للاعراب، وهي الابانة والوضوح ، وكذلك نطق الصوت مجردا من الحركة ، وهو ماعدوه سكونا أوجزما أو وقفا يتحقق به الغرض أيضا ، فكل العلامات التي وصفوها لمختلف الكُلِم هي بيـان لها ، وان كان منهـا ماهـومتغير ، وما هوملازم لوضع واحد لا يفارقه ، وقد نجد في كلام أبي زيد الأنصاري هذا المعنى ، قال : عرّبت له الكلام تعريبا ، وأعربته له: إذا بينته حتى لايكون فيه حضرمة (١) وكذلك قال الفراء: الاعراب والتعريب معناهما واحد ، وهو الابانة (١). وقد وجدت من نحاة الكوفة من قال في حديثه غن اعراب الاسماء الستة من مكانين: انها أعربت هذه الاسماء الستة من مكانين لقلة حروفها ، تكثير الها ، وليزيدوا بالاعراب في البيان والايضاح (٢) ، فلعله تنبُّه إلى الوظيفة التي حُدَّدناها للاعراب ، وهو ايضاح البناء واقامته على وجهه . فأما الحضرمة التي ذكرها أبوزيد فمن معانيها: اللحن، ومخالفة الاعراب، والخلط (٣). وأحسب أن «الخلط» هو المعنى الاول المقابل للاعراب والابانة ، فمن البين أن الذين لايُعربون يخلطون ويمزجون الابنية بعضها ببعض ، كما بينا من قبل ، فليس الاعراب مقصورا على ما اصطلح عليه النحاة فيها بعد من الأثر الذي يجلبه العامل ، ذلك أن الذي يخالف في أدائه نطق الكلمات المبنيَّة يقال له أيضًا: إنه قد لحن وخالف الاعراب. وإذا وجدنا مصطلح البناء مقابلا لمصطلح الاعراب في كتب النحو، فذلك راجع الى تخصيص في الدلالة ، حين وجد النحاة أبنية في العربية ملازمة طريقة واحدة ، وأبنية أخرى يتغير آخرها بحسب موقعها من التركيب ، فميزوا هذا الصنف الثاني بمصطلح الاعراب. فإذا عدنا الى الدلالة المعجمية للاعراب والبناء، وجدناهما غير متقابلين ، فاختيار مصطلح البناء للكلمات الثابتة في التركيب الملازمة أداء واحدا لايلغي عنها صفة الابانة ، وإنها يسلب عنها صفة التغير لاغير . وكأنَّ الني هيأ هذه الكلمات المتغيرة لمصطلح الاعراب هوما وجده النحاة من دلالة العلامات في بعض وحدات التركيب على معان نحوية ، وهوما عبر وا عنه - فيها بعد سيبويه _ من أن الرفع علم الاسناد ، والنصب علم المفعولية ، والجرّ علم الاضافة . فلم وجد النحاة فيه بيان أداء وبيان دلالة خصّوه بمصطلح الاعراب ، ولما لم يتجاوز الثاني بيان الاداء خصّوه بمصطلح البناء .

التهذيب للازهري ٢ / ٣٦١ - ٣٦٢ .

⁽٢) الانصاف ١ / ٢٠ .

⁽٣) لسان العرب ، مادة حضرم .

مما سبق يتبين أن جميع ما وصفه النحاة من أوضاع أواخر الكلم هومنشأ البيان في الاداء الفصيح ، ومن هنا تخير وا له مصطلح الاعراب وعنوا به وداروا حوله .

هذا وقد ألمحنا فيها مضى بقضيتين أساسيتين ، هما : أنه كان في العربية نمطان للأداء ، وأن العلامات الاعرابية هي منشأ البيان والفصاحة والوضوح ، وينبغي أن نتريث عند هاتين القضيتين .

إنه من غير شك كان في العربية مستويان ، شأنها في ذلك شأن غيرها من اللغات: مستوى اللغة الأدبية ، ومستوى آخر هو الذي يتداوله الناس في شئون معاملاتهم ، الأول يمثل الجانب الفني في الأداء ، ذلك الذي يتعهده صاحبه ويعاود النظر فيه ، والشاني أقرب مايكون الى ردود الافعال يتسم بالسرعة في الأداء ، وتقوم فيه الكلمة مقام الجملة ، والاشارة مقام العبارة البليغة ، وقد يكون الصمت فيه أبلغ من كلُّ أداء ، وهذا ما عبر عنه ابن جني بقوله : «الحيَّالون والحيَّاميَّون ، والساسة والوقادون ومن يليهم ويعتد منهم يستوضحون من مشاهدة الأحوال ما لا يحصله أبو عمرومن شعر الفرزدق اذا أخبر به عنه ، ولم يحضره ينشده» (١). والمستوى الاول تحتشد له كل الوسائل الفنية لتجعله ناطقاً بنفسه حيا بعبارته ، والثاني تمدّه الحياة النابضة بكل وسائل التعبير ، ومن هنا كان في تطور دائم لأنه وثيق الصلة بالحياة المتطورة المتجددة ، أما المستوى الاول فتراه قد أخلد أبدا الى هذه الوسائل الفنية ، حريصا عليها لان فيها حياته ووجوده ، ومن هنا كان هذا المستوى أقرب الى اللغة في خصائصها الأولى . وإذا صح ما نسب الى رسول الله _ صلى الله عليه وسلم _ من أنه قال: أعربوا في كلامكم تعربوا في كتاب الله (٢)، فقد يكون من أعظم الادلة على وجود هذين المستويين ، مستوى لغة الخطاب أولغة الحديث الذي يقابل مستوى اللغة الادبية ، والذي نزل به الوحى الكريم .

⁽١) الخصائص ١ / ٢٤٦ .

⁽٢) الفاضل للمبرد ٤ .

ولهذا نعتقد ، احتكاما الى ماتقدم ، أنه كان لكل من هذين المستويين ظواهره المتميزة ، أما مستوى اللغة الادبية فهو ما وصفه لنا النحاة ، وأما مستوى لغة الخطاب والتعامل فلابد أن يكون التطور قد أحدث فيه آثاره في كثير من جوانبه ، ومنها الجانب الاعرابي ، بل ان حديث الرواة عن خصائص اللهجات انها يمثل أساسا وصفا لهذا المستوى ، لقد نسبوا الى هذيل وطيىء وقيس وأسد والى أهل الحجاز عامة أعرافا لغوية ، لكن اللغة الادبية التي انتهت الينا من هذه البيئات لغة مشتركة لاتفصح عن عرف كل منها. ومع هذا لانعتقد أن البون كان شاسعا بين المستويين بل كان العربي في البادية والحاضرة يحس بغاية المتعة عندما كان يستمع الى الشعراء والخطباء . وقد جاء وحى الله الكريم على لسان نبيه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ممثلا نمطا رفيعا في هذا المستوى ، قال تعالى : (وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم) ، وقال : (بلسان عربي مبين) . وفي ضوء هذا التصور ينبغي أن نفهم ما قاله المبرد : وكان الصدر الاول من أصحاب رسول الله _ صلى الله عليه وسلم _ يعربون طبعا ، حتى خالطهم العجم ففسدت ألسنتهم وتغيرت لغاتهم (١) . يريد المبرد أنهم اذا نطقوا الشعر أو تلوا آيات القرآن الكريم فانهم كانوا يؤدون ذلك بأداء عربي معرب، لا يحتاجون في ذلك الى تعليم معلم ، ذلك أنه قد ترسخ في طبائعهم هذا الأداء المعرب ، فهم يستحضرونه أمام الناذج الادبية ، وعندما يقفون مواقف الخطابة فلم اختلط العرب بالعجم ذهبت هذه السليقة العربية . فالمجال الذي كان يعنيه المبرد هو مجال اللغة الادبية ، ولم يكن يعنى مستوى لغة الخطاب وأحاديث الناس في شئون حياتهم .

⁽١) المرجع السابق والصفحة

⁽١) الكتاب ٣ / ٣٢١ .

وقد أدرك النحاة ما أصاب لغة التخاطب والتعامل ، قال سيبويه : «وسمعت من العرب من يقول : ألا تا ، بلى فا ، فانها أرادوا ألا تَفْعَلُ ، وبلى فافعل» (١) ثم ذكروا قول لُقَيم بن أوس :

بالخير خيرات وإن شرًا فا ولا أريد الـشـر الا أن تا يريد: إن شرًا فشر ، ولا أريد الشر الا أن تشاء .

وأحسب أنّ ما ساقه سيبويه من قول الراجز لايعبر عن لغة الشعر والرجز ، وانها هو حكاية لما يقع في لغة الخطاب ، على نحو ماقاله الآخر:

قلنا لها: قفي . قالت : قاف

تريد: وقفت ، أو: توقفت .

فهذه الحذوف الذي وقعت في هذه الكلمات وأمثالها نحوبالعنبر وبلحارث ، ولاه أبوك ، يريدون : لله أبوك ، ولم أُبَلِهْ ، وويلُمّه . تدل على ماتفعله لغة الخطاب بالأبنية التي تشيع في الاستعمال من تآكل بعض حروفها . وإذا كانت قد صنعت هذا بجذور الابنية ، فما الحال مع الاعراب وهو لاحق بها ؟ .

لقد حدثنا ابن جني والفارابي أن رواة اللغة لم يأخذوا عن أهل الحضر ولا سكان البراري ، وذلك لانهم أخلوا بأشياء من الاعراب الفصيح ، وأن جل اعتهادهم على قيس وتميم وأسد ، وهذيل وبعض كنانة وطبيء ، وعلى الرغم من اعتهاد هذه القبائل فان متقدمي اللغويين حكوا لنا الاداء الاعرابي لهذه القبائل على غير ما نتصور الآن.

قال أبو العيناء : ما رأيت مثـل الاصمعي قط ، أنشد بيت من الشعر فاختلس الاعراب ، ثم قال : سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول : كلامُ العرب الدَّرْجُ .

وروى عبد الله بن سوّارعن أبيه أنه قال: العرب تجتاز بالاعراب اجتيازا. وحدث عيسى بن عمر أن ابن أبي اسحاق قال: العرب ترفرف على الاعراب ولا تتفيهق فيه.

وقال يونس بن حبيب : العرب تُشامُّ الاعراب ولا تُحقِّقه . وقال الخشخاش بن الحباب : العرب تقع بالاعراب وكأنها لم ترد . وقال أبو الخطاب : إعراب العرب الخطف والحذف .

روى أبو العيناء هذه الروايات عن الاصمعي ، ثم قال : «فتعجب كل من حضر منه» (١) .

وهذه الروايات المتعددة من الدّرج والاجتياز والرفرفة والمشامة والخطف والحذف ، تعني اختلاس الحركة والاسراع في أدائها وعدم تحقيقها أو اشباعها أو ابرازها ، الى أن يصل الامر الى أن تجد شيئا لا تدركه الاذن وانها تراه العين . وهذه الروايات أيضا بحسب ظاهرها تجمع على أن هذا أداء العرب جميعهم . فاذا انتقلنا الى سيبويه وجدناه في أوائل كتابه يتحدث عن مجاري العربية ، وقد يظن من مقاله أن أداء هذه المجاري غير مختلف ، وأنه على نحومانسمع الآن من القراء والشعراء والخطباء والمحاضرين من بيان الحركة ، غير أننا وجدناه في أواخر كتابه يقول : «هذا باب الاشباع في الجرّ والرفع وغير الاشباع ، والحركة كها هي ، فأما الذين يشبعون فيمططون ، وعلامتها واووياء . وهذا تحكمه لك المشافهة . وأما الذين لايشبعون فيختلسون اختلاسا ، يسرعون اللفظ» . ولكن سيبويه لم يحدد لنا الذين يختلسون فيختلسون اختلاس كان سمة لغة والذين يشبعون فيبينون . وقد يكون من حقنا أن نتصور أن الاختلاس كان سمة لغة الادبية .

ولم يصل الأمر عند حدّ الاختلاس للحركة في لغة الخطاب ، بل تعدى ذلك الى الاسكان وذهاب معالم الحركة جملة ، وإنه إذا وردت الينا قراءات قرآنية بالاسكان ، وكذلك في الشعر ، فينبغي أن يكون ذلك الاسكان قد وقع أيضا في لغة الخطاب على أنه وجدن سيبويه يحظر الاسكان في الكلام أو النثر ويجعل مجاله الشعر فقط ، وكأنه يحيله على الضرورة ، وجاء المبرد فغالى حين منع الاسكان أيضا في الشعر ، وأتى بروايات غير ماذكر سيبويه ، يحكى عنه أنه قال في بيت امرىء القيس :

فاليسوم أشرب غير مُسْتحقِب إنساً من الله ولا واغِل

(١) عن كتـاب « فصـول في فقـه العـربيـة » للدكتـور رمضان عبد التواب (الطبعة الثانية ، مكتبة الخانجي بالقـاهـرة) وقـد أخـذ هذا النص عن مخطـوطة كوبريلي ١ / ٧٦٥ . وهو في «كتاب ربيع الابرار» للزمخشري مختصرا (مخطوطة دمشق رقم ٣٢٦٣ ص ٤٥) . قال: ان الرواية ليست «فاليوم أشرب» ، بل «فاليوم فاشرب» ولذلك ردّ عليه ابن جني بقوله: وأما اعتراض أبي العباس هنا على «الكتاب» فانها هو على العرب لا على صاحب الكتاب ، لانه حكاه كها سمعه ، ولا يمكن في الوزن غيره ، وقول أبي العباس: إنها الرواية: «فاليوم فاشرب» فكأنه قال لسيبويه: كذبتَ على العرب ولم تسمع ماحكيته عنهم. وإذا بلغ الأمر هذا الحدّ من السَّرَفِ فقد سقطت كُلفة القول معه. وكذلك انكاره عليه أيضا قول الشاعر:

[وقد بدا هَنْكِ من المئزر]

فقال انها الرواية:

[وقد بدا ذَاكِ من المئزر]

وما أطيب العرسَ لولا النفقة (١)!!

وقد وجدنا سيبويه يحظر الاسكان في الكلام أو النثر ، لكن القراء رووا روايات كثيرة في القرآن الكريم بالاسكان ، وذكر ذلك ابن جنى في المحتسب غير مرة ، ومن ذلك قال عباس بن الفضل : سألت أبا عمروعن (يُعَلِّمُهم الكتاب) ، فقال أهل الحجاز يقولون : يعلمُهم ، ويلعنهُم ، مُثَقَّلة ، ولغة تميم : يُعَلَّمُهم ويَلْعَنهم . وقرأ الحجاز يقولون : يعلمُهم ، ويلعنهُم ، وقرأ الحسن وأبورجاء وغير واحد : (ويذَرهم) مسلمة بن عارب : وبعولتهن أحق . وقرأ الحسن وأبورجاء وغير واحد : (ويذَرهم) . وقرأ الأشهب : (ويَدَرُك) ، وقرأ مسلمة بن عارب : (وإذ يَعِدْكم) ، والحسن : (أو يُعُدِثُ لهم ذكرا) ، والاعرج : (ثم نُتبعهم) . ويلاحظ أن التسكين قد ورد في يعدّد لله النعال المضارعة المتصلة بالضائر غالبا . وليس التسكين مقصورا على هذا النوع ، الإفعال المضارعة المتصلة بالضائر غالبا . وليس التسكين مقصورا على هذا النوع ، بارِثكم) ، رواه غيره عنه بالاسكان ، يقول أبوحيان : وقرأ الجمهور بظهور حركة الأعراب في (بارئكم) ، ويروى عن أبي عمرو بالاختلاس ، روى ذلك عنه سيبويه ، الإعراب في (بارئكم) ، ويول ابن جني : « وحكى أبوزيد : بلى وَرُسُلنا لديهم وروى عنه بالاسكان ومن القراءات السبعية أيضا ماذكره أبوبكر بن مجاهد ، قال : يكتبون» ، بالاسكان ومن القراءات السبعية أيضا ماذكره أبوبكر بن مجاهد ، قال : وواختلفوا في (وأرنا مناسكنا) ، في كسر الراء واسكانها واشباعها ، فقرأ ابن كثير : (الكشب ا / ١٤٠١ مناسكنا) ، في كسر الراء واسكانها واشباعها ، فقرأ ابن كثير : (الكالمحتسب ا / ١٤٠ مناسكنا) ، في كسر الراء واسكانها واشباعها ، فقرأ ابن كثير . (الكالمحتسب ا / ١٤٠ مناسكنا) ، في كسر الراء واسكانها واشباعها ، فقرأ ابن كثير . (الكالمحتسب المناسكة المناسكة المناسكة المناسكة المناسكة ورائية مناسكة ورائية ورائية

⁽٢) البحر المحيط ١ / ٢٠٦ ، وانظر المحتسب ١ / ١٠٩ .

وأُرْف ، وربّ أُرْني ، وأرنّا اللّذين أضلانا ، ساكنة الراء . وذكر ابن مجاهد أن رواية الحفاف وأبي زيد عن أبي عمرو في (وأُرْنا) باسكان الراء (١) . على أن هناك قراءات أخرى بالتسكين لم يهجم عليها ابن مجاهد على عادته في تخطئة الرواة ، بل سلم بهذه الروايات ، كما سلم بها ابن جني ، ووجّهها بثقل توالي الحركات مع ثقل الضمة أو الكسرة .

أما موقف سيبويه من هذه القراءات فقد نقل عنه في قراءة أبي عمروأنها من الاختلاس ، وأما موقف المبرد منها فقد زعم أن قراءة أبي عمرولحن ، وقد ردّ عليه أبو حيان بأن أبا عمرولم يقرأ الا بأثر ، وقال : ولغة العرب توافقه على ذلك ، فإنكار المبرد لذلك منكر . وساق نهاذج من الشعر والقراءات نحو ماقدمنا . ويقول ابن عصفور عن التسكين : والصحيح أن ذلك جائز سهاعا وقياسا ، أما القياس فان النحويين اتفقوا على جواز ذهاب حركة الاعراب للادغام ، لايخالفه في ذلك أحد منهم ، وقد قرأ القراء : (مالك لاتأمنًا) بالادغام ، وخط في المصحف بنون واحدة ، فلم ينكر ذلك أحد من النحويين ، فكها جاز ذهابها بالادغام ، فكذلك ينبغي أن لاينكر ذهابها للتخفيف (۱) ، ثم ساق الشواهد المتقدمة .

هذا والحركتان اللتان أجاز فيها سيبويه الاختلاس هما الضمة والكسرة ، وأما النصب فلم ير فيه جواز الاختلاس . وعلى الرغم من ذلك فقد جاء الشعر بتسكين هذه الحركة ، من ذلك قول الوضاح اليماني :

عَجِب الناسُ وقالوا شِعرُ وَضَاحِ اليَانِي إِنَا اللهَانِي إِنَا شَعرى قَنْدُ قَدْ خُلِطْ بِالْجُلْجُلَانِ

وقول نهشل :

وَوَلَّتْ بِاْعجَازِ الأمورِ صُدُورُ

فلما تَبَينٌ غِبُّ أُمــرِي وَأَمــرِهِ (١) انظر القراءات السبعة ١٧٠ .

(٢) الضرائر ٩٥ ـ ٩٦

وقول كعب:

أقول: شبيهات بها قالَ عالمًا بِمِنَّ ، ومن أَشبَهُ أباه فها ظَلَمْ

وقول الراعى:

تأبى قضاعة أن تَعرِفُ لكم نسبا وابنا نِزَارِ ، فأنتم بيضةُ البَلدِ

وهي أبيات قد رُويت بروايات أخرى خلت مما عدّه النحاة شاذًا ، والله أعلم بصحة هذه الروايات ، وأخشى أن تكون من صنع بعض النحاة ، على نحوما رأينا للمبرد من روايات يرد بها تسكين ما حكاه سيبويه .

إن ما سقته من هذه القراءات القرآنية الكريمة ، وهذه الاشعار التي ورد فيها التسكين ، ليحملنا على القول بأن مشل هذا كان واقعا في الكلام أو أسلوب التخاطب . على أن ماورد في القراءات والاشعاريعة من قبيل نخالفة الظاهرة الغالبة ، فالغالب على نصّ القرآن الكريم والأشعار هو إبانة الحركة وإشباعها في جميع أوضاعها الشلائة . وهذا يفسر لنا أمرا مها هو اهتهام النحاة الاوائل بدراسة الشعر والاستشهاد به ، وجعله في الدرجة الثانية بعد القرآن الكريم من حيث استقراؤ هو استنباط القواعد منه ، ذلك أن الشعر وضع ليقرأ مستغنيا عن القرائن التي يحيا فيها أسلوب التخاطب ، ثم إنّه النصّ الذي كانت البيئات العربية تجتمع حوله وتفهمه وتستمتع به ، على حين كان لكل بيئة من البيئات العربية أعراف لغوية خاصة ، ثم إن أداء الشعر كان يستلزم بيان الحركة ووضوحها . عنى النحاة بأسلوب الشعر على الرغم عما حفل به من ضرورات لهذه المميزات المتقدمة ، وقل اعتهادهم على أسلوب الخطاب لخلوه منها .

هذا ، وإذا كان ماقدمتُه صحيحا عن لغة التخاطب من الاسراع في أداء الحركة الاعرابية إلى حد اختلاسها ، فمن أين جاءت لغة التخاطب في مسرحياتنا وأساليب الحوار ؟ أعتقد أننا تأثرنا فيها بأداء القرآن الكريم ، وأن تعليم القرآن الكريم قد أوجد في حياتنا الأدبية أسلوبا للحوار ماعرفه العرب وهم يتخاطبون .

إن الاعراب يتمثل واضحا في أداء القرآن الكريم والأشعار، وبتحقيقه يستبين الاداء، ويصبح كل بناء كها قدمنا واضحا لا يختلف السنامعون حول فهمه وتمثله، وذلك راجع الى أصوات اللين تلك التي يحرص على الحاقها بكل بناء مؤدية لمعان نحوية، فقد تكون علامة اعراب، أو علامة تثنية أو جمع، أو تكلم أو خطاب، أو تذكير أو تأنيث، فالحرص على أداء هذه الاصوات يصون البناء في العربية الفصحى عما يتعرض له في لغة التخاطب من التآكل الى أن يصل الحدّ أن نجد أمامنا مايسمى بالحضرمة والاختلاط والامتزاج وتداخل الابنية بعضها ببعض. ومن المعلوم أن أصوات الجهر أوضح من الأصوات المهموسة، وأن أصوات اللين الالف والواو والياء وكذلك أبعاضها وهي الحركات ـ أوضحُ أصواتِ الجهر، ويمثل صوت الالف القمة بين أصوات اللين من حيث الوضوح. ان اللغة الفصحى ثُحقِق هذه الاصوات في أواخر الابنية، وإذا كان الفتح هو أوضحَ الأصوات فهو أيضا أشيعها في أواخر الابنية وأواسطها، تجد ذلك في حروف المعاني والأفعال مجردة أو مزيدة والأسهاء. وهذا سرّ وضوح الأداء في اللغة الفصحى.

وبعد فنحن لا ننكر دلالة علامات الاعراب على المعاني النحوية التي ذكرها النحاة ، وذلك مع شيء من التجوز ، قالوا : ان الرفع علم الاسناد ، والنصب علم المفعولية ، والجرعلم الاضافة ، لا ننكر أن تؤ دي هذه الاصوات هذه المعاني في بعض أنواع الكلم ، وبذلك يتحقق من ورائها غرضان إبانة البناء وابانة وظيفته في السركيب . وعلى السرغم من ذلك نجد أن تحليل التركيب قد يستغنى عن هذه العلامات ، وهذا ما قاله الأبذي في شرح الجزولية ، قال : «الحركة تدلّ على المعنى الذي أحدثه العامل في الاسم ، فلولم تأت بحركة الاعراب لم يلزم انتقاص ذلك المعنى الذي أحدثه العامل في الاسم من فاعليه أو مفعوليه أوغير ذلك ، بل يبقى المعنى ولا علامة عليه» بدليل أن لدينا قسما كبيرا من الاسماء يتمثل في المبنيات المعنى ولا علامة عليه» بدليل أن لدينا قسما كبيرا من الاسماء يتمثل في المبنيات المتحدورات لا تظهر عليه هذه العلامات ولا نجد مشقة في معرفة وضع الكلمة في المتركيب ، ثم إن الفعل المضارع المعرب لا تحقق العلامة الاعرابية فيه أثرا في فهم دلالة التركيب ، فالفعل المضارع تختلف علاماته رفعا ونصبا وجزما ، ولا تعطينا دلالة التركيب ، فالفعل المضارع تختلف علاماته رفعا ونصبا وجزما ، ولا تعطينا

علاماته دلالة نحوية في التركيب زائدة على دلالته ، وهوأنه يدل على الحدث والنزمان . ولذلك نرى أن العلامات الاعرابية اللاحقة للاسم أهم من العلامات الاحقة للاسم أهم من العلامات اللاحقة للفعل ، على أن علامة الجر أدخل من علامتي النصب والرفع في تحديد الوظيفة ، فبالجر نعرف أن الاسم مضاف اليه ، اسهاكان المضاف أو فعلا ، ولا نجد النحاة يختلفون في موقع الاسم المجرور ودلالته النحوية المحدودة ، بل يجمعون على اعراب المجرور مضافا اليه ، فاما الرفع والنصب فالاسم يقع معه مواقع شتى ، ومن هنا وجدنا النحاة يختلفون كثيرا في إعراب المرفوعات والمنصوبات وتحديد مواقعها من التركيب ، ومن ثم كانت المرفوعات والمنصوبات عثل مشكلة النحو (۱۱) ، وراجع معي كتابا معنيا بمشكلات الاعراب فسوف تجد النحاة يختلفون في اعراب هذين النوعين تبعا لما يحتمله كل نوع من أبواب النحو ، وإذا وجدتهم لا يختلفون في اعراب كلمة ما ، فاعلم أن وضعها في الجملة يحتم هذا الاعراب ، لا أن العلامة الاعرابية هي سر هذا الاتفاق .

ولا يعني ما قدمت التقليل من أثر العلامة الاعرابية ، فهي تمثل الى ذلك قيمة جمالية في الأداء بها تقوم به من صيانة الأبنية وحفظها من ذهاب معالمها ، وهوما أحدثته لغة الخطاب في بيئاتنا حين تخلت عن الاعراب من دمج الابنية ومزجها ، ومن منا كان الاعراب معلم اللغة الفصحى الأول ، وهذا هوسرّ عناية نحاتنا الأوائل به ، فقد أدركوا أن هيكل الفصحى يقوم بقيامه ، وأنه يأخذ سمتا من البيان والعذوبة والجال تفتقده الأداءات الأخرى التي تخلت عن هذا النهج الاعرابي (1)

⁽١) ينبغي أن يعلم أن اختلافهم في اعراب هذه المرفوعات والمنصوبات راجع الى تعدُّد المقتضيات في المركب الواحد ، فالمقتضى هومعتمد النحاة الاول في التحليل وبيان وظيفة أجزاء التركيب . ولنا عنه حديث آخر ان شاء الله .

⁽Y) وقد نبه الى هذه القيمة الجالية ابن قتيبة في كتابه تأويل مشكل القرآن ١ / ١٤ - ١٥ ، قال : «ولها الاعراب الذي جعله الله وشياً لكلامها ، وحلية لنظامها» . ثم نبه على صلة الاعراب بالمعنى بعد ذلك .

نظرات في تحقيق التراث

د. نعمان محمد أمين طه

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف من بُعث هاديا للعالمين . و بعد :

فهذا موضوع كبير ، هِبْتُ أن أتحدث فيه أول الأمر ، على الرغم من أنه أحب الموضوعات إلى نفسي ، لا أمل الحديث فيه ، أو القراءة عنه ، منذ أن طلبت العلم يافعا ، ومنذ أن تتلمذت على أحد من عملوا في هذا المجال ، ومنذ أن صافحت أذني دعوة الداعين الى الاهتهام بالتراث واخراجه من رقدته الطويلة الى حيث يرى النور ، والى حيث يشع نوره فيملأ الأفئدة والأبصار .

والحقيقة التي لامراء فيها أنني حِرْتُ كيف أبدأ وفيم أتكلم: أأتكلم فيها قمت به من عمل متواضع في هذا السبيل ، وقد نشر منذ بضع سنين ، وصار في أيدي الناس يحكمون عليه بها تراه أعينهم وبصيرتهم ، أم أتحدث عن هذا المجهود الكبير الذي بذله صفوة من العلهاء الأجلاء في إخراج كنوز من التراث ملأت المكتبة العربية علما ومعرفة ، ودلت على غيرة على تراث الأقدمين ، وعلى باع واسع في العربية وطول تحرس بأسرارها وأساليبها ؟

إن الحديث عن تحقيق التراث إنها هو في الحقيقة حديث عن أخطر قضية تتصل بكياننا اللغوي والأدبي ، وبأصلنا الحضاري ، ومن هذا أقول إن قضية التراث قضية حريًة بزيادة الاهتهام بها اهتهاما يتناسب وخطورتها ، يتناسب ووعينا الحضاري ، ووجودنا الوجداني والمادي معا .

إن تراثنا يتصل بلغة شرفها الله فجعلها لغة القرآن ، وحسبها هذا التشريف ، وقد استمدت به خلودها وتألقها ، انه يتصل بلغة ضربت في التاريخ بجذور بعيدة ، وصارت أداة التخاطب باللسان وبالوجدان حقبة طويلة من القرون لم تنافسها فيها لغة أخرى ، هو أولا وأخيرا تراث يحمل في أعاقه وبين جنباته أصول الدين الذي شَرفُت به الإنسانية منذ أن أراد الله لها الهداية بالتوحيد . تحقيق التراث إذن موضوع

جليل ، أشفقت أن أحمل تبعة الكلام فيه ، فأظلم نفسي ، ولذلك قصرت كلامي على التجربة النذاتية ، تجربة قمت بها أمينا قدر الطاقة ، تجربة تمسني ، ولا تمس غيري ، فيكون الخوض فيها أقل زللا مما لومسست غيري من بعيد أومن قريب ، تجربة عنّت لي فيها ملحوظات أو خواطر أود أن أسوق بعض ما علق بالذاكرة منها ، وأود أن يرتفع صوتي من خلالها بدعوة مخلصة إلى زيادة الاهتام به ومنحه ماهو جدير به ، من حياة ونهاء .

إن تحقيق التراث الأدبي تحقيقا أمينا دقيقا لهو في حاجة إلى الرجوع الى كل ما في المكتبة العربية من مطبوع ومخطوط. وإن زملائي المحققين ليدركون من قديم ذلك ، وقد رجعت إلى كثير من المخطوطات في أثناء تجربتي في التحقيق ، وأذكر على سبيل المثال وقوفي أمام بيت للشاعر جرير الذي يقول فيه :

وترى الإمام إذا تبين ناكشا أوناكشين رماهم بيزيدا

وقفت أمامه محاولا معرفة شيء حول الاسم الأخير في البيت ، وقرأت المصادر، وجُلْت بين أمهات الكتب المطبوعة والمخطوطة حتى وصلت الى مخطوطة أنساب الاشراف للبلاذري وهي التي تقع في أحد عشر مجلدا وما زالت قابعة في دار الكتب المصرية ، فوجدته يتكلم على هذه الشخصية التي أبحث عنها مشيرا أو مستشهدا بالبيت .

هذه المخطوطة قد طبع منها الجزء الخامس سنة ١٩٣٦ م في الجامعة العبرية بالقدس ، وطبعت منها الجامعة العربية الاول في دار المعارف منذ ربع قرن تقريبا ، ومازال الباقي ينتظر من يخرجه الى النور . وهناك عشرات بل مئات من المخطوطات الأدبية التي أعرف بعضها ويتناءى عني بعضها الآخر مما يجعلني أشعر في كثير من الأحيان بالأسف والضيق والألم ، إذ بدونها مجتمعة لا يتحقق ما أنشده من دقة وإتقان لما يتطلبه التحقيق الأدبي ، الذي قد يكون أكثر رهفا من غيره ، فتحتاج الألفاظ فيه الى إحاطة فنية واستكناه للمدلولات لا يتطلبها تحقيق العلوم الأخرى . ولهذا نحرص على توثيق الرواية الأدبية توثيقا سنديا نصيًا ، فهي - على الرغم من الأمانة التي تحلى بها بعض الرواة ، قد اعتورها بعض التحريف والتصحيف هَوىً أو غفلة مما أفسدها حينا أو جعلها دون ما ننشده لها من صفاء ودقة أمينة حينا آخر . أذكر - على سبيل المثال مارواه الأصمعي ، قال : قرأت على خلف شعر جرير ، فلها بلغت قوله سبيل المثال مارواه الأصمعي ، قال : قرأت على خلف شعر جرير ، فلها بلغت قوله

إلى هواه غالب لى باطله كمن نبله محرومة وحبائله تغيب وإشيه وأقصر باطله

ويسوم كإبهام القطاة محبب رزقنا به الصيد الغريرولم نكن فيالك يومأ خيره قبل شره

فقال : ويله ! وما ينفعه خير يؤول الى شر؟

فقلت : هكذا قرأته على أبي عمرو!

فقال : صدقت ، وكذلك قاله جرير ، وكان قليل التنقيح ، مشرّد الألفاظ ، وما كان أبو عمرو ليقرئك الاكما سمع!

فقلت: فكيف كان يجب أن يقول؟

قال : الأجود له لوقال : فيالك يوما خبره دون شره .

فاروه هكذا ، فقد كانت الرواة قديها تصلح من أشعار القدماء .

فقلت: والله لا أرويه بعد هذا إلا هكذا!

ومن عجب أن الرواية المقترحة قد ذاعت واشتهرت وضرب صفحاعها قاله الشاعر في النصوص غير المحققة.

> ويروي ابن الأعرابي بيت جرير: فبُو بالمخازي يافرزدق لم يبت

أديمك إلا واهيا غبر أوفرا

فيخطئه عمارة بن عقيل حفيد الشاعر بلال بن جرير قائلا: إنها الرواية: أبوَّ المخازي . ويعود عمارة فيخطِّيء الكوفيين في روايتهم الشاهد المشهور : تمرون الديار ولم تعوجوا ، فيقول : إنها الرواية : مررتم بالديار . . .

فاذا كان هذا يحدث بعد وفاة الشاعر بسنوات قليلة ، فأي تحريف أوتصحيف يعتور شعرَه من النحاة والرواة وغيرهم بعد مرور زمن أطول مما رأينا ، وأي عناء يلقاه محقق لشعره بعد مرور ألف عام أومايزيد ؟ وأي تراث يجب أن يكون تحت نظره وبصره الواعي وغير الواعي حتى يضمن لنفسه تجنب الزلل والاقتراب من الكمال الإنساني المنشود وإن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه!

إن الحديث ذو شجون ، وان هذا يجرّني إلى اثارة مسألتين كثيرا ما أقضّتا مضجعي : أما إحداهما فهي أن مئات من المخطوطات الأدبية ولا أجرؤ متحدثا عن غيرها إذ أنها متر وكة لمن هو أولى مني بها - أقول إن مئات من هذه المخطوطات وبعضها مصادر تشعر المكتبة العربية بالنقص الشديد لحرمانها منها - إن مئات من هذه المخطوطات لازالت رهينة المحبسين : وأعني بأولها عدم الفطنة أحيانا الى مكان وجودها وهذا مما يؤلم المحقق الغيور الواعي ، وثانيها عدم إخراجها محققة أوغير محققة .

أما عن المحبس الأول فلعله أكثر اثارة للشجن من الثاني ، حقا إن كثيرا منها قد سجل في فهارس كثيرة منذ أن بدأ العالم الغربي يهفو الى ابتلاع العالم الاسلامي العربي أو السيطرة عليه سياسيا واقتصاديا قبل الحروب الصليبية وبعدها حتى يومنا هذا ، وقد امتزج شوقه إلى السيطرة بشوقه الى المعرفة الصرف ، وتقديره للتراث الانساني الرفيع الذي خلفه أسلافنا ، أقول قد سُجّل في فهارس عديدة وأعقب ذلك الخطوة الثانية وهي محاولة جمعه جمعا استيعابيا في كتاب بروكلمان المشهور «تاريخ الأدب العربي» ثم جاءت الخطوة الثالثة فيها قام به معهد المخطوطات بالجامعة العربية من عمل ضخم ينشد الإحاطة خبرا بالمخطوطات وتصوير جانب كبير منها ، وبهذا صار أحدث مرجع يوثق به ، ولكنه لم يُحط بها جميعا الإحاطة الشاملة المرجوة على الرغم من مرور ثلاثين عاما أو أكثر من عمره المديد ، وقد نلتمس له العذر لقصور أدواته المادية والمالية أحيانا ، ولكن الحاجة الملحة والزمن الذي طال قد يجعلنا نُغمض العين فلا نلتمس العذر .

إننا نصبو إلى أن تمتد أيديه الى كل ما هوموجود في المكتبات الخاصة يفهرسها ويجعلها في متناول من يريد الاطلاع عليها ، وأن يكون في هذا سريع الحركة لا يظل الزمن سابقا له ، ونصبو أيضا الى أن يضع مركز البحث العلمي هنا يده في يد معهد المخطوطات فيكمل الرسالة باذاعة ما يتوصل اليه المعهد أولا بأول ويمده بها يغيب عنه من معلومات حول المكتبات التي تصل الى علمه وما فيها من كنوز ، وبهذا يتضافر معه في عمله الكبير مادا اليه يد العون بالنشرات التي ترسل الى الجامعات ومراكز البحث ومعاهد العلم وأساتذة الجامعات المختصين ، بعد إحصائهم ومعرفة أسهائهم ، وكذلك بالمؤتمرات المختلفة التي تجمع صفوة العلماء في صعيد واحد ،

حتى يتبادلوا أنباء الأعمال العلمية ويتشاوروا فيما بينهم للاهتداء الى أقوم السبل لدفع عجلة تحقيق التراث الى الأمام ، فتكون هناك وشيجة قربي بين أناس يعيشون متبتلين في دنيا تمتليء بالملهيات المادية والمعنوية . كذلك أود أن يكون من عمل هذا المركز اذاعة أنباء ما يحقق من تراث منذ اختيار النص للتحقيق حتى الانتهاء منه ، وبـذلـك لا يتكرر العمل في تحقيق مخطوط واحد ، فيستطيع أحد العلماء توفير جهده لاخراج مخطوط آخر ، وقد تكررت تلك الظاهرة كثيرا : فهذا عالم في القاهرة يحقق كتاب الامثال لأبي فيْد مؤرج السدوسي في الوقت الذي يحققه عالم آخر سعودي في لندن وهذا عالم يحقق ديوان حسان بن ثابت في لندن في الوقت الذي يحققه آخر في القاهرة ، وقد وصل الأمر في عدم الاهتهام باذاعة ما يحقق من تراث إلى أن زميلا فاضلا يطبع كتابه في مصادر الأدب ٥ طبعات من سنة ١٩٦٨ حتى سنة ١٩٨٠ ويغيب عن علمه أن كتاب الذخيرة الذي يتكلم عنه في كتابه قد طبع سنة ١٩٧٨ م كاملا فيقول عن صاحبه ابن بسام : «فكتابه الرائع الذخيرة لما يطبع منه غير مجلدات ثلاثة من أقسام متناثرة ، ومازالت هناك أجزاء أخرى عديدة تنتظر من يدفع بها الى النور تحقيقا ونشراً»! و«لسان العرب» تنشره دار المعارف وقد بذل ناشروه جهدا محمودا في تقويم ما اعوج منه وما فيه من تحريف وتصحيف ، ومع هذا يغيب عن بالهم فترة أن مركز التراث بجامعة أم القرى قد أخرج تصويبات وتعليقات الأستاذ عبد السلام هارون سنة ١٩٧٨ م ولـذلـك أتـوق إلى إذاعـة ما يحقق من المخطـوطـات بجميـع الوسائل ولا يُضَنُّ على الانفاق على اذاعتها بالمال أو الجهد ، فكم من مخطوطات في الهند أو في العراق أو في غيرها لا تصلِّ أنباؤها الى القاهرة أوغيرها إلا بعد مرور زمن طويل ، وكم أسفت حينها علمت بأنحرة أن أنساب السمعاني والحماسة البصرية قد طبعا في الهند ولم يصلنا نبأ اخراجهما الا بعد سنوات .

ان مركز البحث العلمي وتحقيق التراث ليستطيع مشكورا أن يقوم بهذا العمل الذي لايجوز التقليل من شأنه أو أهميته .

أيها الاخوة الكرام ،

ان الحديث يجرنا الى هؤلاء العلماء القابعين في الغرب وأعني بهم المستشرقين ، وكلنا والحمد لله لا ينكر ذلك الجهد الذي بذلوه منذ أن تصدّوا لعملهم في جمع التراث وحفظه وصونه وتصنيفه وتوثيقه وتحقيقه وتيسير الانتفاع به بصنع الفهارس

المفيدة لكل كتاب ، والحدب عليه بصنع فهارس له تربوعلى العشرات ، وقد بلغ من فطنتهم أن ترجموا كثيرا من تراثنا الى لغاتهم فاستفادوا من عدة أوجه .

وان من يتصفح كتاب «المستشرقين» لنجيب العقيقي يجد نفسه قد ولج مدينة ضخمة تعج بعشرات من الأسر العلمية والشخصيات التي وهبت نفسها لتراثنا لا تبخل عليه بجهد أو مال ، وقد حاولت إحصاء فريق منهم يمثل جمهورهم ، فهم في فرنسا منذ القرن السادس عشر الميلادي حتى الأن ٢٧٧ وفي ايطاليا ٨٦ وفي انجلترا ٧٩٥ وتقترب أعدادهم في البلاد الأخرى من هذه الأعداد ، وقد عملوا في جامعاتهم ومكتباتهم ومراكنز بحوثهم منذ إنشائها ، فهذه جامعة باريس قد أنشئت في القرن الثاني عشر وتولوز في أوائل الثالث عشر والسوربون في منتصفه وتقترب منها جامعات كمبردج ولندن وغيرها وغيرها ، أما مكتباتهم فلعلها الأجدر بالتنويه : فأحْصِيَ في فرنسا ١٧ مكتبة ومن أشهرها مكتبة باريس الوطنية ومثلها في انجلترا المتحف السريطاني ومكتبة بودليان ومكتبة جامعة كمبردج ولندن وغيرها وغيرها: إنني قد انه الحديث عن هذا الموضوع لصلته بتحقيق التراث صلة شديدة الالتحام : فقد تناولوا تراثنا بالكشف والجمع كما قلت والصون والتقويم والفهرسة ، ولم يقفوا منه عند ذلك فتمتد إليه يد البلي ، بل عملوا على درسه وتحقيقه ونشره وترجمته والتصنيف فيه: في منشأه وتأثره وتطوره وأثره وموازنته بغيره، واقفين عليه مواهبهم ومناهجهم وميزاتهم ، مصطنعين لنشره المعاهد والمطابع والمجلات ودوائر المعارف والمؤتمرات ، حتى بلغوا فيه ، منذمئات السنين ، وفي شتى البلدان ، وبسائر اللغات مبلغا عظيها من العمق والشمول والطرافة ، وأصبح جزءا لا ينفصل عن تراثنا ولا تؤرخ الحضارة الانسانية متنكرة له .

لهذا أدعو وأرفع صوتي إلى محاولة الإحاطة بهذا التراث الاستشراقي المطبوع وجمعه ، وترجمته ، لأنه يخدم التحقيق خدمة جليلة .

ولنضرب مثلا على ذلك كتاب «الفهرست» لابن النديم ذلك الذي أزمع فلوجل العالم الألماني على تحقيقه منذ مايربُوعلى مئة عام فحال الموت دون ذلك ، بعد أن وُفق إلى جمع جميع مخطوطاته في ربع قرن ، وأخرجه زميلان له بعد وفاته وألحقا به ذيلا تضمن التفسيرات والتعليقات والاستدراكات وختماه بفهارس الأعلام وألحق به بعد 1٧ عاما جزء ساقط منه عثر عليه في ليدن ، هذه الفوائد قد كتبت باللغة الالمانية

وبذلك يحال بينها وبين الاستفادة منها فاذا ما وزنت تلك الطبعة بأخرى صدرت في القاهرة منذ خمسين عاما سنة ١٩٣٢ م في المكتبة التجارية أو أخرى صدرت في طهران لوجدت أن تلك الالمانية أشد دقة وأكثر نفعا ولذلك فهي جديرة بنقلها الى العربية مترجمة.

وكذلك الحال بالنسبة «لتاريخ الأدب العربي» لبر وكلمان الذي يجدر اتباع الدقة في ترجمته فنقراً في الترجمة العربية مثلا اسم الأب أنطون صالحاني اليسوعي صاحب «نقائض جرير والأخطل» نقرأ إسمه أحمد صالحاني والغزيري الى كاسيري ، والسمعاني الى أسماني . وفي كتاب «مصادر الدراسة الادبية» انقلب الدكتور مندور الى غندور وخلط بين عبد الغني حسن ومحمد حسن .

وهناك من أعمالهم ماهو جدير بمراجعتنا له لأنه يمس حياتنا الفنية كتعليقاتهم على دواوين الشعر مثلها فعل جولد تسيهر في ديوان الحطيئة الذي نشره منذ قرن من الزمان ، وكذلك بعض كتب السير والتاريخ التي نشروها .

إنني لا أقصد من وراء كلمتي عن المستشرقين إلا تنبيه الأذهان الى أن تراثنا قد صار مصحوبا بتراث عربي أوربي آخر جدير بالجمع والحفظ في دار كبرى ، أو مركز علمي كبير كمركز البحث العلمي وإحياء التراث بأم القرى لكي يُقدم إلى جمهور العاملين في مجال التحقيق جنبا الى جنب مع مخطوطات التراث ، فتكون تلك الخطوة الأولى نحو استلهام تاريخنا الأصيل ، والاتصال بأسلافنا الكرام هداة الانسانية منذ أربعة عشر قرنا .

أدعو مخلصا أولي الأمر في هذه الجامعة إلى جمع هذا التراث وتلك الكنوز المخطوطة والمطبوعة ، فهي كأعضاء الجسد الواحد اذا غاب عضوتأثر لفقده بقية الأعضاء ، أدعو إلى جمعها في صعيد واحد ، مع أعال المستشرقين حتى نغري العاملين من العلماء في هذا المجال بمضاعفة الجهد لاخراج تراثنا والانتفاع به في صعودنا المأمول ان شاء الله .

وأدعو ألا يظل التراث حبيسا في الافلام ، وألا نضن عليه بتصويره مكبرا حتى لا يحرم العالم المحقق من الانتفاع به غير محقق ، ويستطيع الرجوع اليه ، فلا يفوته من تلك الكنوز فوائد جمة ، تغيب عن كثير مما نحققه فيخرج عملنا مبتورا دون أن

ندري أو نحس . فاذا ما اطلع العالم على كل ما في المكتبة العربية مما يتصل بموضوعه اطمأن الى أنه أقرب الى الدقة المنشودة ، فتطمئن نفسه الى أمانة قد أداها الأداء المرجو .

وأقترح _ وفقا للمنهج العلمي الذي يحترم التخصص _ أن تشكل لجان للإحاطة الشاملة بمخطوطات كل موضوع ومطبوعاته ودراساته ، والقيام بتسجيل ذلك في فهارس خاصة ، ويكون كل عالم في هذه اللجان مدرسة يتجمع حوله تلاميذه الذين يأخذون عنه أسرار هذا العمل وبذلك يستمر تيار علمي متدفق لا ينقطع بوفاة العالم أو كفه عن عمله ، فنحذو حذو أسلافنا وحذو المدارس العلمية الغربية .

أما اذا ظللنا نعمل في هذه الدائرة الضيقة دائرة التحقيق الفردي ، يقوم به أستاذ فاضل ، يختار مخطوطة ما من المخطوطات سائرا في طريق مقصورة عليه ، دون أن تكون له مدرسة علمية ممتدة ، وتلاميذ يتخذون منه رائدا ، يحملون الامانة معه ، ويحذون حذوه ، اذا ظللنا في مثل هذه الدائرة ، حرمنا من الانتفاع بعلماء تعدهم الشعوب المثقفة ذخيرة ضخمة لا ينبغي التفريط فيها بالانتفاع الضيق الذي ينأى عن النهج العلمي السليم .

أيها الاخوة :

إننا سبقنا أوربا في القرون السبعة الأولى ، ثم شاء الله أن تتلقف أوربا المشعل فتضيء به ، وأملنا كبير ان شاء الله ألا نتقاعس في الاتصال بهاضينا العريق أسرع اتصال وأعمقه وأوثقه وأشمله حتى نصحو ونستيقظ ويملأ صوت المؤذن مرة أخرى سمع الدنيا كلها في كل بقعة من بقاع المعمورة .

وأختم حديثي داعيا:

«ربنا لا تؤ اخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين»

د. نعمان محمد أمين طه

•

•

القراءات في فتاوي شيخ الإستلام.

ابن تیمیّکت "

د / عبد الفتاح اسهاعيل شلبي

ومِن اليهِ الْحَالَ الْحَلَى الْحَالَ الْحَلَى الْحَلَى

(سورة فصلت الآيات من ٣٩ ـ ١٤) .

بسم الله الرحمن الرحيم ، إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا الله الا الله وحده لاشريك له ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله .

أيها الأخوة

سألت نفسي: لماذا ابن تيمية ؟ وكنت أجيبها: ابن تيمية من أعلام الإسلام المذين أخلصوا دينهم لله ، ورصدوا أنفسهم لخدمته ، ووقفوا حياتهم يدافعون عن عقيدته ، وابتلي وامتحن ، فصبر وأبلى بلاء حسنا ، وبرع في كل ميادين الثقافة الإسلامية براعة منقطعة النظير: حفظ القرآن وسمع الحديث من أثمته في دمشق ، وسمع مسند أحمد مرات ، ومعجم الطبراني الكبير ، وأقبل على الفقه ، وقرأ أياما في العربية على يد ابن عبد القوي (") ، وأخذ يتأمل كتاب سيبويه حتى فهمه ، وبرع في النحو ، وأقبل على التفسير إقبالا كليا حتى حاز قصب السبق فيه ، وأحكم أصول الفقه . كل هذا ، وهو ابن بضع عشرة سنة (") ، وتأهل للتدريس والفتيا وهو دون العشرين ، وقبل كتاب من فنون العلم إلا وقف عليه ، وكأن الله قد خصه بسرعة الحفظ ، وابطاء النسيان . . . وكأن العلم قد اختلط بلحمه ودمه وسائره ، فإنه لم يكن له مستعارا : بل كان له شعارا ودثارا (") ، وكان الى ضلاعته في العربية ذا معرفه له مستعارا : بل كان له شعارا ودثارا (") ، وكان الى ضلاعته في العربية ذا معرفه

⁽٢) هو العلامة شمس الدين محمد بن عبد القوي بن بدران المرداوي الحنبلي (٦٣٠ ـ ٦٩٩) .

٣١) حياة شيخ الاسلام لبهجة البيطار ص ٨ وما بعدها .

⁽٤) انظر الاعلام العلية في مناقب ابن تيمية .

بالعبرية (۱) ويفهم الكثير منها ، وسمع التوراة التي بين أيدي اليهود ($^{(7)}$ ، وأثر عنه أنه قال : العبرانية من أقرب اللغات إلى العربية ، حتى أنها أقرب إليها من لغة بعض العجم إلى بعض ($^{(7)}$ وقولته تلك تدل على أنه على علم بلغات العجم ، وهذا يؤيده ماجاء في مجموع الرسائل الكبرى . ($^{(3)}$

وقد نشأ ابن تيمية في تصوّن تام ، وعفاف وتأله ، واقتصاد في الملبس والمأكل ، ولم يزل على ذلك خلق صالحا ، بارا بوالديه تقيا ورعا عابدا ناسكا صوّاما قوّاما ، ذاكرا الله تعالى في كل أمر ، وعلى كل حال ، رجّاعا إليه سبحانه وتعالى في سائر الأحوال والقضايا ، وقافا عند حدود الله تعالى وأوامره ونواهيه ، آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر . . . لا لذة له غير نشر العلم وتدريسه (٥) قال الحافظ عمر بن على البزار : وكان (رضي لله عنه) من أشجع الناس ، وأقواهم قلبا ، ما رأيت أحد أثبت جأشا منه ولا أعظم عناء في جهاد العدومنه ، كان يجاهد في سبيل الله بقلبه ولسانه ويده ، ولا يخاف في الله لومة لائم . . . كان اذا حضر مع جيش المسلمين في جهاد يكون بينهم واقيتهم ، وقطب ثباتهم . . . ان رأى من بعضهم هلعا أورقة ، أو جبانة شجّعه وثبته ، وبشّره ، ووعده بالنصر والظفر والغنيمة ، وبين له فضل الجهاد والمجاهدين . . .

وكان اذا ركب الخيل يتحنك ، ويجول في العدوِّ كأعظم الشجعان ، ويكبر تكبيرا أنكى في العدو من الفتك بهم ، ويخوض فيهم خوض رجل لا يخاف الموت. (١) وهكذا _ أيها الأخوة _ كان ابن تيمية في علمه وخلقه وجهاده ودفاعه عن الدين والعقيدة ، والإسلام والمسلمين .

⁽١) انظر الفتاوي جـ ٧ ص ٩٠ .

⁽٢) انظر نقض المنطق ص: ٩٢ مطبوع بمصرسنة ١٣٧٠ هـ

⁽٣) الفتاوي جـ ٧ ص ٩٥.

⁽٤) انظر هذا المجموع جـ ١ ص ١٢٤ .

⁽٥) انظر الرد الوافر والعقود الدرية .

⁽٢) الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية للحافظ البزار ص ٦٧ وما بعدها .

وقد مكنته البيئة التي عاش فيها: أسرته ، وما كان عليه المسلمون حينئذ من تعرض لغزوات التتار مكّنه كلُّ ذلك من أن يجاهِدَ بقلمه وسيفه بعدما عل ونهل من فيض الثقافة الإسلامية في جميع ميادينها واتجاهاتها حتى أنه ليقال عنه: إنه برع في الحساب والجبر والمقابلة .

ومن آثار البيئة الأولى عند ابن تيمية ، ما ورثه عن تيمية أم الجد الأعلى له _ كانت واعظة _ وقد نسب إليها وعرف بها .

وكان أبوه فقيها فأخذ عنه الفقه والأصول ، وقد ولد ابن تيمية سنة ٦٦١ هـ بحران بلدة قرب الرها ، وهي من بلاد الأناضول ، وقدم به والده بأخويه عند استيلاء التتار على البلاد - إلى دمشق سنة سبع وستين وستمائة .

وفي دمشق نها وترعرع ، وكانت حينئذ عشَّ العلماء من كل لون ، فسمع منهم ودرس عليهم ، ونقل عنهم . . فكان كها قال الحافظ الذهبي «أعظمَ من أن تصفه الكلم ، أو ينبه على شأوه القلم» .

ومنذ صغره حضر المجالس والمحافل ، فتكلم وناظر وأفحم الكبار ، وأتى بها يحار منه أعيان البلد ، وشرع في الجمع والتأليف وله نحوسبع عشرة سنة ، قال الحافظ الزملكاني _ وهو أعلم من خاصم ابن تيمية ومع ذلك فقد أثنى عليه في قوله : كان ابن تيمية إذا سئل عن فن من الفنون ظن الرائي أو السامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن وحده ، وحكم أن أحدا لا يعرف مثله (1)

وقد انتهت إلى ابن تيمية الإمامة والرياسة في العلم والعمل والزهد ، والورع ، والشجاعة والكرم ، والتواضع ، والحلم ، والاناة ، والجلالة ، والمهابة ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وكان (رحمه الله) سيف مسلولا على المخالفين للدين ، وشجّي في حلوق أهل الأهواء المبتدعين ، بلغ رتبة الاجتهاد ، وأخذ عنه من لايحصي كثرة من العلماء والفقهاء والمحدثين والمفسرين . وحسبه أنَّ من تلاميذه شمس الدين الذهبي ، وأبا حيان النحوي المفسر ، والشمس بن عبد الهادي المقدسي .

كان إِنْ تَكَلَّم في التفسير فهو حامل رايته ، وان أفتى في الفقه فهو مدرك غايته ، أو دان بالحديث فهو صاحب علمه وذو روايته ، أو حاضر بالنحل والملل لم ير أوسع من درايته .

(١) الرد الوافر ص : ٦ ، ٥٦ نقلا عن ترجمة شيخ الاسلام ابن تيمية بقلم محمد كرد علي .

سئل عنه ابن دقيق العيد بعد اجتهاعه به ، كيف رأيته ؟ فقال : رأيت رجلا سائر العلوم بين عينيه ، يأخذ ماشاء منها ، ويترك ماشاء .

رحلته الى مصر ونحنته بها :

استقدم الى مصر، واستفتى فيها فأفتى فغضب عليه جماعة من أهلها ، فحبس بقلعة مصر بأمر قاضيها مع أخيه شرف الدين ، ثم أطلق سراحه فأقام يقرأ العلم ويفتي ما تغيرت له عقيدة ، ولا تبدل له مبدأ .

وقامت بينه وبين جماعة من الصوفية منازعة ، فخشى أولو الأمر عاقبة ذلك فحبسوه ، ثم أبعدوه إلى الإسكندرية معتقلا . ولما تولى الملك الناصر بن قلاوون سنة ٧٠٩ هـ . استحضره من الإسكندرية مكرما ، وتلقاه بالإجلال في مجلس حافل من القضاه والفقهاء وأعيان الدولة . ومكث ابن تيمية بمصر مدة يتردد عليه الناس .

عودته الى مصر واضطهاده بها:

سافر الى دمشق مجاهدا ضد التتارسنة ٧١٧ هـ فسر أهل دمشق بمقدمه ، وكانت له فتوى في مسألة الطلاق اعترض عليها علماء دمشق ، وكتبوا إلى السلطان بشأنها ، فصدر الأمر بمنعه من الفتوى وحبسه غير مرة . وكان كلما أطلق سراحه عاد يفتي بما يمليه عليه ضميره وعلمه ويقول : «لايسعني كتم العلم» وشاع أنه تكلم في منع السفر الى قبور الانبياء والصالحين ، وأفتى قضاة مصر بحبسه ، فحبس بقلعة دمشق سنتين وأشهرا حتى مات بدمشق سنة ٧٢٨ هـ (عليه رحمة الله) .

وكان في حبسه يكتب العلم ، ويصنفه ، ويرسل الى أصحابه الرسائل حتى قال: «قد فتح الله علي بهذا السجن من معاني القرآن ومن أصول العلم بأشياء كثيرة»

ثم منع من الكتابة ، ولم يترك عنده دواة ولا قلم ولا ورق ، فأقبل على التلاوة ، والتهجد والذكر . وكان يقول :

«مايصنع أعدائي بي ؟ أنا بستاني في صدري ، أين رحت فهومعي ! أنا حبسي خلوة ، وقتلي شهادة ، وإخراجي من بلدي سياحة» (١).

(١) الفتح المبين في طبقات الاصوليين ٣ / ١٣٠ للشيخ عبد الله المراغي ، وانظر في ترجمة ابن تيمية : فوات الوفيات ١ / ٣٥ والبداية والنهاية لابن كثير ١٤ / ١٣٥ وشذرات الذهب ٦ / ٨٠ والاعلام للزركلي ١ / ٣٤ ومعجم سركيس ١ / ٥٥ هذا وقد أمدني بها في تلك المصادر مشكور، الاستاذ الدكتور عبد المجيد قطامش (حفظه الله) .

كتب ابن تيمية الى أصحابه ـ وهو في حبس الإسكندرية ، رسالة مما جاء فيها : بسم الله الرحمن الرحيم :

«وأما بنعمة ربك فحدث» والذي أعرَّف به الجهاعة (أحسن الله اليهم في الدنيا والآخرة) وأتم عليهم نعمته الظاهرة والباطنة ، فإني والله العظيم الذي لا اله الا هوفي نعم من الله ما رأيت مثلَها في عمري كله . وقد فتح الله سبحانه وتعالى من أبواب فضله ونعمته وخزائن جوده ورحمته مالم يكن بالبال ، ولا يدور في الخيال ما يصل الطرف اليها . . . وهذا يعرف بعضها بالذوق من له نصيب من معرفة الله وتوحيده وحقائق الإيهان ، وما هو مطلوب الأولين والأخرين من العلم والإيهان . وهكذا تفتحت له في سجنه أبواب المعرفة ، وعرف فيه حقيقة الإيهان .

ويشرح ذلك فيقول :

«وان اللذة والفرحة السرور وطيب الوقت والنعيم الذي لا يمكن التعبير عنه إنها هو في معرفة الله سبحانه وتعالى وتوحيده ، والإيهان به ، وانفتاح الحقائق الإيهانية ، والمعارف القرآنية ، كها قال بعض الشيوخ : كنت في حال أقول فيها : ان كان أهل الجنة في هذه الحال إنهم لفي عيش طيب .

وقال آخر: لتمرعلى القلب أوقات يرقص فيها طربا، وليس في الدنيا نعيم يشبه نعيم الآخرة الا نعيم الايمان والمعرفة . . . ولهذا كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يقول : أرحنا بالصلاة يابلال . . ولا يقول أرحنا منها ، كما يقول من تثقل عليه الصلاة _ كما قال تعالى «وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين» (1)

وما أحوجنا _ أيها الأخوة _ في أيامنا هذه ، وفي كل الأيام ، وما أحوج المسلمين إلى أن يتخلقوا بأخلاق القرآن ، كذلكم كان ابن تيمية ، وقد جاء في فتاواه مايكشف عن منزعه ذلكم حيث قال (رحمه الله) :

«كنت من أعظم الناس تأليفا لقلوب المسلمين ، وطلبا لاتفاق كلمتهم ، واتباعا لم أمرنا به من الاعتصام بحبل الله ، وأزلت عامة ماكان في النفوس من الوحشية (٢).

مع أني في عمري إلى ساعتي هذه لم أَدْعُ أحداً قط من أصول الدين الى مذهب (١) فتاوي ابن تيمية جـ ٢٨ ص ٣١٠ . (٢ جـ ٣ ص ٢٧٧

حنبلي وغير حنبلي ، ولا انتصرت لذلك ، ولا أذكره في كلامي ، ولا أذكر إلا ما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها . وقد قلت لهم غير مرة : أنا أمهل من يخالفني ثلاث سنين إن جاء بحرف واحد من أئمة القرون الثلاثة يخالف ما قلته فأنا أقر بذلك .

وأمّا ما أذكره فأذكره عن أئمة القرون الشلاثة بألفاظهم ، وبألفاظ من نقل اجماعهم من عامة الطوائف . (١)

هذا مع أني دائما ومن جالسني يعلم ذلك مني ، اني من أعظم الناس نهيا عن أن ينسب الى تكفير وتفسيق ومعصية . . .

ومازال السلف يتنازعون في كثير من المسائل ، ولم يشهد أحد منهم على أحد ، لا بكفر ولا بفسق ولا بمعصية : كما أنكر شريح قراءة من قرأ : «بل عجبت ويسخرون» وقال : ان الله لا يعجب ، فبلغ ذلك ابراهيم النخعي فقال : انها شريح شاعر يعجبه علمه ، وكان عبد الله أعلم منه ، وكان يقرأ : بل عجبت » (٢)

وقال (رحمه الله) :

«ذو العلم والايمان اذا سمع شيئا من كلام الناس وعلومهم عرضه على القرآن، فإن شهد له بالتزكية قبله ، والارده ، وان لم يشهد له بقبول ولا رد وَقَفه ، وهمته عاكفة على مراد ربه من كلامه» (٣) .

وهو دائم التفكير في معاني القرآن ، والتدبر لألفاظه ، والاستفتاء بمعاني القرآن وحكمه عن غيره من كلام الناس (٤)

⁽۱) جـ ٣ ص ٢٢٩ وانظر ص ٢٦٥ .

⁽٢) جـ ٣ ص ٢٢٩ _ ٢٣٠ وانظر البحر المحيط جـ ٧ / ٣٥٤ .

 ⁽٤) الفتاوي جـ ١٦ ص ٥٠

* * * مـع الفتـاوي :

أيها الاخوة ، أنظر الى فتاوي ابن تيمية من سبعة وثلاثين مجلدا ضخما فخما (١) فأحس احساس القَزَم ِ إِذَا نظر الى الجبل الأشم ، وأين الوشل من جُمَّةِ البحر الخِضَم!!؟

كيف كانت هذه الفتاوي على ضخامتها ، وكثرة أجزائها ، وغزارة مادتها نتاج هذا الشخص العظيم ؟

على أن فتاواه جانب من نشاطه في دعوته الى الله . . . نعم ! هي جانب يمثل جواباته على هذه الاستفتاءات التي كانت ترسل إليه من هنا وهناك ، ويجيب شيخنا الداعية الكبير بها يقنع ويمتع ويفيد ويهدي .

وكان تطاول هذه الفتاوي وضخامتها يدعوني الى انتهاز فرصة أفرغ فيها لها ، وأعكف عليها قراءة ودرسا ، وانتفاعا وبخاصة في ميداني القراءات واللغويات كان ذلك احساسي عندما أقف في كل مرة أمام هذه المجلدات الضخام ، فأنصرف عنها وفي نيتي أن أعود اليها اذا ما تسلحت بالإقبال على قراءتها ، وأسعفتني الظروف ومشاغل الحياة لأن أنهل من معين هذا الفيض العذب النمير .

وكنت أجد زادا يقنعني الى حدِّ ما فيها كتبه تلميذ ابن تيمية الأثير عنده ، الوارث لعلمه : ابن قيم الجوزية .

ونظرت في نتاج ابن القيم من حيث القراءات والنحوجميعا ، ووقع في يدي ـ وكان ذلكم في عطلة الصيف من العام الماضي ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م ، كتاب من كتب ابن قيم الجوزية هو «بدائع الفوائد» فوجدت فيه تعرضا للقراءات القرآنية ، ووجدت فيه عرضا لبعض أبحاث نحوية ، وكانت هذه وتلك : القراءات والأبحاث النحوية تكاد تكمون كتابا مستقلا ، إذا نحن استخلصناه ، وأقمنا حوله الدرس ، معلقنا عليه : مبينين المسائل التي يستقل بها ابن القيم ، والمسائل التي أخذها من سالفيه كلية أو بمقدار .

(۱) يقول الاستاذ زهير الشاويش: ان فتاوي شيخ الاسلام كثيرة جدا، وسبق أن طبع منها خمس مجلدات، ثم طبع مجلد لمختصر الفتاوي المصرية، ثم طبع سبعة وثلاثون مجلدا من فتاواه، ومع ذلك فهناك الكثير منها لم يطبع. وعندي جزء كبير مخطوط من فتاوي ابن تيمية التي لم تطبع، يسر الله إخراجه، هامش ص: ٧٥ من الاعلام العليه.

وسارت الأيام خفافا أو ثقالا ، سراعا أوبطاء وابن تيمية ماثل بين عيني ، لا أكاد أحيد عنه ، ولا يكاد هو يحيد عني بها له من مكانة ومكان .

وتتأكد الصلة بيني وبين ابن تيمية كلما نزلت في هذا البلد الطيب المسارك الكريم ، فعقيدة هذا البلد قوية الوشيجة بعقيدة شيخ الإسلام ابن تيمية ، وعلماؤه ، وحكامه ، وأولو الأمر فيه أقرياء العقيدة ، ذات الصلة القوية بابن تيمية .

ثم كانت فرصة إعلامية قدمت فيها في البرنامج الإذاعي: «كتاب عن القرآن» - كتاب ـ مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية ، فوجدت الرجل (رحمه الله) موضوعي النظرة ، موسوعي الثقافة ، عميق الفكرة ، مستوعبا ثقافة القرون التي سبقته وبخاصة ما كان منها في ثلاثة القرون الأولى ـ كها نص هو على ذلك في كتبه .

ثم وجدت الشيخ يعطي أحكاما دقيقة لكتب التفسير التي سبقته ، ويضع الموازين القسط لهذه الكتب على اختلاف نحلها ومذاهبها ، فكان في أحكامه عدلا منصفا يقول كلمة الحق ، ولا يجرمه مذهب المؤلف على ألا يعدل في حكمه . . . مما يدل على سعة أفقه ، ورحابة تفكيره .

يقول مثلا: وفي التفسير مما يرويه الوضاعون من أهل البدع والغلوفي الفضائل ـ شيء كثير مثل الحديث الذي يرويه الثعلبي والواحدي والزمخشري في فضائل سور القرآن سورة سورة فإنه موضوع باتفاق أهل العلم . . .

ثم يذكر كلمة الحق في الثعلبي حيث يقرر أنه أي (الثعلبي) كان فيه خير ودين وكان حاطب ليل ينقل ما وجد في كتب التفسير عن صحيح وضعيف وموضوع (١).

كما يقول في الواحدي: والواحديُّ صاحبُه يعني (صاحب الثعلبي) ـ كان أبصر منه في العربية ، لكن هو أبعد عن السلامة واتباع السلف (١). وفيه فوائد جليلة ، وفيه غث كثير من المنقولات الباطلة وغيرها (١).

ويقول في البغوي : والبغوي تفسيره مختصر من الثعلبي ، لكنه صان تفسيره عن الاحاديث الموضوعة والأراء المبتدعة. (٤)

⁽١) الفتاوي جـ ١٣ ص ٣٥٤ .

⁽٢) المصدر نفسه ص ٣٨٦ .

⁽٣) الفتاوي جـ ١٣ ص ٣٥٤ وانظر ص ٣٨٦

⁽٤) انظر الفتاوي جـ ١٣ ص ٣٨٦ .

وأما الزمخشري فتفسيره محشو بالبدعة ، وعلى طريقة المعتزلة من إنكار الصفات والرؤية ، والقول بخلق القرآن (١) والزمخشري حسن العبادة ، فصيح ، يدس البدع في كلامه ، وأكثر الناس لايعلمون (١) .

وتفسير ابن عطية وأمثاله أتبع للسنة والجهاعة ، وأسلم من البدعة من تفسير الزنخشري ـ ولو ذكر كلام السلف الموجود في التفاسير المأثورة عنهم على وجهه ـ لكان أحسن وأجمل فإنه كثيرا ما ينقل من تفسير محمد بن جرير الطبري وهومن أجل التفاسير وأعظمها قدرا ، ثم إنه يدع ما نقله ابن جرير عن السلف لايحكيه بحال ، ويذكر ما يزعم أنه قول المحققين وإنها يعني بهم طائفة من أهل الكلام الذين قرروا أصولهم بطرق من جنس ما قررت المعتزلة أصولهم ، وإن كانوا أقرب الى السنة من المعتزلة . لكن ينبغي أن يعطى كل ذي حق حقه (٣) .

وهكذا يجد القباريء الانصاف فيها يقرره ابن تيمية من كتب التفسير وأصحابها ولا غروفي ذلك ، والشيخ (رحمه الله) قد دفعته سعة أفقه الى تأليف كتاب يرفع الملام عن الأئمة الأعلام (1).

أيها الأخوة: ووقفت وقفة المتأمل عند تفسير ابن عطية (ت ٢٥٥ هـ) ؛ إن ابن عطية يعتمد عليه أبوحيان (ت ٧٥٤ هـ) كما قرَّرَ ذلك في صدر الجزء الأول من تفسيره البحر المحيط (أ) ، كما يعتمد أبوحيان كذلك على الزمخشري (ت ٤٦٧ هـ) والمعروف عند المستغلين بالدراسات القرآنية أن تفسير البحر المحيط تفسير جامع للقراءات فمن أراد أن يدرس القراءات صحيحها وشاذها ومنكرها يجد كل ذلك في البحر المحيط لأبي حيان ، وكذلك دراسة القراءات من حيث اعرابها وتخريجها . وقد حدثني من أثق بصدق حديثة وهو الاستاذ الدكتور الجندي أنه قرأ كتاب البحر المحيط واستخرج منه القراءات ، وقابلها بها أورده ابن أبي داود السجستاني في كتابه واستخرج منه القراءات ، وقابلها بها أورده ابن أبي داود السجستاني في كتابه المصاحف ، فوجد فيه اتفاقا بين الرجلين كثيرا وكان مِنيَّ شيْء، من ذاك فيلً

⁽١) الفتاوي جـ ١٣ ص ٣٨٦ .

⁽٢) مقدمة في أصول التفسير ص ٨٦ .

⁽٣) فتاوي شيخ الاسلام ابن تيميَّة جـ ١٣ ص ٣٦١ وانظر المقدمة في أصول التفسير ص ٩٠ .

⁽٤) لابن تيمية كتاب بعنوان ورفع الملام عن الأثمة الأعلام، يدفع فيه اللوم عن أثمة المذاهب الفقهية واختلافهم في الأحكام، وفهمهم لنصوص القرآن والسنة.

وفي سبيلي الى التعرف عن القراءات ومشغلة ابن تيمية بها ـ خطوت خطوة . . تجلَّت فيها قدرت من أن أبا حيان تلميذا لابن تيمية ، أخذ عنه ، وتلقى منه ، ومدحه مدحة شعرية سُجِّلت في كتب التراجم . قالوا : اجتمع أبوحيان شيخ النحاة لأول مرة فحين وقع نظره على شيخ الإسلام قال: ما رأت عيناي مثله ، ثم مدحه أبو حيان على البديهة في المجلس وقال:

داع ِ السي الله فرداً ما له وَزَر خير البرية ، نور دونه القمر حبر تسربل منه دهرنا حبرا بحر تقاذف من أمواجه الدُّرر مقام سيد تيم إذ عصت مضر وأخمَــ لَـ الـشّــرُّ إذ طارت له شَرَر أنت الامام الذي قد كان ينتظر (١)

لما أتينا تقيَّ الدين لاح لنا على محياه سيم الأولى صحِبوا قام ابن تيميَّــة في نصـــر شرعتنــا وأظهر الحقّ اذ آثاره درست كنا نحدُّثُ عن حَبرٍ يجيء فها

وهي مدحة تكشف عن الفضيلة الأولى التي نذر لها شيخ الإسلام نفسه وجهده وكفاحه طول الحياة ، تلك الدعوة إلى الله ، ونصر شريعة الله ، والعمل على إظهار الحق بعد أن دَرَس ، وإشاعة الخير بين الناس ، وقد صدق أبوحيان ، فكذلكم كان شيخ الإسلام ابن تيمية ، وإنكم لتجدون حرارة الدفاع عن العقيدة ، وحماسة الشيخ لنصرها وإذاعتها ، ودعوة الناس إلى الله تجدون ذلك واضحا جليا في مؤلفات ابن تيمية . . فهو الداعية إِلَى اقامة كل خير ، وإطفاء كل شر(رحمه الله) .

قال ابن تيمية يكشف عن هذه الفضيلة فيه:

وأنا والله من أعظم الناس معاونة على إطفاء كل شر ، واقامة كل حير ، وابن مخلوف لوعمل مهما عمل والله ما أقدر على خير إلا وأعمله معه ، ولا أعينُ عليه عدوَّه قط ، ولا حول ولا قوة الا بالله !!

هذه نيتي وعزيمتي ـ مع علمي بجميع الأمور ـ فإني أعلم أن الشيطان ينزغ بين المؤمنين ، ولن أكون عونا للشيطان على إخواني المسلمين 🗥

⁽١) انظر الكواكب الدرية من مجموع الرد الوافر وما معه من الرسائل نقلا عن حياة شيخ الإسلام ابن تيمية للشيخ محمد بهجة البيطار .

⁽٢) الفتاوي جـ ٣ ص ٢٧١ .

أبوحيان قاريً من القراء ، يذكر اسمه في كتب الطبقات ، ويترجم له على أنه جلس للإقراء ، وتلقى المتعلمون عنه الأداء ، وله شيوخ قرأ عليهم ، كما أن له تلاميذ أخذوا عنه ، وقرءوا عليه (() وهو موصوف بأنه الامام الحافظ شيخ العربية والقراءات مع العدالة والثقة (() ثم إن لأبي حيان مصنفات في القراءات . . حيث نظم القراءات السبعة في قصيدة لامية ساها عقد اللآلي خالية من الرموز (()) .

فها بال ابن تيمية لم يترجم له بين طبقات القراء ؟!

على أنه من الملحوظ أن يستفتي أبوحيان الشيخ ابن تيمية في موضوع يتصل بمعنى الأحرف السبعة ع⁴⁾ وقد أتعرض لهذا الاستفتاء وفتوى ابن تيمية فيه بعد قليل ان شاء الله .

ثم ابن الجنرري وهو صاحب كتاب طبقات القراء يصف ابن تيميَّة في كتاب منجد المقرئين يصف بأنه الإمام المجتهد مرة (٥) والإمام الحافظ مجتهد العصر مرة أخرى (١) ، ويجعله بين صدور القراء في الفتوى التي صدرت عنهم والتي يقرر أن المصاحف التي كتبت في زمن أبي بكر (رضي الله عنه) كانت محتوية على جميع الأحرف السبعة . . . لكن المصاحف العثمانية كتبت على لفظ قريش والعرضة الأخيرة _ قال ابن الجزري : وهذا هو الحق الذي تحرر من كلام الإمام محمد بن جرير الطبري ، وأبي عمر بن عبد البر ، وأبي العباس المهدوي ، ومكي بن أبي طالب القيسى ، وأبي القاسم الشاطبي وابن تيمية وغيرهم .

اذا كانت تلكم مكانة ابن تيمية فلهاذا لم يكن بين القراء فيترجم له كها ترجم لغيره من شيوخ القراءات ؟

- (١) انظر طبقات القراء لابن الجزري جـ ٢ ص ٢٨٤
 - (٢) المصدر السابق ص ٢٨٥
- (٣) وهي بذلك تفتر ق عن الشاطبية حيث رمز ابن فيره فيها وأشار الى القراء ورواتهم بالرموز وهي أبعُ دَهَز حطى . . . الخ وفي ذلك يقول :
 - جعلت أبا جاد على كل قاريء دليلا على المنظوم أول أولا

انظر حرز الاماني ووجه التهاني (الشاطبية) البيت ٥٠ .

- (٤) انظر منجد المقرئين ص : ٢٨ ، ٤٧ .
- (٥) انظر منجد المقرئين ومرشد الطالبين للامام ابن الجزري ص: ٢٨ .
 - (٦) المصدر نفسه ص: ٤٧ .

ما من شك - أيها الأخوة - أن ابن تيمية (رحمه الله) - حفظ القرآن الكريم وسنه كها تقول كتب التراجم - سبع سنوات ، ولكن ابن تيمية عاش في عصر كان كله قلاقل وفتنا واضطرابات . . . عصر التتار وهجمتهم المشينة الهمجية على بلاد الإسلام ، والثقافة الإسلامية ، وانتقل به أبوه من حرّان في تركيا الأناضول إلى دمشق . . . وكان أبوه قاضيا ومفتيا ، وأسرته تتمتع بمجد علمي تليدا وطارفا . . . ويُعني ابن تيمية - وهو لا يزال في ريعان صباه - بالفتيا ، ثم يأخذ مكان أبيه في الافتاء ولما يبلغ العشرين ، وتجرفه الاحداث بهآسيها ، فينصرف في كل ذلك ، ومن أجل ذلك عن أن يتلقي القرآن تلقي القاريء الذي يرصد نفسه لتلقي هذا الكتاب الكريم من أفواه الشيوخ القراء .

ان التلقي من الشيوخ ، والجلوس للإقراء يحتاج الى وقت قد يقصر أو يطول في التلقي ، ومعرفة القراءات والروايات والطرق . . . في الاصول والفرش . . . فالقراءات كما يعترفها علماؤها : «علم بكيفية أداء كلمات القرآن ، واختلافها بعزو الناقلة» . . والمقريَّ العالم بها يرويها مشافهة مسلسلا عن شيوخه شيخا عن شيخ حتى رسول الله (صلوات الله عليه وسلامه) عن جبريل رب العالمين . . . والقاريُ المبتديَّ - كما يقرر ابن الجزري - من شرع في الإفراد الى أن يفرد ثلاثا من القراءات . . . والمنتهي من نقل من القراءات أكثرها وأشهرها (۱) .

فأين الوقت الذي يصرفه ابن تيمية في التلقي والمشافهة ونقل القراءات مبتدئا أو منتهيا وهذه الأحداث من حوله ضاربة بجرانها آخذة منه بخناقه ؟! فانصرف الشيخ الى دفع شبة المبطلين ، ودحض حجج المبطلين . لقد أكثر (رضي الله عنه) التصنيف في الأصول ، وقد التمس منه صاحبه وصفيه الحافظ عمر بن على البزار أن يؤلف نصا في الفقه يجمع اختياراته وترجيحاته ؛ ليكون عمدة في الافتاء ، فقد قال له ما معناه .

الفروع أمرها قريب ، ومن قلد المسلم فيها أحد العلماء المقلدين جازله العمل بقوله ما لم يتقين خطأه . وأما الأصول ، فاني قد رأيت أهل البدع والضلالات والأهواء كالمتفلسفة ، والباطنية ، والملاحدة ، والقائلين بوحدة الوجود ، والدهرية ، والقدرية ، والجهمية ، والحلولية ، والمعطلة ، والمجسمة ، والمشبهة و . . وغيرهم من أهل البدع . . . قد قصد كثير منهم إبطال الشريعة المقدسة ، والمحمدية ، الظاهرة العلية على كل دين ، وإن جمهورهم قد أوقع الناس في التشكيك في أصول دينهم

⁽١) منجد المقرئين ص ٣ .

فلما رأيت الأمرعلى ذلك بَانَ لي أنه يجب على كل من يقدرعلى دفع شبههم وأباطيلهم ، وقطع حجتهم وأضاليلهم أن يبذل جهده ليكشف رذائلهم ، ويزيف دلائلهم . ذباً عن الملة الحنيفية عن والسنة الصحيحية الجلية .

قال الشيخ الامام قدس الله روحه: فهذا ونحوه هو الذي أوجب أني صرفت جل همي الى الأصول ، وألزمني أن أوردت مقالتهم ، وأجبت عنها بها أنعم الله تعالى به من الأجوبة النقلية والعقلية (١٠) .

فابن تيمية (رحمه الله) رجل الفقه وأصوله ، ورجل العقيدة الاسلامية السمحة يدافع عنها ، ويدفع عنها شبه المضلين ، وذلك ما يتجلى واضحا في تصانيفه ولا سيها فتاواه .

فلعل هذا هو السبب في أن ابن تيمية لم يكن من القراء . . . ولكنه يستمد حديثه من القراءات ، وتاريخها ، وتخريجها من كتاب الله ، ومن حديث رسول الله ، وهما مصدران حسبكم من مصدرين .

ووسط هذه الاحداث كان الشيخ ابن تيمية يسعى في حقن دماء المسلمين وحماية ذراريهم ، وصون حريمهم (٢).

فهل يترك له شيء من هذه المهام _ وقتا يجلس فيه للقراءة والإقراء ؟

ثم ان شيوخ القراء كانوا يتنقلون في مختلف أرجاء العالم الاسلامي ليتلقوا القراءات برواياتها المتعددة من أفواه الثقات الأثبات من الأئمة القراء: سنة أخذها الآخر عن الأول منذ القراء السبعة الذين اختارهم ابن مجاهد حتى عصر ابن تيمية وما بعده (٣) ، فهل تترك الأحداث التي شغل بها الشيخ الامام تقي الدين ابن تيمية ، _ هل تترك هذه الاحداث وقتا للتنقل هنا وهناك ؟! وهل يترك له اهتامه بالأصول (١) وجلوسه للإفتاء ، وتصديه للدعوات الهدامة ، وقتا للتنقل بغرض تلقي

⁽١) باختصار من كتاب الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية للحافظ البزار ص ٣٣ وما بعدها . .

⁽٢) الاعلام العلية ص ٦٩.

⁽٣) تقرأ مثلا تراجم أبي عمروبن العلاء وحمزة والكسائي وابن شنبوذ وابن مجاهد وأبي القاسم الهذلي في كتاب طبقات القراء لابن الجزري .

⁽٤) انظر نص الاعلام العلية في هذا الشأن ، وقد سبق هذا النص منذ قليل .

القراءات . . . ومهما يكن من أمر فإن الاسلام قد ظفر من الشيخ الامام فيما هيأه الله له من المدعوة الى الله ، وتبصير الناس بالعقيدة السمحة بما لم يظفر به لو أنه اشتغل بالقراءة والاقراء .

القراءات في الفتـــاوي

(١) _ شرع الله الصلوات وقراءة القرآن فيها :

قال شيخ الاسلام:

شرع الله لعباده الصلوات الخمس ، وقسراءة القسرآن فيها ، والاستماع له ، والاجتماع لسماع القرآن خارج الصلاة أيضا ، فأول سورة أنزلها الله على نبيه (صلى الله عليه وسلم) : «اقرأ باسم ربك الذي خلق» (١) ، أمر في أولها بالقراءة وفي آخرها بالسجود بقوله تعالى : «واسجد واقترب» .

ولهـذا كان من أعظم الأذكار التي في القرآن ، وأعظم الأفعال السجود لله وحده لا شريك له . وقال تعالى «وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا» وقال تعالى «واذا قريً من القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون» .

وكان أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إذا اجتمعوا امروا واحدا منهم أن يقرأ والباقي يستمعون ، وكان عمر بن الخطاب يقول لابي موسى الاشعري (رضي الله عنه) ذكرنا ربّنا ، فيقرأ وهم يستمعون ، ومر النبي صلى الله عليه وسلم بأبي موسى (رضي الله عنه) ، وهو يقرأ ، فجعل يستمع لقراءته فقال : يا أبا موسى مررت بك البارحة فجعلت أستمع لقراءتك . فقال ; لو علمت لحبرته لك تحبيرا ، وقال : «لله أشد أذناً «أي استهاعا» للرجل يحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة الى قينته .

وهذا هوسماع المؤمنين وسلف الأمة وأكابر المشايخ . . . وأما المشركون فكان سياعهم كما ذكره الله تعالى في كتابه بقوله تعالى : «وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية ، التصفيق باليد .

فكان المشركون يجتمعون في المسجد الحرام ، ويصفقون ويصوتون ، يتخذون ذلك عبادة وصلاة ، فذمهم الله على ذلك ، وجعل ذلك من الباطل الذي نهى عنه ٩٠

⁽١) سورة العلق آية (١) .

⁽٢) الفتاوي جـ ٣ ص ٤٢٥ وما بعدها .

القراءة وتدبر المعاني:

إنَّ الله قال: «أفلا يتدبرون القرآن؟ ولوكان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلاف كثيرا» (1) ، وقال: «أفلم يدبروا القول» (2) وقال: «كتاب أنزلناه مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الالباب» (2) وقال: «فلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها» (4) فأمر بتدبر الكتاب كله (9).

وقد أقام عبد الله بن عمر وهومن أصاغر الصحابة في تعلم البقرة ثماني سنوات، وإنها ذلك لأجل الفهم والمعرفة، وهذا معلوم من وجوه:

(أحدها): أن العادة المطردة التي جبل الله عليها بني آدم توجب اعتناءهم بالقرآن _ المنزل عليهم _ لفظا ومعنى ، بل أن يكون اعتناؤهم بالمعنى أوكد ، فانه قد علم أن من قرأ كتابا في الطب أو الحساب أو النحو أو الفقه أوغير ذلك فإنه لابد أن يكون راغبا في فهمه ، وتصور معانيه ، فكيف بمن قرأ كتاب الله تعالى المنزل اليهم ، الذي جم هداهم الله ، وبه عرفهم الحق والباطل ، والخير والشر ، والهدى والضلال ، والرشاد والغى ؟!

(الوجه الثاني): أن الله سبحانه وتعالى قد حضهم على تدبره وتعقله واتباعه في غير موضع كها قال تعالى: «كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته» (٦).

(الوجه الشالث) : أنه قال تعالى : «إِنَّا أَنْزَلْنَاه قرآنًا عربيا لعلكم تعقلون (٧)

وقال تعالى : «إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون» (^) فبين أنه أنزله عربيا لكي يعقلوا ، والعقل لايكون إلا مع العلم بمعانيه .

(الوجه الرابع): انه ذم من لا يفهمه فقال تعالى: «اذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين اللذين لايؤ منون بالآخرة حجابا مستورا * وجعلنا على قلوبهم أكِنَّة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا» وقال تعالى: «فها لهؤ لاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا»، ويعلق الشيخ ابن تيمية على الآيات فيقول:

فلوكان المؤمنون لايفقهونه أيضا لكانوا مشاركين للكفار والمنافقين فيها ذمهم الله

(۲) سورة المؤمنوں ایه ۱۸	(١) سورة النساء آية ٨٢
(٤) سورة محمد آية ٢٤	(٣) سورة ص آية ٢٩

(٥) الفتاوي جـ ٣ ص ٥٤ (٦) سورة ص آية ٢٩

(V) سورةً يُوسف آية Y (A) سوره .لزخرف آية ٣

تعالى به ^{(۱) .}

وسماع القرآن لفهم معناه :

ذم القرآن من لم يكن حظـه من السماع الاسماع الصوت دون فهم المعنى ، واتباعه ، فقال تعالى : «وَمَثَل الذين كفروا كَمَثَل الذي يَنْعِقُ بِهَا لاَيُسْمَعُ الا دُعاء، ونداء صُمُّ بُكُمُ عُمْيٌ فهم لا يعقلون، (١):

وقال تعالى : «أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقِلون ؟ إِنْ هم إِلَّا كالأنعام بل هم أضلَ سبيلا» (٣).

وقال تعالى : «ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم: ماذا قال آنفا ؟ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم ، واتبعوا أهواءهم " (الله على قلوبهم ، ويعلُّق ابن تيمية على هذه الآية الكريمة فيقول:

وهؤ لاء المنافقون سمعوا صوت الرسول (صلى الله عليه وسلم) ولم يفهموا ، وقالوا: ماذا قال آنفا؟ أي الساعة ، وهذا كلام من لم يفقه قوله ، فقال تعالى : «أولئك الذين طبع الله على قلومهم ، واتبعوا أهواءهم»

فمن جعل السابقين الأولين من المهاجرين والانصار ، والتابعين لهم غير عالمين بمعاني القرآن . جعلهم بمنزلة الكفار والمنافقين فيها ذمهم الله تعالى به

وقال الحسن البصري : ما أنزل الله آية الا وهو يحب أن يعلم فيهاذا أنزلت وماذا عني بها ، وقد قال تعالى : «أفلا يتدبَّرون القرآن ؟» وتدبُّر الكلام ربها يُنْتَفَع به إِذا فَهِم (١) وقال: «انا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون» (٧).

العلم بمعاني القرآن والعمل به:

ان الترغيب في قراءة القرآن وسيلة الى فهمه وتدبره وتصور معانيه . . ان المتعلم اذا سمع من العالم حديثا فانه يرغب في فهمه فكيف بمن يسمعون كلام الله عن المبلغ

- (١) فتاوي ابن تيمية جـ ٥ ص ١٥٦ .
- (٢) المصدر نفسه ص ١٥٨ وما بعدها . (٣) الفتاوي جـ ١٠٨ ص ١٠٨ . (٤) سورة النحل آية ١٠٨.
 - (٥) الفتاوي جـ ٥ ص ١٥٦ :
 - (٦) المصدر نفسه.
 - (٧) سورة الزخرف آية ٣ .

عنه (1) ، ان الذين تلقُّوا القرآن والسنة عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) تلقوا عنه مافي القرآن والسنة من العلم والعمل . قال أبوعبد الرحمن السلمي : لقد حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا اذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل ، قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا (1) .

ويقول ابن تيمية في مكان آخر:

ومن المعلوم أن رغبة الرسول (صلى الله عليه وسلم) في تعريف أتباعه معاني القرآن أعظم من رغبته في تعريفهم حروفه ، فان معرفة الحروف بدون المعاني لا تحصل المقصود ، اذ اللفظ انها يراد للمعنى "

ويقول الشيخ ابن تيمية في موضع آخر من فتاواه :

المعتصمون بالقرآن علم وحالا وتلاوة وسمعا وباطنا وظاهرا هم المسلمون حقا ، خاصة أمة محمد صلى الله عليه وسلم (١) .

ثم لما انحرف من انحرف من أهل الكلام والحروف الى كلام غيره ، ومن أهل السياع والصوت الى سياع غيره ـ كان الانحراف في أربع طوائف متجانسة :

١ ـ قوم تركوا التعلم منه والنظر فيه ، والتدبر له إلى كلام غيره . . . وهؤ لاء منحرفة المتكلمة .

٢ ـ وبازائهم قوم أقاموا حزوفه ، وحفظوه ، وتلوه من غير فقه فيه ، ولا فهم لمعانيه
 . . . وهم ظاهرية القراء والمحدثين ونحوهم .

وهـذان الصنفان نظير متفقه لا يعـرف الحديث ، أوصاحب حديث لا يتفقه فيه . وكـذلـك متكلم لايتـدبدر القرآن ، أوقاريء لا يعرف من القرآن أنواع الكلام الحق والباطل . فهاتان فرقتان علميتان .

٣ ـ والثالثة : قوم تركوا استهاع القلوب له والتنعم به . . . إلى سماع أصوات تُغَيرُه من شعر أو مَلاهِ . . . وهم منحرفة المتصوفة .

٤ _ وبازائهم قوم يصوتون به ويسمعون قراءاته من غير تحرك عنه ، ولا وجد فيه ، ولا

- (١) الفتاوي جـ ٥ ص ١٥٦ .
- (٢) فتاوي ابن تيمية جـ ٥ ص ١٥٦ .
- (٣) فتاوي ابن تيمية جـ ٥ ص ١٥٧ .
 (٤) الفتاوي جـ ١٣ ص ٣٧٦ .

ذوق لحقائقه ومعانيه ، وهم ظاهرية العباد ، والمتطوعة والمتقرئة (١) نظرة الشيخ ابن تيمية الى الأداء :

الغاية اذن - أيها الأخوة - من تلاوة القرآن الكريم تدبر آياته وتفهم معانيه ، بحيث لا ينصرف عن ذلك - كها يقول الشيخ - بالوسوسة في إخراج حروفه ، وأداثها بالترقيق ، والتفخيم ، والإمالة ، والنطق بالمد الطويل ، والقصير ، والمتوسط ، وشغل النطق ب : «أأنذرتم» - أو كها افتتح القاريء الكريم ندوتنا المباركة بآيات من سورة فصلت - وردت فيها كلمة أأعجمي - كها ينبغي أن يشغل القارئ نفسه بضم الميم من «عليهم» ، ووصلها بالواو ، وكسر الهاء أو ضمها ، ونحو ذلك (").

ان القاريء اذا جعل همه الاول استيعاب مذاهب القراء مثلا في : (المد والقصر) ، أو الهمز (الهمزتين من كلمة) و (الهمزتين من كلمتين) و (الهمز المفرد) ونقل حركة الهمزة الى الساكن قبلها . . . ووقف حمزة وهشام على الهمز (٦) ، والتقعر في ذلك ، والتكلف في أدائه ، والاعتساف في النطق به إذا شغله كل ذلك عن تفهم مراد الرب من كلامه ، كان ذلك حائلا لقلبه ، قاطعا له عن الغاية العليا وهي تدبر كتاب الله ، والتفقه في معناه .

تماما كما يتجمه الى مراعماة النغم ، وتحسين الصوت ، فذلك اهتمام بالمغنى لابالمعنى ، وكذلك ـ كما يقول ابن تيمية أيضا ـ اذا تتبع وجوه الإعراب ، واستخراج التأويلات المستكرهة التى هى بالألغاز والأحاجى أشبه منها بالبيان . (4)

ولايدورَنَّ بخلدك أن الشيخ الامام ابن تيمية بذلك يدعو الى ترك تجويد الحروف . . . لا ! انه يدعو الى تفهم كتاب الله وتدبر معناه ، وكلُّ مُوَدِّ الى ذلك الهدف الجليل ، فإن الشيخ يأمر به ، ويوجه اليه ، ويحث بشدة عليه .

وكل شاغل عن تلك الغاية من التكلف في الأداء ، وصرف الهمة الى أحكام التجويد ، دون شغل النفس بتفهم ما وراء أوجه الأداء من معنى فهذا يحذرنا اياه ابن تيمية . . . «فان الله تعالى انها أنزل القرآن ليهتدى به ، وانها يكون الهدى اذا ما عرفت معانيه . . . فاذا انصرفت النفس عن تفهم الآية ومعناها لم يحصل الهدى والعلم الذي هو المراد بإنزال الكتاب» (٥)

⁽١) باختصار من الفتاوي جـ ١٣ ص ٣٧٦ . (٢) الفتاوي جـ ١٦ ص ٥٠ .

⁽٣) انظر في ذلك حرز الاماني الأبيات من ١٦٨ ـ ٢٥٤ .

⁽٤) الفتاوي جـ ١٦ ص ٥٠ .

⁽٥) بتصرف من الفتاوي جـ ١٥ ص ١٠٧ و ١٠٨

وما أفرد القراء والمؤلفون في القراءات ـ المساحات الواسعة في كتبهم . يتحدثون فيها عن الأداء وتجويده إلا من أجل أن ذلك كله يقرب المعنى الى الأذهان ، ويجنب اختلاط المعاني الصحيحة بغيرها من المعاني التي لا تراد .

يقول ابن الجزري في طيبة النشر مثلا:

والأخذ بالتجويد حتم لازم من لم يصحح القران آثم ؟ لأنه به الاله أنزلا وهكذا منه إلينا وصلا وهو إعطاء الحروف حقها من صفة لها ومستحقها مكملا من غير ما تكلف باللفظ في النطق بلا تعسف (١) والتعسف في الأداء مستكره.

حكى عن حماد بن زيد أنه قال: رأيت رجلا يستعدي على رجل بالمدينة، فقلت له : ما تريد منه ؟ فقال : إنه يتهدد القرآن ، قال : فإذا المطلوب رجل اذا قرأ يهمز ، يعني أنه كان يهمز همزا متعسفا ^(۱) .

وقد نبه القراء (جزاهم الله خيرا) ـ الى التحفظ عند النطق بحروف معينة : قال ابن الجزرى:

وحاذرن تفخيم لفظ الألف ألله ، ثم لام لِلَّهِ لنا والميم من مُخمصة ومن مرض وجاء ، حصحص أحطت الْحَقُّ (١) فرققن مستفلًا من أحرف كهمز ألحمد ، أعوذ ، إهدنا وليتلطف ، وعلى الله ، ولا الضَّ وبساء بسم ، باطسل ، وَيَسرَقُ

وفي هذا الباب يقول مكي بن أبي طالب متحدثًا عن التحفظ في النطق ببعض الحروف _ مثلا _

- (أ) الهاء : يجب التحفظ ببيان الهاءين في درج القراءة في كلمتين : فيه هدى (١) ، وفي كلمة بأفواهم (°) وجباههم (١٠) ·
 - (١) شرح طيبة النشر ص: ٣٦ وما بعدها.
 - (٢) الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة لمكى بن أبي طالب ص ١٢٠ .
 - (٣) وانظر شرح هذه الأبيات شرح طيبة النشر ص ٣٧ وما بعدها .
 - (٤) سورة البقرة الآية : ٢
 - (٥) سورة الصف آية : ٨
 - (٦) سورة التوبة آية : ٣٥

واذا وقعت الهاء قبل حاء : «وما قدروا الله حق قدره» (١) أو بعد حاء وجب اظهار الهاء نحو: فسبحه ليلالان ، فسبحه وادبال اله . . .

ان لم يتحفظ باظهار الهاء صارت مع الحاء التي قبلها بلفظ حاء مشددة فتصير الى أن نقرأ بها لا يقرأ به أحد . (4)

(ت) والغين : اذا وقعت بعد الغين السَّاكنة شين وجب بيان الغين ، لئلا تقرب من لفظ الخاء (°) في قوله تعالى: «يغشى طائفة» (٢) ، «تغشى وجوههم النار» (٧).

(جـ) والتاء : اذا وقعت متحركة قبل طاء ، ان لم يتحفظ القاريء باظهار لفظ التاء على حقها من اللفظ . قرب لفظها من لفظ التاء ، ودخل في التصحيف ، وذلك نحو يستطيع ، واستطاع ، ويستطيعون وشبهه . $/^{(\wedge)}$

(د) والسين : إذا وقعت بعدها حرف أطباق ، وجبت المحافظة على اظهار لفظ السين ، وبيان صفرها ، لئلا يخالطها لفظ الاطباق الذي بعدها ، فتصير صادا وذلك نحو قوله : أمة وسطا (١) ، من أوسط ما تطعمون أهليكم (١) ، مالم تستطع عليه صبر ا (إ)

واذا وقع لفظ لمعنى هو بالسين أشبه لفظا آخر لمعنى هو بالصاد ـ وجب البيان للسين لاشتباه اللفظين نحو: (أسروا النجوي)(١٢). تبين السين لئلا يصير الى لفظ قولـه : (وأصـروا واستكـبر وا)(١٣) (يسحبون في الحميم (١٤) تبين السين لئلا تصير

- (١) سورة الزمر آية ٦٧ .
- (٢) سورة الانسان آية : ٢٦ .
 - (٣) سورة الطور آية : ٤٩ .
- (٤) الرعاية لمكي بن أبي طالب ص: ١٤٤.
 - (٥) الرعاية : ص ١٤٤ .
 - (٦) سورة آل عمران آية : ١٥٤
 - (٧) سورة ابراهيم آية ٥٠ .
- (٨) انظر الرعاية لكي بن أبي طالب ص ١٨٠ .
 - (٩) سورة البقرة آية : ١٤٣ .
 - (١٠) سورة المائدة آية : ٨٩ .
 - (١١) سورة الكهف آية : ٧٨ .
 - (۱۲) سورة طه آية : ٦٢ .
 - (١٣) سورة نوح آية : ٧ .
 - (١٤) سورة غافر آية : ٧١ .

الى لفظ (ولا هم منا يصحبون) (١) (نحن قسمنا بينهم معيشتهم) (٢) لئلا تصير الى لفظ (وكم قصمنا من قرية) (٢) من القصم (٤)

(هـ) والظاء : اذا وقعت الظاء في كلمة تشبه كلمة أخرى بالذال بمعنى آخر ـ وجب البيان للظاء ؛ لئلا ينتقل الى معنى آخر ، وذلك نحوقوله تعالى : «وما كان عطاء ربك محظورا» (*) أي ممنوعا ، فهو بالظاء ، فبينه ، لئلا يشتبه في اللفظ بقوله : ان عذاب ربك كان محذورا(١) . فهذا بالذال من الحذر(٧),

وهكذا كل ما يؤدي في تلاوة القرآن الكريم الى تغيير المعنى ، بالاشتباه في معنى آخر أو تصحيف الكلمة ، أو الالتباس ، أو التكلف والاعتساف ، أو الاهتمام بكل ما لا طائل تحته ، بل مما هو صارف عن المعنى المراد من الآية ـ كل ذلك ونحوه يمنعه ابن تيمية ، لأنه يحول بين المرء وتفهم كتاب الله ، والتفقه في معناه . (^)

منزلة القراء عند شيخ الاسلام ابن تيمية :

وابن تيمية يقدر القراء ، ولهم عنده مكان ، انه يقرر أن السلف كانوا يسمون القراء أهل العلم والدين (٩) ، ويقول (رحمه الله) : ان معرفة القراءة وحفظها سنة متبعة ، يأخذها الآخر عن الأول ، فمعرفة القراءة التي كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يقرأ بها ، أويقرهم على القراء بهم الا قراءة واحدة . (١٠) مزية على من لايعرف ذلك ، ولا يعرف الا قراءة واحدة . (١٠)

ويمورد ما قالمه أبموعبد السرحمن السلمي : حدثنا الذين كانوا يقرءوننا : عثمان بن عفان ، وعبد الله بن مسعود ، وغيرهما أنهم كانوا اذا تعلموا من النبي (صلى الله عليه وسلم) عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل ، قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا . (١١)

```
(١) سورة الانبياء آية : ٤٣
```

⁽٢) سورة الزخرف آية : ٣٢

⁽٣) سورة الانبياء آية : ١١

⁽٤) الرعاية من ص ١٨٦ ــ ١٨٨

⁽٥) سورة الاسراءِ آية : ٢٠

⁽٦) سورة الاسراء آية : ٥٧

⁽٧) الرعاية ص ١٩٥ .

⁽٨) انظر الفتاوي جـ ١٦ ص ٥٠

⁽٩) الفتاوي جـ ١١ ص ه ١٩٩ ، ١٩٩ .

⁽١٠) الفتاوي جـ ١٣ ص ٤٠٣ .

⁽١١) الفتاوي جـ ١٣ ص ٤٠٢ .

فالقراء الأولون تعلموا القرآن وتعلموا العلم وتعلموا العمل جميعا ، وهذا ماينبغي أن يكون عليه القراء في كل زمان أو مكان : قرآنيون علماء عاملون

* * *

ونص ابن تيمية هذا يدعوالى الاشتغال بالقرآت ، والإقبال عليها ، وحفظها الى جانب قَدْرِ القراء ، وحسبهم مكانة أنهم يحافظون على هذه السنة المتبعة ، ويحيونها في أزمانهم المتعاقبة ، وذلك العمل الجليل له من الثواب ماله ، وفيه مافيه من الخير الجزيل .

وها هوذا أبوعبد الرحمن السلمي يروي عن عثمان (رضي الله عنه) عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أنه قال: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» كما رواهالبخاري في صحيحه

ويدخل في تعليم القرآن تعليم حروفه ومعانيه جميعا ، بل تعلم معانيه هو المقصود بتعليم حروفه ، وهو الذي يزيد الايهان .

بين ابن تيمية وأبي حيان (استفتاء وفتوى حول القراءات):

سأل الامام أبوحيان شيخ الاسلام المجتهد أبا العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية (٣) عن قول النبي صلى الله عليه وسلم: «أنزل القرآن على سبعة أحرف» فأجاب بأن هذه المسألة كبيرة، تكلم فيها أصناف العلماء من الفقهاء والقراء، وأهل الحديث والتفسير والكلام وشرح الغريب وغيرهم، حتى صنف فيها التصنيف المفرد (٤٠) ومن آخر ما أفرد في ذلك ما صنفه الشيخ أبو محمد عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم الشافعي المعروف بابن أبي شامة (٥) صاحب شرح الشاطبية.

ويبادر ابن تيمية فيقرر أن الأحرف السبعة التي ذكر النبي (صلى الله عليه وسلم) أن القرآن أنـزل عليه اليست هي قراءات القراء السبعة المشهورة (١٠). . . ، وتفسير الحديث بهذه القراءات خطأ فاحش وجهل من قائله . (٧)

- (١) كتاب فضائل القرآن / فتح الباري ص ٧٤ .
 - (٢) الفتاوي جـ ١٣ ص ٤٠٣ .
 - (٣) انظر منجد المقرئين ص ٢٨.
- (٤) ممن صنف في شرح هذا الحديث وأفرد له كتابا : مكي بن أبي طالب ت ٤٣٧ هـ في كتابه والابانة عن معاني القراءات ووقد قام بتحقيقه الدكتور عبد الفتاح اسهاعيل شلبي .
 - (٥) في كتابه والمرشد الوجيز الى علوم تتعلق بالكتاب العزيز، وقد قام بتحقيقه طيار آل قولاج .
 - (٦) الفتاوي جـ ١٣ ص : ٢٩٠ (٧) منجد المقرئين لابن الجزري ص : ٣٧ .

ويدلل ابن تيمية على ذلك بأن أول من جمع قراءات هؤ لاء السبعة هو الإمام آبو بكر بن مجاهد وكان على رأس المائمة الثالثة ببغداد (١)، فلم تكن القراءات السبع متميزة عن غيرها في قرن الاربعائة . (١)

وأجاب ابن تيمية اجابة واسعة استعرض فيها كتابة المصاحف منذ أن كان هناك كتابة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم في عهد أبي بكر ، ثم في عهد عثمان والدواعي التي دعت الى هذا كله ، ثم بعد ذلك اقتصار عثمان على حرف واحد هو حرف قريش ، ثم جاء أبو بكر بن مجاهد ، وسبع السبعة حتى أنهم يسمونه شيخ الصنعة وأول من سبع السبعة .

ويبين ابن تيمية الدافع الذي حدا بابن مجاهد أن يسبع السبعة اذ يقول: فانه (أي ابن مجاهد) _ أحب أن يجمع المشهور من قراءات الحرمين والعراقين والشام ؛ اذ هذه الامصار الخمسة هي التي خرج منها علم النبوة من القرآن وتفسيره ، والحديث والفقه وسائر العلوم الدينية .

ويقول ابن تيمية: فلما أراد ابن مجاهد جمع القراءات السبع جمعها لسبعة مشاهير من أئمة قراء هذه الامصار؛ ليكون ذلك موافقا لعدد الحروف التي أنزل عليها القرآن، لا لاعتقاده أو اعتقاد غيره من العلماء أن القراءات السبعة (كذا) هي الحروف السبعة، أو أن هؤ لاء السبعة المعينين هم الذين لا يجوز أن يقرأ بغير قراءتهم (٣)

وأرى أن ابن تيمية (عليه رحمه الله) يدفع بكلامه هذا تهمة نسبت الى الشيخ ابن مجاهد ، تلكم التهمة أن ابن مجاهد بعمله هذا أوقع الناس في شبهة ، فظنوا أن القراءات السبع هي الاحرف السبعة في الحديث «أنزل القرآن على سبعة أحرف»

قال الجعبري (ت ٧٣٢) في قصيدته نهج الدماثة :

وأغفل ذو التسبيع مبهم قصده فَزَلَّ به الجمُّ الغفير فَجَهَّلا

⁽١) الفتاوي جـ ١٣ ص ٣٩٠ .

⁽٢) منجد المقرئين ص ٢٧٠ .

⁽٣) الفتاوي جـ ١٣ ص ٣٩٠ وقد نقل هذه العبارة القسطلاني في لطائف الاشارات جـ ١ ص ٨٦ .

وناقضه فيه . ولوصع لاقتدي وكم حاذق قال : المسبع أخطله(١) والحق أنه لا ينبغي هذا القول ، فابن مجاهد اجتهد في جمعه ، فذكر ما وصله على قدر روايته . . .

والحق كذلك أنه ترك كثيرا نما كان عليه الناس في هذه الامصار في زمانه: «الحرمين والعراقين والشام» وكان الخلق يقرءون اذ ذاك بقراءة أبي جعفر، وشيبة وابن محيصن، والأعرج، والأعمش، والحسن، ويعقوب. (٢)

وقد قال أبوشامة (رحمه الله) في المرشد الوجيز: ولقد أخطأ من نسب الى ابن مجاهد أنه قال: ان قراءة هؤ لاء الأئمة السبعة هي التي عبر عنها النبي (صلى الله عليه وسلم) بقوله: أنزل القرآن على سبعة أحرف (٣)... ثم أورد أبوشامة قول أبي طاهر عبد الواحد أبي هشام (٤) ـ الذي جاء فيه:

رام هذا الغافل مطعنا في أبي بكر شيخنا ، فلم يجده ، فحمله ذلك على أن قوّله قولا لم يقله هو ولا غيره ؛ ليجد مساغا الى ثلبه ، فحكى عنه أنه اعتقد أن تفسير معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم : أن تلك السبعة الاحرف هي قراءة السبعة القراء الذين ائتم بهم أهل الامصار ، فقال على الرجل إفكا ، واحتقب عارا ، ولم يخظ من أكذوبته بطائل ، وذلك أن أبا بكر (رحمه الله) كان أيقظ من أن يتقلد مذهبا لم يقل به أحد ، ولا يصح عند التفتيش والفحص .

وعمل ابن مجاهد يعد عملا بارزا في تاريخ القراءات ، ينصفه ابن تيمية لأن الناس ، والقراء أنفسهم ، اختلفوا في تقييم عمل ابن مجاهد ، قال بعضهم : إنه أوقع الناس في شبهة ؛ فقد ظن الجهلاء من الناس بل بعض من له صلة بالعلم بأن القراءات السبع هي الأحرف السبعة والحق ان القراءات السبع والعشر والعشرين والسبعين والسبعائة والسبعة آلاف كلها جزء من حرف أو حرف ، شرح هذه القضية الحتاج الى كلام طويل ، كيف وأن سبع القراءات جزء من حرف ليس حتى سبعة أحرف كيف يكون ، حتى قال بعضهم في أبى بكر بن مجاهد :

⁽١) منجد المقرئين ص ٧١

⁽٢) انظر المعارف لابن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦ هـ) ص ٢٣٠

⁽٣) المرشد الوجيز الى علوم تتعلق بكتاب الله العزيز ص: ١٤٧

⁽٤) هو أبو طاهر البغدادي أحد أعلم الناس بحروف القرآن ، ووجوه القراءات له في ذلك تصانيف منها : كتاب البيان والفصل ت ٣٤٩ هـ (انظر تاريخ بغداد ١١ / ٧ وغاية النهاية ١ / ٤٧٥ وبغية الوعاة ص ٣١٧) (٥) المرشد الوجيز ص ١٤٧ .

وأغفل ذو التسبيع مبهم قصده وكم حاذق قال: المسبع أخطلا

ذلك لأنه لم يبين مراده فأوقع الناس في هذه الشبهة ، ويأتون بسجعة فيقولون عن صنيع ابن مجاهد: هلا بين مراده ؟ ، وهلا نقص العدد أوزاده ؟ ويستدلون على أن من قبل أبي بكربن مجاهد ألف في القراءات ، ولم يقتصر على سبع وإنها جاء بأكثر من خمس عشـرة قراءة ، ويـذكـرون في تاريخ ذلك صنيع أبي عبيد القاسم بن سلام المتوفي سنة ٢٧٤ هـ حيث جمع في كتاب القراءات خمس عشرة قراءة ، وجعل لكل مصر من الأمصار التي أرسلت اليها المصاحف وهي خمسة في رأيه ، اختار من كل مصر ثلاثة قراء ، فصار الجميع خمس عشرة قراءة . ثم جاء بعده أبوحاتم السجستاني البصري المتوفي سنة ٢٥٠ هـ ، وجمع في كتابه القراءات جمع نحوا من عشرين قراءة كلها قراءات صحيحة ، وبهذا ندرك لماذا كانت سبع القراءات جزءا من حرف ، وجاء شيخ المفسرين الطبري وهـومتـوفي سنة ٣١٠ هـ ، وجمع في كتابه القراءات اثنتين وعشرين قراءة ، ثم يأتي أبو بكربن مجاهد ويجمع في كتابه السبعة وهو كتاب يدرس في الدراسات العليا الآن _ يجمع سبع قراءات ، هذا هو الذي أوقع الناس في شبهة ، ووقف الناس مواقف مختلفة من عمل ابن مجاهد بعضهم يقول: الرجل يَسُّرَ علي الناس ، وجمع القراءات التي يسهل حفظها ؛ لأن الهمم كانت تقاصرت في عهده فلم تِعد تستطيع أن تستوعب هذه القراءات أو هذه الوفرة من القراءات أو الكثرة الكاثرة منها فجمع هذه القراءات السبع واقتصر عليها .

وقال ابن تيمية قولة تنصف ابن مجاهد: ان ابن مجاهد نظر في عمله هذا الى أمرين: الأمر الأول: الامصار التي أرسلت اليها المصاحف وعددها سبعة، ثم الحديث الشريف انزال القرآن على سبعة أحرف. ومن هنا نود أن نقول أن رجلين من معاصري أبي بكربن مجاهد ثارا عليه وأعلنا له الخصومة، منهم ابن مقسم العطار ويصحف اسمه فيقال عنه ابن مُقسم العطاء، وإنها هو ابن مِقسم العطار، والرجل الاخر ابن شنبوذ، ولكل منها موقف يختلف عن موقف الأخر ولا داعي للاطالة في شيء من هذا.

ولم يقصد ابن مجاهد أنه لا يجوز أن يقرأ بغير قراءة السبعة الذين اختارهم ، ولهذا قال من قال من أئمة القراء : لولا أن ابن مجاهد سبقني الى حمزة لجعلت مكانه يعقوب الحضرمي امام جامع البصرة ، وامام قراء البصرة في زمانه في رأس المائتين (مجموع فتاوي شيخ الاسلام جـ ١٣ ص ٣٩٠) .

ولم يأت في فتوى ابن تيمية معنى سبعة الاحرف صريحا ؛ بل جاء ضمنيا حيث يقول : ولا نزاع بين المسلمين ان الحروف السبعة التي أنزل القرآن عليها لا تتضمن تناقض المعنى وتضاده ، بل قد يكون معناها متفقا أومتقاربا كها قال عبد الله بن مسعود : انها هو كقول أحدكم : أقبل ، وهلم ، وتعال (1) وهذا المعنى الذي لم يصرح به الامام ابن تيمية قد صرح به أبوشامة المقدسي حيث قال : « ان أهل العلم قالوا في معنى قول عليه السلام : «أنزل القرآن على سبعة أحرف» «انهن سبع لغات» ، بدلالة قول ابن مسعود (رضي الله عنه وغيره) ان ذلك كقولك : هلم وتعال وأقبل. (1)

واذ وقف شيخ الإسلام الإمام ابن تيمية حياته وجهده وجهاده على الدفاع عن كتاب الله ـ نراه يقرر أن القراءات الصحيحة من عند الله وأن الاختلاف الذي بين قراءة وقراءة هو اختلاف تنوع وتعدد ، لا اختلاف تناقض وتضاد (٦) ، « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » (١) ويوضح ابن تيمية ذلك بأن الاختلاف في القراءات المشهورة كالاختلاف الواقع بين المفسرين ، وغالبه يرجع الى اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد (٥)

وضرب ابن تيمية أمثلة لذلك ليؤكد اتجاهه . . كما في القراءات المشهورة : « رَبَّنا باَعِدْ وربُّنا باعَدَ وَبعَد » (١) « الا أن تخافا ألا يقيما » و « الا أن يخافا الا يقيما » (١) هبل عجبتَ وبل عجبتُ » (١) ونحو ذلك .

ثم قال شيخ الاسلام: « ومن القراءات مايكون المعنى متفقا فيها من وجه متباينا من وجه كقبوله: « يخدعون ويخادعون » ، و « لمستم ولامستم » ونحوذلك فهذه القراءات التي يتغاير فيها المعنى كلها حق ، وكل قراءة منها مع القراءة الأُخرى بمنزلة

⁽١) المرشد الوجيز ص ٣٩١ . (٢) المصدر السابق ص ١٤٧.

 ⁽٣) انظر مجموع الفتاوي جـ ١٣ ص ٣٩١ وانظر لطائف الاشارات للقسطلاني جـ ١ ص .

⁽٤) سورة النساء آية ٨٢ .

 ⁽٥) انظر تفصیل ذلك وشرحه في الفتاوي جـ ٦ ص ٥٥ ، ٣٩٠ و جـ ١٢ ص ٦ ، ٧
 وجـ ١٣ ص ٣٣٣ ـ ٣٤٣ و ٣٨١ ـ ٣٨٣

⁽٦) سورة سبأ آية : ١٩ (٧) سورة البقرة آية ٢٢٩

⁽٨) سورة الصافات آية : ١٢

الآية مع الآية يجب الايمان بها كلها ، واتباع ما تضمنته علما وعملا . لا يجوز ترك موجب احداهما لأجل الاخرى ظنًا أن ذلك تعارض ، بل كما قال عبد الله ابن مسعود (رضى الله عنه) : من كفر بحرف منه كفر به كله (١)

بهذه الروح من المحافظة على كتاب الله يمضي ابن تيمية مقررا صحة القراءات المشهورة من فرش الحروف مما يختلف فيه المعنى من وجه ، ويتفق من وجه . . . ثم يعرج على الاصول التي يتنوع فيه الاداء ، ولا يخرجه عن أن يكون متحدا في لفظ ومعناه ، كالهمزات والمدات ، والإمالات ، ونقل الحركات والاظهار والادغام ، والاختلاس وترقيق اللامات والراءات أو تغليظها فهذه الاصول أظهر وأبين في أنه ليس فيها تناقض ولا تضاد (٢)

ويعالج ابن تيمية في فتواه موضوعا يدل على رحابة أفقه ، وسعة علمه ، وصدق بصيرته ، ذلكم في حديثه عن القراءة بهذه القراءات السبع ، وهل يتعين القراءة بها دون غيرها ؟ فيقرر في صدد ذلك (رحمه الله) « أنه لم يتنازع علماء الاسلام المتبوعين من السلف والأئمة في أنه لا يتعين أن يقرأ بهذه القراءات المعينة في جميع أمصار المسلمين ؛ بل من ثبت عنده قراءة الاعمش شيخ حمزة ، أو قراءة يعقوب ابن أبي اسحق الحضرمي ، ونحوهما ، كما ثبت عنده قراءة حمزة والكسائي ـ فله أن يقرأ بها بلا نزاع بين العلماء المعتبرين المعدودين من أهل الاجماع والخلاف ، بل أكثر العلماء الأئمة الذين أدركوا قراءة حمزة كسفيان بن عيينة وأحمد بن حنبل ، وبشر بن الحارث ، وغيرهم يختارون قراءة أبي جعفر بن القعقاع ، وشيبة بن نصاح المدنيين ، وقراءة البصريين كشيوخ يعقوب بن اسحق وغيرهم على قراءة حمزة والكسائي . (٣)

وقد عالج ابن الجزري ذلك الموضوع بتفصيل في كتابه «منجد المقرئين» (٤)، وكتابه «النشر في القراوات العشر» (٥) ومن قبل عرض هذه المسألة مكي بن أبي طالب (ت ٤٣٧ هـ) في كتابه الابانة ، بها يعدَّ أصلا في هذا الباب . (١)

(١) الفتاوي جـ ١٣ ص ٣٩١ (٢) المصدر نفسه جـ ١٣ ص ٣٩٢

⁽٣) مجموع الفتاوي جـ ١٣ ص ٣٩٢ وما بعدها .

⁽٤) انظر ص ٥٤ الباب السادس.

⁽٥) انظر النشر الجزء الاول ص ٤٦ وما بعدها .

⁽٦) انظر الابانة لمكي بن أبي طالب ص ٨٦ - ٩١ تحقيق الدكتور عبد الفتاح اسهاعيل شلبي .

فليست القراءات الصحيحة اذن مقصورة على ما في التيسير للداني، والشاطبية (1) وها هوذا الجعبري يقول: «بلغ جهل أكثر القراء الى انه كان اذا سمع قراءة ليست في هذا النظم _ يقصد الشاطبية _ قال: «شاذة»، وربها ساوت أو رجحت . قلت هذا القائل: انها قال ذلك لقلة اطلاعه على حقيقة هذا الفن، واقتصاره على القصيد، فيزعم أن ما سواه متر وك . . ويتابع الجعبري كلامه فيقول: «وقد ألفت محتصرا لطيف جمعت فيه ست قراءات من الأحرف السبعة الواردة في الحديث من كتب متعددة قرأت بها، وذكرتها في ذلك المختصر، فالقراءات الست عن ستة أئمة وهم:

يزيد بن القعقاع ، وابن محيصن ، والحسن البصري ، ويعقوب ، والأعمش ، وخلف . فاذا قرأ القارئ بها تضمنه هذا القصيد ـ يريد الشاطبية ـ وبها تضمنه المختصر في القراءات الست تحصلت له ثلاث عشرة قراءة عن الأئمة الثلاثة عشر ، وجميعها من الأحرف السبعة الواردة في الحديث . (٢)

وقال ابن تيمية: «ولم ينكر أحد من العلماء قراءة العشرة ، ولكن من يكن عالما بها ، أو لم تثبت عنده كمن يكون في بلد من بلاد الاسلام بالمغرب أوغيره ، ولم يتصل به بعض هذه القراءات فليس له أن يقرأ بها لا يعلمه ، فان القراءة كها قال زيد بن ثابت سنة ، يأخذها الآخر عن الأول . . . وأما من علم نوعا ولم يعلم غيره فليس له أن يعدل علمه الى ما لم يعلمه ، وليس له أن ينكر على من علم ما لا يعلمه من ذلك ، ولا أن يخالفه ، كها قال النبي (صلى الله عليه وسلم) : «لاتختلفوا فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا» . (٣)

ويعود ابن تيمية فيقرر أن ليست هذه القراءات السبع هي مجموع حرف واحد (١) قصيدة نظمها محمد بن فيره الرعيني الاندلسي الشاطبي ت ٥٩٠ هـ ، واعتمد في نظمها على التيسير للداني ، وهي معتمد القراء وتسمى «حرز الأماني ، ووجه التهاني، قال ابن فيره مشيرا الى التيسير في قصيدته الشاطبية :

وفي يسرها التيسير رمت اختصاره فأجنت بعون الله منه مؤملا وسميتها «حرز الأصاني تيمنا ووجه التهاني فاهنه متقبلا (٢) سراج القاريء المبتديء ، وتذكار المقريُّ المنتهي لابن القاصح ص ١٥ وما بعدها .

⁽٣) مجموع فتاوي ابن تيمية جـ ١٣ ص ٣٩٤ .

من الاحرف السبعة التي أنزل القرآن عليها باتفاق العلماء المعتبرين ، بل القراءات الثابتة عن أثمة القراء كالأعمش ويعقوب وخلف وأبي جعفريزيد بن القعقاع وشيبة بن نصاح ونحوهم هي بمنزلة القراءات الثابتة عن هؤ لاء السبعة عند من ثبت ذلك عنده(١)

ويتحدث ابن تيمية عن القراءات الشاذة الخارجة عن رسم المصحف العثماني مثل قراءة ابن مسعود * والذكر والأنثي * (۱) ومثل قراءة عبد الله: «فصيام ثلاثة أيام متتابعات» (۱) وكقراءته: «ان كانت الازقية واحد» (۱) ونحو ذلك اذا ثبت عن بعض الصحابة فهل يجوز أن يقرأ بها في الصلاة ؟

ويـورد ابن تيميـة للإجـابة عن هذا السؤ ال قولين للعلماء هما روايتان مشهورتان عن الامام مالك :

(إحداهما) : يجوز ذلك ، لأن الصحابة والتابعين كانوا يقرءون بهذه الحروف في الصلاة .

(والأخرى): لا يجوز ذلك وهوقول أكثر العلماء؛ لأن هذه القراءات لم تثبت متواترة عن النبي (صلى الله عليه وسلم)، وان ثبتت فإنها منسوخة بالعرضة الأخيرة . والعرضة الاخيرة هي قراءة زيد بن ثابت وغيره، وهي التي كتبت في مصحف في عهد أبي بكر ثم أمر زيد بكتابتها في المصاحف في عهد عثمان، وأرسلت الى الامصار وجمع الناس عليها باتفاق الصحابة . (°)

ويورد ابن تيمية قولا ثالثا ـ هو اختيار جده أبي البركات ـ ، وخلاصته أنه ان قرأ بالقراءات الشاذة ـ مما يخالف خط المصحف ـ في القراءة الواجبة ، وهي الفاتحة عند القدرة عليها ـ لم تصح صلاته ، وان قرأ بها فيها لا يجب لم تبطل صلاته . (١)

⁽١) المصدر السابق ص ٤٠١ .

⁽٢) سور الليل الايات ١ ، ٢ ، ٣ .

⁽٣) سورة المائدة آية : ٨٩

⁽٤) سورة يس آية : ٥٢

⁽٥) الفتاوي جـ ١٣ ص ٣٩٤ وما بعدها بتصرف يسير

⁽٦) المصدر السابق ص ٣٩٨ باختصار

وابن تيمية يقرر أن الاعتماد في نقل القرآن على حفظ القلوب لا على المصاحف فقد جاء في صفة أمة محمد (صلى الله عليه وسلم) أن «أناجيلهم في صدورهم» بخلاف أهل الكتاب الذين لا يحفظونه الا في الكتب ، ولا يقرءونه كله الا نظرا لا عن ظهر قلب (١)

وقد جمع القرآن كله على عهد النبي (صلى الله عليه وسلم) جماعة من الصحابة ؛ روى البخاري في صحيحه بسنده ، ما حدث به قتادة قال : سألت أنس ابن مالك (رضي الله عنه) من جمع القرآن على عهد النبي (صلى الله عليه وسلم) ؟ قال : أربعة كلهم من الأنصار : «أبي بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت وأبو زيد ي قال أنس : أحد عمومتي (")

وهذه حجة نقذف بها في وجه المستشرقين أمثال جولد تسيهر الذي يقول في كتابه «مذاهب التفسير الاسلامي» ما فحواه: ان معظم القراءات نشأ لان المصاحف التي كتبت في عهد عثمان كانت خالية من الضبط والنقط. (٤)

إلى أن هذه القراءات كانت تحفظ وتتلى وتروى قبل أن تكتب المصاحف (٥)

فالقرآن الكريم قد حمله جبريل مسموعا من الله ، والنبي (صلى الله عليه وسلم) سمعه من جبريل ، والصحابة سمعوه من الرسول ، وبلغوه ، وليس لجبريل ولا لمحمد عليه السلام فيه الا التبليغ والأداء . (١)

⁽۱) ابن تيمية جـ ۱۳ ص ٤٠٠

 ⁽۲) فتح الباري بشرح صحيح البخاري جـ ۹ ص ٤٧ وانظر لطائف الاشارات جـ ۱ ص ٤٧

⁽٣) فتح الباري جد ٩ ص ٥٣

⁽٤) انظر مذاهب التفسير الاسلامي ترجمة الدكتور عبد الحليم النحار

⁽٥) انظر رسم المصحف والاحتجاج به في القراءات ص ٤ تأليف الدكتور عبد الفتاح اسماعيل شلبي

⁽٦) انظر الفتاوي جـ ١٦ ص ١٦١ ، ٢٩٨ ـ ٣٠١ ، ٣٠٦ ، ٢٦٠ ٢٦٤ ، ٢٧١ ، ٤١٤ .

احتجاج ابن تيمية للقراءات وتوفيقه بين الأوجه المختلفة منها:

قرأ جمهور القراء: والذي قدر فهدى (1) قدر بتشديد الدال (٢) ، فيحتمل أن يكون من القدر والقضاء ، ويحتمل أن يكون من التقدير والجوازنة بين الأشياء .

قلت (والقائل شيخ الاسلام) هما متلازمان ؛ لأن التقدير الأول يسمى تقديرا ، لأن ما يجرى بعد ذلك يجرى على قدره ، فهو موازن له ، ومعادل له .

قال : وقرأ الكسائي وحده بتخفيف الدال ، فيحتمل أن يكون بمعنى القدرة ، ويحتمل أن يكون من التقدير والموازنة .

قلت (والقائل ابن تيمية) وهذا قول الاكثرين إن القراءتين بمعنى واحد .

(١) توجيه القراءات:

قال تعالى : « يابني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوآتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير » . . . الآية وفيها قراءتان :

احداهما بالنصب فيكون لباس التقوى أيضا منزلا.

وأما على قراءة الرفع فلا . وكلاهما حق .

(٢) في توجيه القراءات . بها يتصل بالناحية العقدية بهل يجوز وصفه تعالى بالعزم ؟

فيه قولان:

أحدهما: المنع كقول القاضي أبي بكر، والقاضي أبي يعلي.

والآخر : الجواز وهموأصم ، فقد قرأ جماعة من السلف « فاذا عزمتُ فتوكل على الله » بالضم .

وفي الحديث الصحيح من حديث أم سلمة : « ثم عزم الله لي » وكذلك في خطبة مسلم : فعزم لي .

وسواء سمي « عزما » أولم يسم فهوسبحانه اذا قدرها علم أنه سيفعلها في وقتها ، وأراد أن يفعلها في وقتها ، فاذا جاء الوقت فلابد من ارادة الفعل المعين ، ونفس الفعل ، ولا بد من علمه بها يفعله . .

(1) سورة الاعلى آية ٣ . (٢) انظر امحاف فضلاء البشر ص ٤٣٧

يفهم من كلام ابن تيمنية أن توجيه القراءات كالتفسير تماما . جاء في تفسير المينزان : جهمور المفسرين على أن المراد به العدل . وعند ابن مجاهد رحمه الله : هو ما يوزن به .

قال ابن تيمية ولا منافاة بين القولين جـ ١٢ / ٢٤٩

(٣) الفتاوي جـ ١٢ ص ٢٥٤ رما بعدها . _ ٣٣ _

« وان كان مكرهم لتزول منه الجبال » و « لتزول » فيه قراءتان مشهورتان بالنفي والاثبات وكل قراءة لها معنى صحيح ...

* * *

وكذلك القراءة المشهورة: « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » . وقرأ طائفة من السلف: « لتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » وكاتباالقراءتين حق ، فان الذي يتعدى حدود الله هو الظالم ، وتاركا الانكار عليه قد يجعل غير ظالم لكونه لم يشاركه .

وقد يجعل ظالما باعتبار ما ترك من الانكار الواجب عليه ، وعلى هذا قوله : « فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون » فأنجى الله الناهين . وأما أولئك الكارهون للذنب الذين قالوا : « لم تعظون قوما » فالاكثرون على أنهم نجوا ؛ لأنهم كانوا كارهين ، فأنكروا بحسب قدرتهم ".

وأما من ترك الانكار مطلقا فه وظالم يعذب ، كما قال النبي (صلى الله عليه وسلم) جد ان الناس اذا رأوا المنكر فلم يغير وه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه وهذا الحديث موافق للآية .

وهنا نرى ان ابن تيمية يضيف الى الاحتجاج باللغة وتوجيه المعنى بها ورد في السنة المطهرة مما يوافق معنى الآية على القراءات المختلفة .

والمقصود هنا أنه يصح النفي والاثبات باعتبارين كما أن قوله: لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة . أي : لا تختص بالمعتدين ، بل يتناول من رأي المنكر فلم يغيره.

ومن قرأ: «لَتُصِيبنَ الله في ظلموا منكم خاصة » أدخل في ذلك من ترك الانكار قدرته عليه وقد يراد بذلك أنهم يعذبون في الدنيا، ويبعثون على نياتهم ، كالجيش اللذين يغزون البيت فيخسف بهم كلهم، ويحشره المكره على نيته الله في نيته الله الله الله الله في نيته الله الله في الله في

والمقصود هنا انه يصح النفي والاثبات باعتبارين ، كما أن قوله : « لاتصيبن السذين ظلموا منكم خاصة » أي لا تختص بالمعتدين ، بل يتناول من رأي المنكر فلم يغيره ومن قرأ :

- 48 -

⁽١) الفتاوي جـ ١٦ ص ٣٠٣

⁽۲) الفتاوي جـ ١٦ ص ٣٠٣

⁽٣) الفتاوي جـ ١٧ ص ٣٨١ ، ٣٨٢

«لتصيبن الـذين ظلموا منكم خاصة» أدخل في ذلك من ترك الانكار مع قدرته عليه . وقد يراد بذلك انهم يعذبون في الدنيا ، ويبعثون على نياتهم ، كالجيش الذين يغزون البيت فيخسف بهم كلهم ، ويحشر المكره على نيته (١)

(٣) الوقف وتوجيه القراءات :

وقد قال تعالى «هوالذي أنزل عليه الكتاب منه آيات محكمات . . . » الآية وجمهور سلف الامة على أن الوقف على قوله «وما يعلم تأويله الاالله» . وهذا هو المأثور عن أبي بن كعب وابن مسعود وابن عباس وغيرهم . (٢)

وروى عن ابن عباس قوله: التفسير على أربعة أوجه: تفسير تعرفه العرب من كلامها ، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته ، وتفسير تعلمه العلماء ، وتفسير لا يعلمه الا . الله ، من ادعى علمه كذب .

وقد روى عن مجاهد وطائفة: ان الراسخين في العلم يعلمون تأويله وقد قال مجاهد: عرضتُ المصحف على ابن عباس من فاتحته الى خاتمته، أقفه عند كل آية، وأسأله عن تفسيرها.

ثم ذكر كلاما في معنى التأويل ومن معانيه: التفسير، ثم الحقيقة التي يؤول اليها الكلام.

قال الامام أحمد في ترجمة كتابه الذي صنفه في الحبس وهو «الرد على الزنادقة والجهمية» فيها شكت فيه من متشابه القرآن ، وتأولته على غير تأويله . ثم فسر أحمد تلك الآيات آية آية ، فبين أنها ليست متشابهة ، بل قد عرف معناها . وعلى هذا فالراسخون في العلم يعلمون تأويل هذا المتشابه ، الذي هو تفسيره ، وأما التأويل الذي هو في الحقيقة الموجودة في الخارج فتلك لا يعلمها الا الله . (٣)

لكن قد يقال: هذا المتشابه الاضافي ليس هو المتشابه المذكور في القرآن ، فان ذلك قد أخبر الله أنه لا يعلم تأويله الا الله ، وإنها هذا كها يشكل على كثير من الناس أيات لا يفهمون معناها ، وغيرهم من الناس يعرف معناها . وعلى هذا فقد يجاب بجوابين :

⁽۱) جـ ۱۷ ص ۳۸۱ ـ ۳۸۳ وانظر جـ ۱۶ ص ۱۵۸

⁽٢) جـ ٣ ص ٥٥

⁽٣) جـ ١٧ ص ٣٨١ ، وانظر ابن قتيبة : تأويل مشكل القرآن في هذه الآية ص ٧٠ ، ٧٢

أحدهما: أن يكون في الآية الكريمة قراءتان: قراءة من يقف على قوله: الا الله ، وقراءة من يقف على قوله: الا الله ، وقراءة من يقف عند قوله: والراسخون في العلم . «وكلتا القراءتين حق» ويراد بالأولى: المتشابه في نفسه الذي استأثر الله بعلم تأويله. ويراد بالثانية: المتشابه الاضافي الذي يعرف الراسخون تفسيره. وهو تأويله.

وهذا معنى التأويل عند مجاهد وهو امام التفسير ، وقد جعل الوقف على قوله : والراسخون في العلم ، فان الراسخين في العلم يعلمون تفسيره ، وهذا القول اختيار ابن قتيبة وغيره من أهل السنة . (١)

والجواب الثاني: ان القطع بان المتشابه المذكور في القرآن هو تشابهها اللازم لها ، وذاك الذي لا يعلم تأويله الا الله ، وأما الاضافي الموجود في كلامهم من أراد به التشابه الاضافي . فمرادهم أنهم تكلموا فيها اشتبه معناه ، وأشكل على بعض الناس ، وأنّ الجهمية استدلوا بها اشتبه عليهم وأشكل ، وان لم يكن هو من المتشابه الذي لا يعلم تأويله الا الله ، وكثيرا ما يشتبه على الرجل ما لا يشتبه على غيره . (1)

الاختلاف في القراءات اختلاف تنوع وتعدد ، لا اختلاف تناقض وتضاد :

الراسخون في العلم يعلمون تأويل المتشابه أي تفسيره . وأما التأويل الذي هو الحقيقة الموجودة في الخارج فتلك لا يعلمها الا الله .

وفي الآيـة كما قلنـا قراءتـان : قراءة من يقف على قوله الا الله . وقراءة من يقف عند قوله : والراسخون في العلم . وكلتا القراءتين حق .

ويراد بالأولى المتشابه في نفسه الذي استأثر الله بعلم تأويله .

ويراد بالأخرى المتشابه الاضافي الذي يعرف الراسخون تفسيره ، وهو تأويله (٢) فمن قال لا يعلم تأويله الا الله ، فأراد مايؤول اليه الكلام من الحقائق التي لا يعلمها الا الله . ومن قال إن الراسخين في العلم يعلمون التأويل فالمراد به تفسير القرآن الذي بينه الرسول والصحابة .

⁽۱) جـ ۱۷ ص ۳۶۷

⁽۲) جـ ۱۷ ص ۳۸۳

⁽٣) جـ ١٧ ص ٣٨١

تقييم بعض اللغويين والوقف في قوله تعالى :

«وما يعلم تأويله الا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به»

مما يحتج به من قال: الراسخون في العلم يعلمون التأويل ، ما ثبت في صحيح البخاري وغيره عن ابن عباس: ان النبي صلى الله عليه وسلم دعا له وقال «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل». فقد دعا له بعلم التأويل مطلقا. وابن عباس فسر القرآن كله ، قال مجاهد: عرضت المصحف على ابن عباس من أوله الى آخره أقفه عند كل آية وأسأله عنها. وكان يقول: أنا من الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويله . (1)

وأيضا ، فالنقول متواترة عن ابن عباس (رضي الله عنها) انه تكلم في جميع معاني القرآن من الأمر والخبر ، فله من الكلام في الاسهاء والصفات والوعد والوعيد ، والقصص ، ومن الكلام في الأمر والنهي والاحكام ما كان يبين أنه كان يتكلم عن جميع معاني القرآن .

وأيضا قول ابن مسعود: «مامن آية في كتاب الله الا وأنا أعلم فيها أنزلت ، وأيضا فانهم متفقون على أن آيات الاحكام يعلم تأويلها ، وهي نحو خمسائة آية ، وسائر القرآن خبر عن الله . وأسهائه وصفاته ، أوعن اليوم الأخر والجنة والنار أوعن القصص ، وعاقبة أهل الايهان وعاقبة أهل الكفر ، فان كان هذا هو المتشابه الذي لا يعلم معناه الا الله فجمهور القراء لا يعرف أحد معناه ، لا الرسول ولا أحد من الأئمة ، ومعلوم أن هذا مكابرة ظاهرة .

وأيضا فمعلوم أن العلم بتأويل الرؤيا أصعب من العلم بتأويل الكلام الذي يخبر به ؛ فان دلالة الرؤيا على تأويلها دلالة خفية غامضة لا يهتدي اليها جمهور الناس بخلاف دلالة لفظ الكلام على معناه ، فاذا كان الله قد علم عباده تأويل الاحاديث التي يرونها في المنام ، فلأن يعلمهم تأويل الكلام العربي المبين الذي ينزله على أنبيائه بطريق الأولى والأحرى . قال يعقوب ليوسف : «وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الاحاديث» وقال يوسف : «رب قد آتيتني من الملك وعلمتني تأويل الأحاديث .

⁽۱) جـ ۱۷ ص ۲۰۲ ، ۱۱۱ ، ۱۱۱

وأيضا فقد ذم الله الكفار بقوله: «أم يقولون افتراه قل فآتوا بسورة من مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين» بل كذبوا بها لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله، وقال: «ويوم نحشر من كل أمة فوجا بمن يكذب بآياتنا فهم يوزعون» حتى اذا جاءوا قال أكذبتم بآياتي ولم تحيطوا بها علما أما اذا كنتم تعملون»، وهذا ذم لمن كذب بها لم يحط بعلمه.

وأيضا فقوله: «لم يحيطوا بعلمه» ، «وكذبتم بآياتي ولم تحيطوا بها علما» ، ذمّ لهم على عدم الاحاطة مع التكذيب ، ولو كان الناس كلهم مشتركين في عدم الاحاطة بعلم المتشابه لم يكن في ذمهم بهذا الوصف فائدة ، ولكان الذم على مجرد التكذيب فان هذا بمنزلة أن يقال: أكذبتم بها لم تحيطوا به علما ولا يحيط به علما الا الله ومن كذب بها لا يعلمه الا الله كان أقرب الى العذر من أن يكذب بها يعلمه الناس ، فلولم يحط بها علما الراسخون كان ترك هذا الوصف أقوى في ذمهم من ذكره . . .

وأمّا اللغويون الذين يقولون ان الراسخين لا يعلمون معنى التشابه فهم متناقضون في ذلك ، فان هؤ لاء كلهم يتكلمون في تفسير كل شيء في القرآن ، ويسعون في القول في ذلك حتى ما منهم أحد الا وقد قال في ذلك أقوالا لم يسبق اليها وهى خطأ .

وابن الانباري الذي بالغ في نصر ذلك القول هو من أكثر الناس كلاما في معاني الآي المتشابهات ، يذكر فيها من الاقوال ما لم ينقله عن أحد من السلف ، ويحتج لما يقوله في القرآن بالشاذ من اللغة ، وقصده بذلك الانكار على ابن قتيبة ، وليس هو أعلم بمعاني القرآن والحديث ، وأتبع للسنة من ابن قتيبة ولا أفقه في ذلك ، وان كان ابن الانباري من أحفظ الناس للغة ، لكن باب فقه النصوص غير باب حفظ الفاظ اللغة .

وقد نقم هو (أي ابن الانباري) وغيره على ابن قتيبة كونه ردّ على ابي عبيد أشياء من تفسيره غريب الحديث ، وابن قتيبة قد اعتذر من ذلك ، وسلك في ذلك مسلك أمثاله من أهل العلم ، وهو وأمثاله يصيبون تارة ، ويخطئون أخرى ، فان كان المتشاب لا يعلم معناه الا الله فهم لا يجترئون على الله ، يتكلمون في شيء لاسبيل الى معرفته ، وإن كان مابينوه من معاني التشابه قد أصابوا فيه ـ ولو في كلمة واحدة ـ ظهر خطؤ هم في قولهم :

ان المتشاب لا يعلم معناه الا الله ، ولا يعلم أحد من المخلوقين ، فليختر من ينصر قولهم هذا أو هذا . (١)

التفاضل بين القراءات:

(أ) _ أورد ابن تيمية الأقوال في تفسير قوله تعالى: «الامقام لكم» في الآية الكريمة:

«واذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا» وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد عسكر بالمسلمين عند سلع ، وجعل الخندق بينه وبين العدو ، فقالت طائفة منهم :

لا مقام لكم هنا لكثرة العدو فارجعوا الى المدينة .

وقيل : لا مقام لكم على دين محمد فارجعوا الى دين الشرك .

وقيل: لا مقام لكم على الاستئان والاستجارة بهم ثم قال: فنفي المُقام الاول أبلغ من نفى المَقَام، وإن كانت قد قرئت بالضم أيضا، فان من لم يقدر أن يقوم بالمكان فكيف يقيم به . (٢)

قرأ السلمي والأعرج وحفص بضم الميم فاحتمل أن يكون مكانا أي لا مكان اقامة ، واحتمل أن يكون مصدرا أي لا اقامة .

وقرأ أبوجعفر وشيبة وأبورجاء والحسن وقتادة وباقي السبعة بفتحها ، واحتمل أيضا المكان أي لا مكان قيام ، واحتمل المصدر أي لا قيام لكم .

(ب) ان هذان لساحران تصويب هذه القراءة بالنقل والسماع والقياس . . . قال رحمه الله ما فحواه: قوله تعالى : «ان هذان لساحران أشكل على كثير من الناس ، فان الذي في مصاحف المسلمين : ان هذان بالألف ، وبهذا قرأ جماهير القراء ، وأكثرهم يقرأ : ان مشددة ، وقرأ ابن كثير وحفص وعاصم «ان» مخففة . قال والاشكال من جهة العربية على القراءة المشهورة وهي قراءة نافع وابن عامر وحمزة والكسائي وأبي بكر عن عاصم وجمه ور القراء عليها . وهي أصح القراءات لفظا ومعنى .

⁽۱) جـ ۱۷ ص ٤١٠ ، ٤١١

⁽۲) جه ۲۸ ص ٤٥١

⁽٣) البحر المحيط جـ٧ ص ٢١٨ .

⁽٤) جـ ١٥ ص ٢٤٨ .

منشأ الاشكال: ان الاسم المثنى يعرب في حال النصب والخفض بالياء وفي حال الرفع بالألف، وهذا متواتر في لغة العرب، لغة القرآن وغيرها في الاسماء المبنية كقوله: «ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك» ثم قال: «فان لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث» وقال: «ورفع أبويه على العرش» وقال: «واضرب لهم مثلا أصحاب القرية اذ جاءها المرسلون اذ أرسلنا اليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث . . . » ومثل هذا كثير في القرآن وغيره.

فظن النحاة ان الاسماء المبهمة المبنية مثل هذين واللذين تجري هذا المجرى وان المبني في حال الرفع يكون بالالف . . . ومن هنا نشأ الاشكال .

وكان أبو عمرو اماما في العربية فقرأ بها يعرف من العربية: «إِنَّ هذين لساحران» وقد ذكر أن له سلفا في هذه القراءة ، وهو الظن به انه لا يقرأ الأبها يرويه لا بمجرد مايراه . وقد روى عنه أنه قال : اني لأستحي من الله أن أقرأ : «ان هذان» وذلك لانه لم ير لها وجها من جهة العربية ، ومن الناس من خطأ أبا عمروفي هذه القراءة ، ومنهم الزجاج قال : لا أجيز قراءة أبي عمرو خلاف المصحف .

ثم ذكر ابن تيمية احتجاج النحاة للقراءة المشهورة :

أ _ بأنها لغة بني الحارث بن كعب .

ب ـ وبأنها لغة بني كنانة .

جــ ولغة لخثعم .

ويسوق الشواهد على هذه اللغات .

ويعلق ابن تيمية بأن بني الحارث هم أهل نجران ، والقرآن لم ينزل بلغتهم ، بل نزل بلغة قريش كها روى عن عثمان بها رواه البخاري في صحيحه (وساق كلمه عثمان في كتابه التابوت) بالتاء .

ويسوق قصة نسخ المصحف من الصحف التي عند حفصة .

ودافع دفاعا موفقاعن وجود غلط في المصاحف التي أرسلت الى الامصار، فالمصاحف وقف عليها خلق كثير ممن يحصل التواتر بأقل منهم، فكيف يتفقون كلهم على «ان هذان» وهم يعلمون ان ذلك لحن لا يجوز في شيء من لغتهم ؟

فاتفاق جميع المصاحف على الغلط ممتنع عادة وشرعا من الذين كتبوا ، ومن عثمان ثم من المسلمين .

وانتهى الى وجوب القطع بخطأ من زعم ان في المصحف لحنا أو غلطا ، وعاد فاستشهد بقولة عثمان «اذا اختلفتم في شيء فاكتبوه بلغة قريش» وبقول عمر لعبد الله ابن مسعود: اقرأ الناس بلغة قريش .

وانتهى الى النتيجة الاتية : وهوما يجب على حد تعبيره ان يقال : انه لم يثبت أنه لغة قريش بل ولا لغة سائر العرب انهم ينطقون في الاسهاء المبهمة اذا ثنيت بالياء ، وإنها قال ذلك من قاله من النحاة قياسا .

ومن زعم أن الكاتب غلط فهو الغالط غلطا منكرا ، فان المصحف منقول بالتواتر وقد كتبت عدة مصاحف ، وكلها مكتوبة بالالف ، فكيف يتصور في هذا غلط ؟

وأيضا فان القراء انها قرأوا سمعوه من غيرهم ، والمسلمون كانوا يقرءون سورة طه على عهد رسول الله وأبي بكر وعمر وعثمان وعلى وهي من أول ما نزل من القرآن.

قال ابن مسعود : بنـواسـرائيـل ، والكهف ، ومـريم ، وطـه ، والانبياء ـ من العتاق الاول ، وهي من تلادى (رواه البخاري وغيره)

وهي مكية باتفاق الناس ، بل هي من أول ما نزل .

وقد روى أنها كانت مكتوبة عند أخت عمروان سبب اسلام عمر كان لما بلغه اسلام أخته وكانت السورة تقرأ عندها .

وقرأ الصحابة في مكة والمدينة والشام والكوفة والبصرة قرءوها بالألف في الصلاة وخارج الصلاة ، ومنهم سمعها التابعون فعامة الصحابة قرءوها بالالف وجمهور القراء أخذوا قراءتهم عن الصحابة أو عن التابعين عن الصحابة .

وحينئذ فقد علم ان الصحابة انها قرءوا كها علمهم الرسول ، وكها هولغة العرب ثم لغة قريبة ، فعلم أن هذه اللغة الفصيحة المعروفة عندهم في الاسهاء المبهمة : ان هذان _ ومررت بهذان بقولها في الرفع والنصب والخفض بالألف _

ومن قال : أن لغتهم أنها تكون في الرفع بالألف طولب بالشاهد على ذلك والنقل عن لغتهم المسموعة منهم نثرا ونظها ، وليس في القرآن مايشهد له .

واستعان على اتجاهه بأقوال للفراء: ألف هذين هي ألف هذا زيدت عليها النون في التثنية كها زيدت النون في الذين في الجمع كها استعان بأقوال الجرجاني وابن كيسان وما جرى بينه وبين اسهاعيل القاضي:

حيث سأل اسماعيل القاضي ابن كيسان عن هذه المسألة فقال: لمّا لم يظهر في المبهم اعراب في الواحد ولا في الجمع جرت التثنية على ذلك الواحد.

فالقياس أن يلحق هذان بمفرده وجمعه في البناء ، فكم تقول : قام هذا وأكرمت هذا ومررت بهذا .

وكذلك هؤ لاء في الجمع فكذلك المبني كما في الاسماء المعربة حيث ألحق مثناها بمفردها ومجموعها من حيث الاعراب في الاحوال الثلاثة ـ رجل ورجلان ورجال ـ

قال ابن تيمية:

وقد يعترض على ما قررناه بأنه جاء أيضا في غير الرفع بالياء كسائر الاسهاء قال تعالى : «وقال الذين كفروا ربنا أرنا الذين أضلانا من الجن والانس» ولم يقل : اللذان أضلانا ، كها قيل في الذين أنه بالياء في الاحوال الثلاثة . وقال تعالى : في قصة موسى : «اني أريد أن أنكحك احدى ابنتي هاتين» ولم يقل هاتان .

وفي اختصار لرده على هذا الاعتراض ، أقول: الاصل في التثنية الالف وعلى هذا يكون في اعرابه لغتان جاء بها القرآن: تارة بجعل كاللذان وتارة يجعل كاللذين، ولكن في قوله: «احدى ابنتي هاتين» كان هذا أحسن من قوله: «هاتان» لما فيه من اتباع لفظ المثني بالياء فيها . . وأما قوله: «ان هذان لساحران» فان مجيئه بالالف أحسن في اللفظ من قولنا: ان هذين لساحران ، لأن الالف أخف من الياء ولأن الخسر بالألف فاذا كان كل من الاسم والخبر بالألف كان أتم مناسبة وهذا معنى صحيح ، وليس في القرآن مايشبه هذا من كل وجه وهو بالياء .

وحينئذ فهذه القراءة هي الموافقة للسماع والقياس ولم يشتهر ما يعارضها من اللغة التي نزل بها القرآن والله أعلم(١)

الاحتجاج بالشاذ من القراءات: احتج أكثر العلماء بالقراءات التي صحت عن بعض الصحابة مع كونها ليست في مصحف عثمان (رضي الله عنه) ، فانها تضمنت عملا ، وعلما وهي خبر واحد صحيح فاحتجوا بها في اثبات العمل ، ولم يثبتوها قرآنا ، لأنها من الأمور العلمية التي لا تثبت الابيقين . مثال ذلك القراءة في قوله تعالى :

(١) جـ ١٥ ص ٢٤٨ ص ٣١ وما بعدها . وانظر في هذا تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة .

هذا صراط علي مستقيم *
 هذا صراط عَلي مستقيم * (قراءة قتادة ويعقوب)

والتوفيق بين القراءتين : صراط علي أي رفيع ، قال البغوي ، وعبر بعضهم عنه : «رفيع أن ينال ، مستقيم أن يهال» .

وأما على القراءة المشهورة فقد ذكر ابن تيمية ما أورده أبو الفرج الجوزي من أقوال منها:

أ .. هذا (أي الاخلاص) والمعنى والاخلاص صراط اليَّ مستقيم وعليَّ مستقيم بمعنى اليَّ .

ب _ هذا صراط على استقامته أي أنا ضامن لاستقامته بالبيان والبرهان قال وقرأ قتادة ويعقوب : هذا صراط علي أي : رفيع .

أيها الأخوة ، أري ساعتي تشير عقاربها نحوتمام الساعة الثانية عشرة واذن قد أخذت المحاضرة زمنها المقسوم ، وقد كنت أغرف من بحر ابن تيمية ، وعليَّ بعد ذلك التعليق والتنظيم ، تبويب واصدار الاحكام ، وأني لشلي أن يصدر حكما على ابن تيمية ، وكان من المقرر في المحاضرة أن أتحدث عن الدراسات اللغوية والنحوية وهي عند ابن تيمية فيض موّار ، وأستأذنكم في وقت آخر لنجعله للناحية اللغوية أو الدراسات اللغوية والنحوية عند ابن تيمية . ان أذنتم أو سمحتم فان لم يكن في تلك اللمحة ما يقنعني ويقنعكم ، فحسبي وحسبكم ، ورحم الله ابن تيمية وأثابه خيرا على نشره فقه كتاب الله وسنة رسوله ، وعلى حرصه على الدفاع عن عقيدة السلف الصالح ، وألحقنا به في عقيدته على خير والسلام عليكم ورحمة الله .

د/ عبد الفتاح اسهاعيل شلبي أستاذ الدراسات القرآنية اللغوية

نزعة العالمية

د. صالح جمال بدوي

القيت في يوم الاثنين ٥ / ٣ / ١٤٠٣ الموافق ٢٠ / ١٢ / ١٩٨٢ م، وكان قرىء جزء منها في الندوة العالمية للادب الاسلامي بلكنو الهند (١١ - ١٣ جادي الثانية ١٤٠١) .

نزعة العالمية

ملخص

هذا العمل يحاول أن يوجه الاهتهام الى قضية من أهم هموم العصر وأبرز قضاياه : مفهوم التدفق الحرّ ، ومنه الموجة للمعلومات بين الشرق والغرب :

"The concept of the free flow of information"

ويتوصل الى ذلك باستعراض سريع لدور وسائل الاتصال الحديثة في تحقيق تقارب لم يسبق له مثيل بين البشرية ، وترويج مفاهيم فكرية موحدة في أقطار الدنيا .

ويعنى على وجه الخصوص بموضوع سيادة «الادب العالمي» بمفاهيمه ونهاذجه وقيمه الفنية وغير الفنية ، والتي تستمد حيويتها وأفكارها من بيانات (منافستو) الشرق أو الغرب (بأيديولوجياته) وفلسفاته الوضعية المادية ، مما هو بمثابة غزو مباشر لقلب المجتمع الاسلامي وسمعه وبصره ، وتحد وتهديد لخصوصية تراثه وتصورات هذا التراث .

نزعة العالمية:

أكبر قوة تحد تجابه المجتمعات اليوم بها تعني من انتشار وسيطرة اتجاهات وأفكار مذهبية ، لها صفة الاغراء والاستعلاء ، على مايكون في مقابلها من اتجاهات وأفكار لها طابع المحلية أو الاقليمية . وتأثيرات هذا الغزو تسلب الامم والشعوب خصائصها وقيمها وثقافاتها .

وتجنب هذا أو الانغلاق دونه أمر متعذر ومحكوم على نتائجه بالفشل في مثل هذا العصر الذي أصبح فيه العالم كما يقولون «أصغر من قرية صغيرة» بفضل ما هيأ الله للبشرية من تقدم تكنولوجيا وسائل الاتصال التي قضت على البعدين الزماني والمكاني، وفرضت حتمية التواصل بين الشعوب.

فقد وسع التقدم الطباعي الهائل والتطور (الالكتروني) في الاتصال السلكي والسلاسلكي أو الفضائي، ووسائط النقل السريع، من انتشار الرموز الثقافية وتعدد أنهاطها. ولم يعد اليوم لوسائل الاتصال التاريخية ذلك الدور الحاسم بعد هذا التقدم العام في وسائل الاتصال المباشر وغير المباشر والفردي والجهاعي أو الجهاهيري، المتمثل في وسائل الاعلام ونقل المعارف من اتصال:

١ ـ سمعي : كالمذياع والهاتف وأدوات التأثير الصوتي الموسيقية والتلغرافية . . الخ .
 ٢ ـ بصري : كالمنتجات الطباعية وفيها المنقولة عبر الفضاء (بالتلكس أو التليبرنتر أو الفاكسيميلي) (١) : الكتب والصحف والمجلات والوثائق والرسوم والملصقات . . الخ ٣ ـ سمعي وبصري كالتلفاز والسينها والفيديو (١) .

وقد يحسن أن نشير الى وسائل الاتصال بقسمين على سبيل الاجمال : أد الطباعة . ب الاتصال الكهربائي .

أوكما قسمها بعض العلماء الى وسائل اتصال باردة ووسائل اتصال حارة ،

(١) نجحت مؤسسة التكنولوجيا الالكترونية بألمانيا الغربية في وضع نهاذج لجهاز فاكسيميلي جديد يكون الورقة المنقولة خلال أربع ثوان فقط . يستغرق ارسال صفحة بالحجم القياسي حاليا مابين دقيقتين وثلاث . (٢) أنظر د. عواطف بياري : «الاتصال الثقافي والنمو الحضري» ص ٢٦ ـ ٧٩ ، وحسين حمدي الطوبجي مواضع متعددة .

فالوسائل الباردة ، مثل التلفون والتلفزيون والكرتون ، تمد أكثر من حاسة عند الانسان وتتطلب قدراً عاليا من المشاركة والاكهال ، والوسائل الحارة : المذياع ، السينها ، الطباعة ، الصورة . . . تمد حاسة واحدة وتعطيها (وضوحية عالية) أي تحمل كمية كبيرة من المعطيات وتتطلب من ثم كمية مشاركة ضئيلة من المتلقى (١) وتتضح القدرة التأثيرية الكبيرة لوسائل الاتصال الحديثة في مدي ما حققته من تقدم في الاتصالات (الالكترونية) واستخدام الاقهار الفضائية ، ثم في مقارنة هذه الوسائل وهي في مجموعها وسائل جمعية أو جماهيرية ، بوسائل الاتصال التاريخية المباشر منها أو الشخصي وغير المباشر . حيث تتفوق الوسائل الحديثة :

- ـ بالسرعة الفائقة أو بالمزامنة .
 - ـ وبقلة التكلفة .
- وبقابلية المعلومة للبقاء ، مرئية ومسموعة .
 - ـ وبسهولة نقلها وانتشارها انتشارا واسعا .

فان الحدث اليوم ينتقل بتفصيلاته وجزئياته لحظة حدوثه الى كل أجزاء المعمورة عبر شبكات ذات امكانيات ضخمة وسلطان واسع كوكالات الأنباء العالمية وغيرها من أجهزة الدعاية والاعلام . وتسيطر الدول الصناعية الكبرى على دورة المعلومات بهيمنتها على مؤسسات الانتباج والرصد والتجميع والمعالجة وقنوات البث (") ويصاحب الطاقة الاتصالية المائلة لهذه الشبكات المقدرة الايصالية الماثلة التي تعني القدرة على تحقيق الاقناع والاستهواء ، أيا كانت الوسائل اليها ، أما الطاقة المتحققة للتوسع والانتشار فتكشف عنها احصائية سريعة لسعة دائرة التوزيع .

تقول التقديرات التي سجلها كتاب «جينيس» (٣): ان نحو الدور التقديرات التي سجلها كتاب «جينيس» (٣): ان نحو المدور ١٥٠٠،٠٠٠) ألف مليون متفرج شاهد على شاشات التلفزيون نقلا حياء على الهواء أو مسجلا للمباريات (الأولبية) في دورتها العاشرة ودورتها الحادية عشرة عامي ١٩٧٧ و ١٩٧٦ من ميونيخ ومونتريال ومثل هذا العدد شاهد زيارة بابا النصارى جون بول الثاني لايرلندا في ٢٩ سبتمبر ١٩٧٩ وقدر عدد من شاهد

⁽١) مارشال ماكلوهان «كيف نفهم وسائل الاتصال» ص ٣٣.

⁽٢) تشير التقديرات الى أن نحو ٩٠ ٪ من مجموع المعلومات عما يسمى بالعالم الثالث تنتشر في أنحاء العالم عن طريق خس وكالات أنباء كبرى من البلدان الصناعية . وما تزال الدول النامية تكافح عن طريق الإتفاقات الثنائية أو بواسطة المنظمات والمؤتمرات الدولية لكي تتاح لها الفرصة لتنمية طاقاتها ، والمشاركة في عملية نقل المعلومات على المستوى العالمي . وانظر : د. محمد عبده يماني (أقمار الفضاء غزو ثقافي واستعمار جديد) محاضرة في كتاب اللجنة الثقافية العامة بجامعة أم القرى ، جـ ٢ ص ٣ وما بعدها .

⁽٣) اصدار عام ۱۹۸۲ ، ص ۲٤٩ .

مسلسلا من فيلم (دالاس) المعروف بنحو ٨٣ مليون مشاهد في نفس الساعة في الولايات المتحدة (١)

ولكل من هذه المناسبات دلالتها الدينية والاجتماعية بل والساسية التي تهيمن اليوم على واقع الدين والخلق والثقافة ، ونخص بالمثال ماهو معروف من وثنية نشأة الاولمياد (٢)

ووسائل الاتصال عامة هي امتداد ، فائق الفاعلية والتأثير ، لحواس الانسان ونظامه العصبي (= الانسان الكهربائي) . وما فتئت المجتمعات تتشكل حياتها وتتغير أنهاط سلوك الناس فيها تبعا لكل تطور في عالم الاتصال ، فالقوة التأثيرية المغيرة تكمن في الوسيلة نفسها والمضمون شيء يضاف اليها . ومن هنا يظهر خطأ الانسياق وراء القول بحيادية الوسيلة ، وان طريقة الاستخدام هي التي تحدد قيمتها من الخير أو الشر .

الضوء في حد ذاته يكشف عن عالم كامل من المعاني والمدلولات التي لاتلبث أن تختفي حينها ينطفيء . فالضوء هو الرسالة والواسطة أو الوسيلة معا ، وهو اعلام بلا معتوى . . . وتضاف الى الضوء وسيلة أخرى فتعطي مدلولا اضافيا : اللون كها في اشارات المرور الضوئية ، وتكثيف الضوء في آشعة ليزر وغيرها . وهذا يؤكد فكرة أن «الموسيلة هي الرسالة» ذلك أن الوسيلة هي التي تشكل وتتحكم في مقياس نشاط الناس وعلاقاتهم بعضهم ببعض . وتأثير الوسيلة يقوى ويشتد باضافة وسيلة أخرى هي المضمون . ان مضمون الفيلم مشلا هو قصة أو مسرحية أو أوبرا ، ولكن تأثير الفيلم لا علاقة له بمضمونه . ولابد ، على هذا ، من دراسة الطبيعة الخاصة للوسيلة ذاتها وللقدرات التأثيرية لها والقالب الثقافي الذي تعمل في داخله . فمضمون أي وسيلة معينة تعني دائها وسيلة أخرى ، أمنا ذلك المضمون التقليدي (نوع الافكار) فشيء آخر . والآثار الاجتاعية والنفسية لوسائل الاتصال ذاتها لاتقل

⁽١) وعلى نحوذلك احصائيات توزيع الصحف العالمية :

فقد بلغ عدد الصحف الصادرة باللغة الانجليزية في الولايات المتحدة في احصاء يوم ١ أكتوبر ١٩٧٩ - ١٩٧٩) جريدة اليومية الوطنية اليابانية (١٩٧٩) جريدة تبيع في مجموعها ٥٠٠ (٢٨٠ ر٣٦ نسخة يوميا . وتوزع (الريدر دايجست) العالمية في «يوميسوي شم بن» نحو ١٤ مليون نسخة صباحية ومسائية يوميا . وتوزع (الريدر دايجست) العالمية في اصداراتها الاربعين بست عشرة لغة ٥٠٠ (٥٧٥٠ نسخة شهريا (جينيس ص ٢٧٧) .

⁽۲) انظرد. ثروت عكاشة: «الاغريق بين الاسطورة والابداع» ص ٤٢ ـ ٣ .

في قوتها عن آثار المضمون الذي تحمله (1). وقد تميزت معطيات العصر الحاضر من الفنون والآداب بالاتجاه الى تركيز العناية على الوسيلة ، وتحميلها قدرا كبيرا من المعاني والصور والمدلولات بحيث أصبح البحث عن الوحدة الموضوعية في شكلها القديم في العمل الفني أمرا في غاية التعقيد لأن العمل أصبح يقصد به تحقيق أكثر من هدف ، وليس للهدف أو المغزى العام أهمية كبيرة في تأدية الرسالة .

يورد ماكلوهان عن بابا النصاري بولس الثاني عشر قوله في خطاب يوم ١٧ فبراير . ١٩٥٠ :

«ليس من المبالغة أن نقول أن مستقبل المجتمع الحديث واستقرار حياته الداخلية يتوقفان الى حد كبير على المحافظة على التوازن بين قوة تقنيات الاتصال وقدرة كل فرد على الاستجابة لها» (٢) ونستطيع أن نفهم هنا لماذا اقترح المؤرخ أرنولد توينبي جادا الأخذ بتعليم الكبار كتحصين ضد وسائل الاتصال (٣)

وتأثير هذه الوسائل في صهر المجتمع في اطار واحد يؤدي الى نتيجة أن تصدر المعطيات الفكرية عن مبدأ واحد وهو بالضرورة مرتبط بالسائد عالميا . وأن صدام المبادئ والقيم في الشرق مع عقلانية الغرب أو تكنولوجيته ، أمر محتوم لاتقوى الاوضاع الراهنة للمجتمعات النامية على مقاومة تأثيراته . فقد أغرقت تكنولوجيا الغرب والشرق الناس في لجمج من التصورات والتغيرات لم يتهيأ لها . ويرى توينبي أن المدخرات الثقافية والروحية التي يمكن للحضارات الشرقية أن تصونها أمام تكنولوجيا الغرب لن تجديها نفعا . فتأثير التكنولوجيا لايظهر على مستوى الافكار والتصورات (في أول أمره) ولكنه يغير أبعاد الشعور وأنهاط الادراك شيئا فشيئا (1).

وقد أدت وسائل الاعلام الحديثة الى اختلاط الثقافات القديمة والحديثة والجيدة والرديئة ، والغت بقدر كبير حدود الخطاب الفئوي . فهذا الفيض المتحرك من الناخج التي لاحصر للمعلومات فيها ، يتلقاه المثقف والمتعلم ونصف المتعلم والامي ، والنتيجة الطبيعية للانقياد له الانهيار العقلي (ه) .

⁽١) قابل : «كيف نفهم وسائل الاتصال» ص ١٨ ، ٢١ ، ١٣٩ .

⁽٢) (السابق) ص ٣١ .

⁽٣) (السابق) ص ٢٩ .

⁽٤) (السابق) ص ٢٩ :

⁽٥) قابل (السابق) ص ٢٧ .

وبصفة عامة فان وسائل الاتصال الحديث هذه مكنت لمفهوم التدفق أو الانتشار الحرّ للمعلومات الذي يجري غالبا لصالح أمة بعينها دون غيرها ليعم بلواه الجميع (١)

وتمثل الحرية في هذا المهوم شقا من السياسات التي تصدر عنها أجهزة الاعلام العالمية في بثها الدعائي والاعلامي والثقافي متحررة من أي قيد أوضابط والشق الثاني من سياستها هو الذي تمليه عليها النوازع الاستعارية والايديولوجية الخاصة بها فتسرّب منها ماتسرب وتمنع ماتمنع . هذا الى أن الاتصال الحديث ليس طوعيا فحسب ، فهناك أنهاط اتصال جبرية أو شبه جبرية . ومنها الاتصال ابان الحروب أو مراحل الاستعمار القديم والحديث وقد أدى هذا الاتصال الحديث دوره في تحقيق مقارب لم يسبق له مثيل بين البشرية وفي صياغة فكر عالمي مفروض عليها غالبا ، اذ جانس بين البيئات وأصبحت البشرية تحت ضغطه ، تتنفس في أجواء متقاربة أرادت أم لم ترد .

فأصبحت مشكلات البشرية وقضاياها محور اهتهام المجتمعات التي تعايش هذه القضايا والمشكلات لحظة بلحظة وقام عامل «التنافذ الثقافي» (٢) بدوره في تحقيق التزاوج بين الثقافات وفي التلاقح الفكري . وامتد أثر هذا الاتصال الى السيطرة تماما على أنهاط التفكير ووجهته ، فأصبحت ردود فعل الناس تجاه القضايا والمشكلات خاضعة هي الأخرى للنمط السائد من التفكير (٣) .

وراجت في مجتمعات الدنيا جملة فهوم ومصطلاحات ذات سمة عالمية . وازدهر مفهوم «النزعة العالمية» في الأدب والثقافة . وتحت ضغط هذه العالمية نشأ أو ازدهر مايسمى «باللغة العالمية» و «بالرأي العام العالمي» في السياسة والاخلاق وفي الثقافة وفي مناهج البحث ، وما يسمى «بحيوية تقارب المصاير» «والاخاء التكنولوجي» «واخاء الفنون» . وتنمو في اطار هذه العالمية الكثير من المفاهيم واتفاقيات التعامل الجمعية والثنائية التي تخدم تقارب الشعوب والحكومات وتعمل على تحقيق تلاقيها ببعضها باسم العون تارة أو تبادل المنفعة والمصالح تارة أو الاستغلال والقهر ثالثا .

⁽١) انظر في ذلك : د. فؤاد عبد السلام الفارسي «قضايا سياسية معاصرة» ص ٢٧٤

⁽٣) يراد بالتنافذ الثقبافي : ما يحدث من تناضح بارز بانتقال ملامح ثقافية بين الامم المتجاورة حيث تقتبس المجموعة الضعيفة من الاخرى عادة مما ينجم عن العناصر الدخيلة عليها ضياع (عابر) في شخصيتها ، ثم من بعد ، اعادة تنظيم العناصر القديمة وإغناؤها بالمقتبسات ، وظهور بنية جديدة مبتكرة _ جبور عبد النور (Acculturation) والمعجم الادبي، ص ٨١ . ويعرف ذلك في الدراسة المقارنة باسم التثقيف (Acculturation)

⁽٣) الطبقة الوسيطة منها على الاخص .

وعلى الصعيد الدولي المنظم أصبح لمنظمة الامم المتحدة بوكالاتها وهيئاتها الدور المشهود في عوامل التغيير الثقافي بمفهومه الواسع رسميا على مستوى العالم. فهذه منظمة (اليونسكو) تنشر في العالم كله معارف في العلوم والاداب والفنون ترتد الى أصول (وأيديولوجيات) معينة. ومن ذلك الاعراف والمواصفات والقوانين الدولية المصطلح عليها باتفاق تلقائي أو تعاقدي ، والانظمة الاقتصادية والدستورية والادارية التي هيمنت على العالم ، وكان لها تأثيرها العميق في الثقافة وفي مناهج التربية والتعليم في كثير من البلدان.

ومن طبيعة الامور أن ينمومع هذا ميل كبير الى التسامح والتفهم هما في كثير من واقع الأمر تنازل وتسليم لانها مفروضان بقدر أكبر على الجانب الاضعف: المتلقي. فقد شاع بين الامم المختلفة قبول حلول التسوية الوسطية (Compromises) مع الاستعار الجديد والقوى الماركسية العالمية . حتى في أخطر القضايا ، وبها لايتفق مع مباديء هذه الامم ومثلها . وليس ذلك لمجرد الرغبة في مسايرة الفكر المعاصر ، وانها يكون أيضا بدافع الضرورة لتلبية الحاجات الذاتية الآنية وغير الآنية لهذه الامم وهكذا تحقق شبه اتفاق غير معلن أء تراض بقبول جملة مفاهيم ومباديء في شئون الحياة وقضاياها الكبرى في مجالات تمس العقيدة والفكر ، والثقافة والاخلاق . وهذا ما يعنينا هنا . فقد تبنت المجتمعات مفاهيم أو تصورات واحدة أو متقاربة في الفنون ما يعنينا هنا . فقد تبنت المجتمعات مفاهيم أو تصورات واحدة أو متقاربة في الفنون والقيم المعنوية ومنها القيم الخلقية التي تتناول مدلول الدين والفضيلة أو الالحاد والرذيلة ، والصدق أو الكذب ، والحسن أو القبح والعيب . وأخذت هذه المجتمعات تتناقل فيها بينها افرازات العقول والأخيلة والمشاعر بها تحمل من أفكار (وأيديولوجيات) ومذاهب تحكم شئون الحياة وترسم طرائق تناولها .

والنتيجة التي ساقت اليها هذه النظرة الواسعة للمجتمع الدولي والانفتاح على أفكار العصر التي فرضها منطق الحضارة الحديثة - أنها عرضت المباديء والقيم التراثية الخاصة للاصطدام ببعضها وبالتراث العام . ومهدت لالغاء أوليات وأولويات المباديء القائمة على التدرج البيئي من البيئة الصغير للاسرة الى بيئات الوطن والقومية وديانة الامة ، فالانسانية عامة من بعد ، وأخذ كثير من القوميات يفقد مميزاته

وتسزوي لغته (۱) وثقافته ، وتداعي كثير من سيات الشخصانية (۱) أو الهويّة الذاتية لمختلف شعوب الارض . وتحت ضغط التأثير المستمر لحالة العصر ضوّل شأن عامل الانتهاء أو ما يسمى «بالحركة المكتسبة» من ثقافة الشعب الخاصة في تاريخه ؛ بمعنى تأثير الماضي في الحاضر . وهو الدافع الموجه (Momentum) الذي أشار اليه تين في حديثة عن تأثير البيئة (۱) وعبّر عنه اليوت في قوة وحماس .

ولما كان هذا الضغط العالمي يشمل فيها يشمل الثقافة بها تحمل من مباديء ومعايير ، فلنا أن نتصور مدى التأثير والخلخلة اللذين أصابا ويصيبان البنيات الدينية والاجتهاعية والثقافية للمجتمعات والافراد من هذا التواصل . ذلك أن هذه الافكار سرعان ماتنتشر في كل جهات الدنيا ، مع الاعتراف بها تصادف من اقبال ورواج . فاذا ما أدركنا أن هذا الضغط انها هو امتداد لحركة الاستعمار القديم يجيء اليوم في أخطر صورة أدركنا أي خطر يحيق بأمم الارض .

وأقرب مثال من غير عالمنا العربي لما يحدثه هذا المدّ العالمي من تحولات في المجتمعات ، سوء الأوضاع القائمة اليوم في الدول الاشتراكية . والوضع الجديد لالمانيا الغربية بالذات في ظل (الديمقراطية) الحديثة بالمقارنة بالوضع الذي كان قائبا إبّان الحكم النازي . وهذه قضية عالجها الفيلسوف الالماني بورجن هابرماس في كتاب وضعه عن «نظرية الاتصالات الحديثة» وأوضح فيه مدى تأثير الاتصالات بين دول العالم - في مختلف المجالات - على الفكر المعاصر ، حيث أكد أن الانظمة الاقتصادية والادارية التي غزت العالم في الوقت الحاضر لها علاقة بوسائل التربية والتعليم .

⁽١) يقدر العلماء عدد اللغات التي اختفت اليوم بنحوثك ماكانت عليه خلال القرن الثامن عشروهي في تناقص مستمر بفعل وسائل الاتصال انظر: «the man-mode word, P. 248»

⁽٢) أنظر لمدلول المصطلح: د. محمد عزيز الحبابي (محاولة تحديد «شخصانية» اسلامية) في «الى طه حسين . . . » ص ١٥ وما بعدها .

⁽٣) انظر غنيمي هلال «الادب المقارن» ص ٥٩.

وقد أصبحت قضية الـذاتيـة الثقـافيـة محور عدد كبير من المؤتمرات الدولية (١٠٠٠ والاعمال العلمية . لعل أبرزها المؤتمر الدولي الثاني لليونسكو الذي عقد بالمكسيك في الفترة من ٢٦ / ٧ - ٦ / ٨ / ١٩٨٢ وموضوعه السياسات الثقافية . فالى جانب الموضوعات المطروحة في هذا الخصوص ، كان هناك النداء الذي وجهه وزير الثقافة الفرنسي جاك لانج(٢) _ وباريس فرنسا توصف عادة بأنها عاصمة النور والفن والثقافة _ وطالب فيه بوقف مدّ الغزو الثقافي الامريكي في العالم . وقد قال فيه ان معظم البرامج التلفزيونية التي نراها ، منتجة بشكل معين ومواصفات خاصة بحيث تذوب أثرها ثقافتنا الوطنية لتقوم مقامها طريقة وحيدة للتمتع بالحياة يؤمل لها أن تعم العالم كله (٢) . وعلى أساس فكرة الوزير هذه بني (ايودس) أفكار كتاب جديد له ، يعد أول تحليل شامل للسياسة الثقافية الامريكية . حيث يوضح المؤلف: ان حجم (الايديولوجية) يتحدد بجانب حجم الاقتصاد والسياسة والدبلوماسية. والفكرة الاساسية في الكتاب تدور حول الربط بين (المثالية الامريكية) كما ظهرت للعالم منذ الشورة ، والانتشار الثقافي . فالولايات المتحدة وهي تفرض منطق حضارتها تعتبر نفسها المسرح الذي يجب أن يصل اليه الانسان حيث يجد هناك العلم والفضيلة والحرية والسعادة والنصر، وقد أسهم في نشر هذه الافكار عن الولايات المتحدة رؤ ساؤ ها ابتداء من مؤسسيها حتى اليوم.

⁽۱) منها على الصعيد العربي (ندوة الخبراء الحكوميين للسياسات الثقافية في الدول العربية) التي توصلت بعد اجتماعات أسبوع . في ٢٩ نوفمبر ١٩٨١ الى عدد من التوصيات وكان من محاورها : حماية الهوية الثقافية العربية ـ جريدة الندوة السنة ٢٤ العدد ٢٩١٤ يوم الاثنين ١١ / ٢ / ٢ / ١٤٠٢ . وكذلك القضايا المهزومة في المجتمعات الدولية لما سمى (بالحوار بين الشهال والجنوب) .

⁽٢) · أنظر أيضا وقائع الحوار التي أجرته مجلة «اليهامة» (السنة ٣٠ العدد ٧١٦ في ١٣ ـ ١٩ ذي القعدة ١٤٠٢) ص ٢٨ ـ ٣٠ مع الفيلسوف الفرنسي المسلم جارودي حول كتابه :

Roger Garaudy , Promesses de l' Islam.

⁽٣) انظر (الاربعاء) ملحق جريدة المدينة السنة ٤٦ العدد ٤٧٥٤ في ١٩ ربيع الثاني ١٤٠٣ / ٢ فبراير ١٩٨٣ ص ٤.

والفكرة الثانية في الكتاب توضح كيف عمل رؤ ساء الولايات المتحدة على ايجاد ربط بين السياسة والثقافة وفقا لما جاء في الميثاق الامريكي ، والخاص ببند تصدير الثقافة . هذا بالاضافة الى تقدم الولايات المتحدة في الاتصالات الالكتر ونية بها ساعدها على اقامة شبكة عالمية تبث من خلالها اعلامها الى مختلف دول العالم . فبعد أن كانت الولايات المتحدة «بنك العالم» أصبحت اليوم «ذاكرة العالم» .

كما يركز المؤلف في كتابه على الدور الذي لعبته وكالات الانباء الامريكية خلال العشر السنوات الماضية حيث انها استطاعت أن تلغي التفرقة بين الاعلام والثقافة ، فبدأت تبث برامج اعلامية ثقافية من خلال الاعلام السياسي ، بجانب الدور الذي تقوم به المخابرات الامريكية .

ويحذر المؤلف في نهاية كتابه دول العالم المختلفة من توسع وانتشار الثقافة الامريكية ، وضرورة الحدّ منها ، بعقد العديد من المشاورات لوضع خطة متفق عليها لتبادل الافكار (والتكنولوجيا) وتبادل الدارسين والباحثين في المجالات الثقافية بين أمريكا والدول الأخرى (١).

واذا ما أضفنا نحن نصيب الشريك الاوربي في الهيمنة الثقافية للمعسكر الغربي الرأسالي والند الشرقي بعنفوانية مبادئه وأهدافه في تصدير «الثورة العالمية» أدركنا أي وضع قاتم ينتظر غفلة منا . . .

ومن أبرز اتجاهات الوعي في هذا السبيل اقامة المنظمات والمؤتمرات والمراكز الاقليمية والقطرية على مستوى البوطن الواحد أوعلى مستوى الامة ، كمنظمة المؤتمر الاسلامي ، وهي أكبر المنظمات الاسلامية ويتبعها عدد من الأجهزة والمؤسسات منها: المنظمة الاسلامية للتربية والعلوم والثقافة (ايسيسكو) والمؤسسة الاسلامية للعلوم والتكنولوجيا والتنمية ، ووكالة الانباء الاسلامية الدولية ، ومنظمة اذاعات الدول الاسلامية والمركز الاسلامي للتاريخ والفنون والثقافة الاسلامية وبنك التنمية الاسلامي

(١) هذا هو الحل في نظر المؤلف. وهذا هو تحليله للقضية نقلناه بنصه من تقرير لوكالة أنباء الشرق الاوسط. فان يقصد بهذا التبادل الافادة من تجارب الشعوب الاخرى ومن خصائص حضارتها ، فان لدى الحضارة الاسلامية الكثير مما تقدمه لانقاذ الانسانية واسعادها بشموليتها وثوابت قيمها وقداسة أصولها ، واستعلائها على العصبيات والقوميات والاوطان المحدودة بحواجز مصطنعة . وقد ظهر مؤخرا عرض موجز لهذا الكتاب انظر «الفيصل» العدد ٢٦ السنة السابعة ص ٨٣ ـ ٨٨.

وهناك رابطة العالم الاسلامي ومركز التعليم الاسلامي ، والمنظمة العربية للعلوم والثقافة (اليكسو) وغيرها من أجهزة جامعة الدول العربية وغير ذلك من المؤسسات والاتحادات والمراكز في مضهار الدراسات الادبية والثقافية والاجتهاعية والاقتصادية . ومن أهم الأدوار التي تقوم بها هذه المنشآت دور الوسيط في التعاون مع مثيلاتها من المنشآت الدولية في غير ما غفلة عن خصوصية الذاتية ومصالح الامة والدفاع عنها ، كل حسب السياسة أو البرنامج الذي يتبعه .

النزعة العالمية في الأدب

قبل أن نعرض لمفهوم «النزعة العالمية» في الأدب ، نقدم هنا عرضا سريعا لما نرجحه أصلا فكريا لهذه النزعة .

لما كان الانتهاء الديني هو أكبر حاجز يحول دون تحقيق الذوبان على هذا النحو الظالم الذي تمثله هذه النزعة ، فلا غروأن ارتبطت النزعة بفكرة التحرر الديني أو (اللادين) . فأول ما نجمت فيه هذه النزعة ، كان في العهد الاسطوري والفلسفي للوثنية اليونانية بمسمى الاتجاه الانساني الذي يعني التوجه الى الانسان وقضاياه ونوازعه في الدراسات الفلسفية والأدبية .

وحين حاول الاسكندر المقدوني فرضها في عهد الفلاسفة ، اصطدم بعقائد الشرق . فقد ابتدأ حملاته لنشر الثقافة اليونانية وتوسيع النفوذ ، ولكنه رجع بأفكار عكسية ، أثرت هي على وجهة الفلسفة من بعده . ثم عادت النزعة الانسانية مع بداية عصر النهضة الحديثة في أوربا في عهد (الكلاسيكية) التي ارتدت الى الوثنية اليونانية تحيى خصائص تراثها وتتمثل نهاذجها وتحاكيها . أما «النزعة العالمية» التي هنا فقد ابتدأت مفاهيمها تتضح بشكل واقعي في الاداب الاوربية بعد انهيار اللدين ورسوخ العلمانية هناك في القرن الثامن عشر .

ومنذ العهد القديم ظلت نزعتا «الهيلينية» و «العبرانية» تتنازعان نفس الانسان طوال تاريخه . وكان لهما تأثيرها العميق على الاداب عامة . وعنى ماثيو أرنولد بابراز

هذا التأثير في بعض أعاله . وظل اليهود يبشرون فيا بينهم «بيهودية عالمية» لاتهود العالم وانها تسخّره وتحكمه . وشبيه بهذا الفلسفة «الغنوصية» التي ازدهرت في العهد الهلينستي (هيلينية الاسكندرية) ، وهي مذهب تلفيقي مركب من جملة تعاليم وأفكار مشبوهة مختلفة المصادر ، وأساسها الزندقة وتحريف الاديان (1) .

وما يحول دون تلاقي الاديان المنزلة ومن ثم تلاقي البشرية فسببه سوء اعتقاد الناس والتحريفات والزيادات التي لحقت هذه الديانات حاشا الاسلام ، والا فدين الله واحد ، فها يثبته أحدها في أصله تثبته الاخرى وما ينفيه تنفيها . والدين أكبر عامل وحدة واتصال وما يزال يؤدي دوره في الترابط بين أصحاب المعتنق الواحد . «كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومُنْذِرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيها اختلفوا فيه» (۱) «ولوشاء ربُّكَ بَعلَ الناسَ أُمَّةً واحِدة ولا يزالون مُعتَلِفِين . الا من رَحِمَ ربُّكَ ولذلك خَلقهم» (۳) .

أما «عالمية الاسلام» فذلك حق ثابت . وهوشيء آخر غير ما نقصد من حيلولة الدين دون الترابط والتواد مع غير أهل الملة ، على النحو الذي يقتضيه مفهوم العالمية المذي ذكرنا . ذلك أن لهذا الدين الاسلامي الكامل الشامل تصوراته وقيمه التي لاتقبل المساومة ، ولا تتفق مع التصورات المبنية على النوازع البشرية التي اتجهت اتجاها ماديا صرفا .

وأثر سيادة العلمانية ونمو مايسمى بالعلوم الانسانية بعد انفصالها عن الفلسفة ونشوء الدراسات المقارنة فيها ، التي مهدت بدور كبير لعالمية الحضارة ممثلة في النفوذ الاوربي ـ نشأ كثير من المذاهب والجمعيات السرية والعلنية ، واجتمع عليها رجال من الشرق والغرب ، وحدت بينهم النوازع والأغراض النفعية ، في غياب من خصوصية الدين .

⁽١) انظر في التعريف بهذه النزعات : مجدي وهبة «معجم مصطلحات الأدب» ص ٢٠٦، ١٩٤ ويوسف كرم «تاريخ الفلسفة اليونانية» ص ٢٤٤، ٢٤٧ ، ٢٥٥ و :

Scott, A. F., Current Literary Terms, p. p. 117, 124-5.

⁽٢) سورة البقرة ٢١٣ .

⁽٣) سورة هود ـ ۱۱۸ ـ ۹ .

ولما كان الدين ، من الناحية الأخرى ، ضرورة عقلية وروحية وخلقية ، فقد أخذ بعض الفلاسفة والمذهبيين ، الذين استغنوا عن الشرائع المنزلة ، لكونهم يرون في أنفسهم أنهم وضّاع الشرائع والمذاهب ، يتنادون بالتأليه الطبيعي (Deism) و «بالدين الطبيعي» يزعم أنه يبني على العقل المحض ، ويدع الله والانسان بعيدين لاصلة لأحدهما بالآخر (الاكصلة صانع الساعة بالساعة) ، ليجمع هذا الدين الناس على الخلق والفضيلة ونبذ ماسواهما (۱).

أما أول ماظهر تيار «العالمية» في الأدب ففي القرن الثامن عشر. وقد تكهن أديب ألمانيا جوته (١٧٤٩ - ١٨٣٢) ، وكان على اطلاع ، شأن كثير من أدباء عصره ومفكريه ، على آداب الشرق والغرب - بأن الاداب العالمية حين يتم تجاوبها بعضها مع بعض ، لن تلبث أن تتوحد جميعا في أجناسها الادبية وأصولها الفنية وغاياتها الانسانية ، بحيث لا تبقى من حدود سوى حدود اللغة ، وما يمكن أن توحي به البيئة أو الاقليم (١). وجوته هنا ينطلق ، فيما يبدو هو ومن آمن بفكرته وعمل لها مثل برونتير وجوزف تكست ، من مفهوم (نظرية التطور) ، ولهذا جاء توقعهم مغرقا في الفرضية والحدس والتخمين . فهم قد غفلوا عن ادراك تأثير أوضاع واحتياجات البيئات المحلية وخصائص أعها .

غير أن لعاملي الضغط والتوجيه أثرهما في تحقيق كثير مما يبشر به هؤ لاء العالميون . ويبعد الخيال بمفكرين آخرين الى حدّ استحداث لغة تكون عالمية كالاسبرانتو والفولابك . وتجتهد آداب العالم وهي تحاكي (الأدب العالمي) وتقتبس من معاييره ومذاهبه الجهالية والنقدية ، بله أفكاره وقيمه المعنوية ، لتحقيق هذا الشيوع الادبي .

وقد أصبحت (أوربا الناطقة بالفرنسية) حقيقة واقعة تقريبا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وأصبح (العالم الناطق بالانجليزية) حقيقة واقعة في هذا القرن^(۳).

⁽١) التأليه الطبيعي مذهب يقرر وجود اله اعتهادا على آثاره الكونية وبرفض الوحي والنقل . والدين الطبيعي قريب منه فهو يقول بالغائية ولا يستتبع القول بالعناية ، وكان جوفريد لبنتز يدعو للنزول عن بعض العقائد أو تعديل بعضها الآخر ليجتمع اخوان الانسانية في سعة هذا الادراك المتميز! ومن قبل كان ديكارت يقول بفصل العقل عن الجسم والله عن الكون؟ ومن أنصار هذا المذهب من أدباء فرنسا فولتير ، وديدرو ، وروسو انظر يوسف كرم «تاريخ الفلسفة الحديثة» ص ١٣٥ ، ١٨٢ وجدي وهبة «معجم مصطلحات الادب» ص

⁽٢) غنيمي هلال والادب المقارن، ص ١٠٤ ، أنظر أيضا ص ٧١ ـ ٧٥ .

⁽٣) كلود بيشوا ، أندريه روسو ، «الأدب المقارن» ص ٣٩ .

ويعي بول فان تيجم ، كبير أساتذة الأدب العالمي والمقارن رسالة الادب المقارن في خدمة هذا الاتصال والتفاهم بين الامم فيتوجه في خطابه الى المؤتمر العالمي الدولي الرابع لتاريخ الادب الحديث بقوله :

«... الأدب المقارن يفرض على هؤ لاء الذين يارسونه مسلكا من التعاطف والفهم نحو اخواننا من بني الانسان: (ليبرالية) فكرية، بدونها لايمكن القيام بأي عمل مشترك بين الشعوب (1).

والتعريف المتداول «للنزعة العالمية» في الأدب (Cosmopolitanism) ينص على :

«كون الاديب مستعدا لتقبل جميع التأثيرات الصادرة من خارج وطنه ، مع عدم التحيز لنزعته القومية» (٢).

وهو تعريف لا يكاد يختلف عما أصبح عليه تعريف المعجمات المتخصصة لمطلق الاديب الذي يفترض فيه:

«الاطلاع على الاداب العالمية ، والوقوف على التيارات الفكرية والادبية والفنية في العالم ، ومسايرة العصر ، والاحساس بالقضايا الانسانية المحركة للمجتمعات» (٢٥)

وكذلك الشأن في مفهوم «الثقافة» كما يراه برتراند رسل ، الذي يعتقد أن الثقافة الحقيقة تعني أن يكون المرء مواطنا منتميا الى الكون بأسره ، وليس منتميا فقط الى قطاعات مفتعلة من الوجود في نطاق عصر بعينه .

فالثقافة بهذا المعنى تخضع لاسلوب الحضارة السائدة وتصنف ضمن المفهوم السواسع لها ، مع أن من البين أن الحضارة (مرتبة) من ثقافة متقدمة نوعا ما (٤) وأيا ماعليه الامر من الخلف أو التطابق بين تعريفات الثقافة والحضارة فلا جدال في تأثير الوضع الحضاري الراهن في نشر أنهاط وسهات ثقافية واتجاهات سلوكية معينة .

ويؤيد رسل الحقيقة المعروفة من أن الرومان وقد ورثوا المفهوم اليوناني للثقافة ، فان هذا المفهوم مايزال سائدا في جميع أقطار العالم الغربي حتى وقتنا الحاضر (٥).

⁽١) المرجع السابق ص ٩٢ .

⁽٢) مجدي وهبه «معجم مصطلحات الأدب» ص ٩٤.

⁽٣) جبور عبد النور «المعجم الادبي» ص ١٠٥.

⁽٤) انظر : د. زكي محمد اسهاعيل «الانثربولوجيا والفكر الاسلامي» ص ١٣١

⁽٥) يوسف ميخائيل أسعد : مجلّة «الثقّافة» (السنة ٩ العدد ٢٠٦ يوليو ١٩٨٢) ص ٥٨ ـ ٦٣ بعنوان : المفهوم التكاملي للثقافة .

ورسل هذا هو صاحب فكرة «الحكومة المركزية العالمية» توحّد العالم وتقيم السلام فيه ولمو بالقسر والقهر . وروجيه غارودي يندد من ناحيته بتأسيس الغرب الحديث على الحضارة اليونانية والرومانية ويدعو الى العدول عن ذلك ، والانفتاح على حضارات العالم (1) . وسنتناول هذه القضية بتفصيل أكبر في مبحث آخر .

واذا كان للادب المقارن ذلك الدور المأمول فيه أن يحقق مسلكا من التعاطف بين الشعوب وقيام أعال مشتركة بينها ، فان دوره اليوم يزداد أهمية فيا ينبغي أن تتوجه اليه دراساته من الكشف عن مواطن التأثر والتأثير والالتقاء والاصطدام بين الافكار والشكول الادبية لمختلف الآداب العالمية . واستثاره في تحديد المسارات التي اتخذتها (النهاذج الانسانية والمواقف الادبية) وأكثرها أسطوري ، خلال انتقالها من أدب أمة الى أدب أخرى ومن جيل الى جيل . فقد درج الادباء على استلهام هذه النهاذج والمواقف من التراث الانساني العام ، يجعلونها محورا لأعهالهم الفنية في الشعر والقصة والمسرحية . . . ويعالجون باستحياء الماضي قضايا عصرهم ومشكلات واقعهم . وهم في معالجتهم هذه يوسعون من دائرة المغزى القديم للنموذج ، أو يحوّرونه ليعظي مدلولات أخرى ، بتأثير أفكار العصر وفلسفة الكاتب ونوازعه . ولكنها تظل ، على مدلولات أخرى ، بتأثير أفكار العصر وفلسفة الكاتب ونوازعه . ولكنها تظل ، على أية حال ، تحمل ايجاءات مغزاها الاصلى .

وفي خضم هذا الاختلاط الثقافي وهيمنة الثقافة (العالمية) التي أصبحت بسبب وسائل الاتصال الحديثة مصدرا مهما لثقافة الفرد والدولة _ فان الحاجة تزداد الى أن يصحب ذلك تقويم وتصنيف . والدور الذي يمكن أن ينهض به الأدب المقارن والادب العالمي هو في البحث عن عناصر تكوين الاديب خارج نطاق أمته ، اذ قد ينتمي الكاتب _ أو العمل الفني ، على الاقل _ الى أسرة ما من الاسر الفكرية العالمية في الأداب الأخرى ، تمثل أصول فكره وخلفيات ثقافته .

وهذه النظرية في التاريخ الطبيعي لفصائل الأفكار التي كان نادى بها سانت بوف تكاد تطّرد اليوم في انطباقها حتى على بعض الموهوبين ذوي الشخصيات الأدبية المتميزة (٦)

⁽۱) مجلة «اليهامة» (مرجع سابق) ص ۳۰.

⁽٢) أنظر : غنيمي هلال «الأدب المقارن» ص ٤٩ ـ ٥٠ .

« عوامل عالمية الأدب »

يحسن أن نبدأ هنا بتقديم لحة موضوعية لمعنى عالمية الأدب وعواملها .

ان عالمية الادب معناها خروج الاعمال الادبية من محدودية الانتشار المحلي الى آفاق آداب لغات أخرى متخطية حدودها الاقليمية .

ويجري التواصل الادبي في الغالب على سنن التواصل الاجتماعي ، فالتعامل بين الافراد والجماعات أخذا وعطاء أو اعارة واستعارة ، هو من طبيعة أمور الحياة . والمبادلات الادبية أو الثقافية بصفة عامة ، وهي أرقى ألوان المبادلات ، ليست أمرا آنيا يرتبط بظرف من ظروف الحياة أو آخر ، وانها هي سنة التاريخ الزاخر بشواهد هجرة الثقافات واستعارتها بعضها من الآخر ، غير أن الحاجة الى التواصل والاستمداد الأدبي تنشط مع التعرف على آداب لها صفة الازدهار والتفوق حين تدرك المجتمعات وهي في طور النقلة أو النهضة أن عليها ان تبعث روحا جديدة في تراثها وفي الحركة الادبية التي ينبغي أن تنهض بحاجات المجتمع ومتطلبات العصر ، مما نستشهد له بمثال ماهو جار منذ بزوغ فجر النهضة العربية الحديثة . فلقد توثقت صلة الادب العربي الحديث بالاداب الاوربية بشكل خاص ، وهي في أوج نهضتها بينها هويمر بمرحلة ابتدأ يتحرر فيها من الجمود والتخلف ويسرع الخطى نحو النهضة . وكان لهذا الوضع المتقابل أثره في تعميق وتعدد صلات هذا الادب بآداب العالم ، يمتاح من موارد التجديد فيها ويستمد من مناهجها .

والحال حتى هذه المرحلة من الاستمداد يبدوطبيعيا تصدقه السوابق التاريخية . . الا أن الحقيقة أبعد من هذا ، كما سنرى .

ويتم هذا التواصل عبر المنافذ التاريخية المعروفة من حروب وغزو وهجرات ومنافذ أو وسائط خاصة ، وسائر وسائل الاتصال الحديثة التي ذكرنا فيها قبل . وأدوات الاتصال في ذلك هي معرفة اللغات والترجمة . وتشكل هذه الوسائل العوامل العامة لعالمية الأدب .

أما العوامل الخاصة المباشرة فأهمها:

1 ـ صفة الجودة الثابتة في العمل: عمثلة في فنيات العمل وجودة الفكرة فالاعمال التي تعاليج قضايا آنية مرهون بقاؤ ها عادة ببقاء القضية أو الظاهرة التي تعاليجا. وكذلك فيها يعالج ظاهرة بيئية معالجة تتوقف عند حد ملامسة الاعراض السطحية للمشكلة ولا تنفذ الى أعماق المشكلة وجوهرها ؛ لتبقى بعد ذلك الاعمال التي تتناول القضايا الكبرى للكون والانسان ، والتي تسبر أغوار النفس الانسانية وتنفذ الى أعماق الاحداث وجوهر الحقائق ، فتعرضها عرضا فنيا يكون على مستوى الأداء الرفيع للجنس الادبي الذي تعالج فيه القضية ، فتستحق حينئذ هذه الاعمال مستمعا عالميا . ولكن الواقع أنه ليس كل ما في هذه الآداب مايمثل صحة النظرة أو النفاذ الى سر من أسرار الكون والبشرية ، كما أن مظاهر البر وز والرواج لاتكمن في هذا التعمق في الدراسة والنظر الصائب فحسب ، فلقد زخرت هذه الأداب وأولها الادب اليوناني بالاساطير والخرافات والتفسيرات العقيمة للطبيعة وما وراء الطبيعة . ولهذا أيضا قيمته الانسانية ، اذ يلبي حاجة الانسان في غفلته وضعفه الى تفسير ما يعجز عن تفسيره في غياب الادراك الصحيح لقضية الوجود ومسائل الحياة التي فسرتها الاديان المنزلة ويهتدى اليها العقل الحرّ.

Y - الشهرة: محلية أو عالمية ، وهي مجموع الشهادات التي تبرز الخصائص الحية للعمل الادبي ، وتتكون من النجاح الذي يحدد بالرقم: يحدده عدد الطبعات والنسخ والترجمات ، مما حققه الاديب أو العمل الأدبي ، كما تحدده الاعمال التي تستلهمه أو تتأثر به ، وهو التأثير «الكيفي» الذي يخصب خيال القاريء الايجابي فيثير استعداده للاضافة والابداع (۱).

ولانغفل هنا ذكر أهم الاسباب المساعدة في تحقيق هذه الشهرة والتي تقوم على توفر الامكانات المادية الضخمة للطباعة والاذاعة والنشر والتوزيع ، مما تفتقر اليه بلدان العالم الثالث بوجه العموم .

٣ ـ اتجاه الاداب القومية الى الاستمداد من آداب العالم لاغناء تجربتها ، ومسايرة الركب العالمي الذي ارتبطت به في عصر الاتصال هذا .

٤ ـ الهيمنة الحضارية أو المدنية لأمة ما يستتبعها عادة هيمنة أدبها ودفعه في سلم العالمية . ويساعد على هذا مايقابله من شعور الأمم المستضعفة بذل تفرقها وهوان الحضارية لها عندها .

⁽١) بيشوا ، روسو: «الأدب المقارن» ص ٦٧ .

• مواءمة العمل للنزعة السائدة أو المقبولة في العصر . فكلاسيكية فرنسا تبنتها أوربا بلا مقاومة بسبب سيادة النزعة العقلانية فيها حينئذ (۱) . ولا تعني هذه المواءمة تشابه الاحوال التاريخية للامم وتماثلها بقدر ما تعني الاحتياجات الحقيقية التاريخية لمجتمع ما في حالته الراهنة . «فرباعيات الخيام» (٥١٥ / ١٩٢١) مثلا التي عبر فيها عن ضيقه بهذا العالم تعبيرا متمردا يشف عن أسى المفكر وتشاؤ م الفيلسوف - لم تلق هذه الرباعيات تلك الحظوة لدي معاصريه في القرن السادس / الثاني عشر ، ورأى فيها كتاب القرن التاسع عشر الاوربي وشعراؤه تعبيرا عن روح عصرهم ، وقد بلغ الصراع أشده بين المثالية والمادية ، فراجت رواجا لم تظفر بمثله في وطنها الأصلي (۱) . وحال عصر النهضة العربية الحديثة مثال آخر على هذا ، فقد نشأ تيار (الكلاسيكية) الحديثة هنا مع مطلع القرن العشرين يستوحي الكلاسيكية الاوربية التي لفظت أنفاسها في أواخر القرن الثامن عشر . وكذا الحال بالنسبة لكافة التيارات والمذاهب الفلسفية والادبية التي طرأت على هذه المجتمعات حتى فترة نهاية الحرب الثانية حيث تغيرت مجريات الامور .

ولن نغادر حديثنا عن العوامل الاساسية وراء عالمية الادب وقد تحدثنا عن الجانب المثالي النظري فيها ، قبل أن نشير مجرد اشارة الى المارسات الواقعية التي تدفع بعمل ما دون غيره الى سلّم العالمية ، لتدخّل عنصر العصبية والنفع السياسي . ونخص بالذكر منها لونين من ألوان المهارسة في الاسواق الادبية العالمية :

أولها: ظاهرة التدخل في سوق النشر والتوزيع عن طريق تدعيم نوع من النتاج عن غير استحقاق بهدف ترويجه محليا والدعاية له. يقابله تدخل عكسي بالشراء الهائل لنوع آخر من النتاج لتفريغ الاسواق منه ، واقامة العراقيل والدعاية ضده .

وثانيها: الدعاية وتسليط الاضواء عالميا على الاعبال التي تخدم الايديولوجيات المسيطرة (شرقية وغربية) أو تتعلق بأسبابها. وهذه كانت وراء توجيه الدراسات الاستشراقية ورواج أعهال مثل ألف ليلة وليلة والاعهال الفلكلورية وأعمال بعض الكتاف العرب المعاصرين . . .

⁽١) غنيمي هلال : «الأدب المقارن» ص ١٠٧ .

⁽٢) قابل : (المرجع السابق) ص ١٠٧. .

تقــويم

في الوقت الذي نعني فيه بتحليل ايجابيات وسلبيات «النزعة العالمية» هذه والكشف عن مخاطر مايرى في بعضها من مزايا ، فاننا لانهدف أبدا الى الحجر على الفكر الخاص ، أو ندعو الى الانعزالية والرفض فان ذلك لم يكن في يوم من الايام منهج الفكر الاسلامي المتميز بخصيصة الانفتاح ورحابة الأفق وسعة الاحتواء .

والشواهد التاريخية على ذلك كثيرة ، ثم ان العلم أو الحكمة هي بغية المؤمن وطلبته . ان كل ما نهدف اليه هو تسمية الاشياء بأسائها ، والتوجه في محاولة للتبصير بابعاد الاصول الفكرية والمذهبية وبها يتعارض من معطيات الحضارة الحديثة صراحة مع القيم الثابتة والخصائص الذاتية للفكر الاسلامي .

والمرحلة الاولى الى ذلك تكون في تحديد هذه الخصائص وتقنين التصورات الاسلامية بها يؤدي الى صياغة فكر اسلامي معاصر. وبقدر ما يكون الفهم للذات والثقة في قدراتها يؤمن جانب الاتصال والاخذ من الفكر العالمي. وبغير هذا لن يتحقق لنا كسب وانتفاع من معطيات هذا الفكر دون خسارة وتضحيات.

وأول ما نجده في هذا الخصوص أن نزعة العالمية اليوم لاتمثل حقيقة العالمية الصحيحة التي تعني اسهام الاعمال العظيمة لدى كل الامم والحضارات المؤهلة في هذا البناء الواحد انهاهي تراث شعوب ، وحدت بينها الحضارة الحديثة ودفعتها منجزاتها السياسية ورقيها المادي المتمثل في (التكنولوجيا) المتقدمة والتفوق العسكري والاقتصادي ، الى فرض (ايديولوجياتها) الخاصة وتراثها القومي على حساب تراث الأمم الأحرى ، متجاهلة الذاتيات الخاصة والطبائع المتفردة للحضارات الغافية وقيمها المنسية .

ولقد جرف هذا التيار فيها جرف القيم الخاصة والمثل الاجتهاعية الاصلية لشعوب المجتمعات القوية نفسها . فها أكبر الفرق بين مجتمعات القرن السابع عشر والثامن عشر في أوربا في مثلها الاجتهاعية وعقلانيتها وبين مجتمعات القرن العشرين في أوربا

نفسها (۱). وقد كنا أشرنا فيها مضى الى تحذير وزير الثقافة الفرنسي من سيطرة (الامبريالية) الثقافية الامريكية . والواقع أن كثيرا من ظواهر التمرد الاوربي على التبعية السياسية لامريكا انها يرجع الى أسباب ومصالح قومية صرف .

ولا جدال في أن الحضارة الغربية في جانبها العقلي ، كما يلاحظ بعض المفكرين ، ليست الا ازدهارا لبعض الجوانب المهمة في ثقافة الاسلام وفكره ، حين أتى على الفكر الاوربي زمن تلقى فيه وحي النهضة من حضارة الاسلام وعلومها ومناهجها . غير أن الخطورة تكمن فيما تعرضت له المباحث والمناهج الاسلامية في مناقشاتها لقضايا الحياة والكون ، من توجيه أصبح يحمل الطوابع المادية الالحادية والافكار العقدية للحياة الغربية . وقد نجحت الحضارة الحديثة في تقديم نتائج الفكر الاوربي في صياغة براقة قد تخدع النظر السريع في الوصول الى كنهها وحقيقتها . ومن هنا نجد المسلمين اليوم ينزعون بسرعة كبيرة في حياتهم الروحية نحو الغرب (٢) .

والغرب يكاد لا يخفي روح العداء والتنكر للثقافات الشرقية ولا محاربته وانكاره لاسهامات الثقافة الاسلامية في الكشوف والنظريات المبتكرة ومناهج البحث العلمي ، بل والمشل الاجتهاعية التي أثرت في حياة أوربا ، وأهونها شأنا الاستعارات اللغوية الادبية . ولا تزال المحاولات دائبة لرد معطيات الحضارة الاسلامية الى أصول قديمة كاليونانية وتقوم على دعوى تميز العقلية الاوربية أو الجنس الآري عامة ، أحيانا ، متغافلة عن حقيقة أن الثقافة الاسلامية هي في الاساس حرب على وثنية الحضارة اليونانية ورفض عقلي لانحراف فلسفتها واهتهامها بجانب من الحياة دون بقية الجوانب. وذلك ما يعترف به المصنفون من المفكرين منهم .

وثاني مانجده من خطورة هذا المدّ العالمي أسلوب القوة والقهر لفرض منطق الحضارة الغربية الذي يحقِّر المواريث الخاصة للأمم الفقيرة من المدنية ، ويعمل على هدمها وفق قاعدة «المثالية الغربية»: بان تعمل «العلمانية» على نهضة الأمم ورقيها ، كما عملت في مجتمعات الأمم المتمدنة!

⁽١) تأمل عل سبيل المشال تطور أو بالاحرى تبدل مفاهيم الدين والاخلاق . وأقرب مانستشهد به منها هو فضيلة الغيرة وهي غريزة فطرية نجع المذهبيون من الطبيعين وغيرهم في سترها وكبحها بترجيح قوة الميل الغريزي الأخر للجنس . . . انظر غنيمي هلال «الأدب المقارن ص ٣٠» لتفسيرتين لعامل الجنس : «الفضيلة والرذيلة من منتجات العوامل الطبيعية كالسكر والملح . . » ولهذا أصل فلسفي . (٢) قابل : محمد اقبال : «تجديد التفكير الديني في الاسلام» ص ١٣ - ١٤ .

وكان لذلك آثاره في تعويق نهضة هذه الأمة بالذات ، وانحراف اتجاهات الصحوة فيها ، فقد انشغلت هذه عن تراثها الخاص وذاتيتها المتميزة في غمرة انبهارها بالحضارة الحديثة ، بالأخذ من التراث العالمي وبمحاكاته وتطبيق معاييره ومناهجه في تسارع غير متزن .

وأصبحت الثقافة المهيمنة اليوم في أوساط النخبة من العرب والمسلمين - كما يقول رمضان لاوند - هي تلك التي ترد اليهم من الخارج ومن مناهج فكرية متعارضة مع مناهج القرآن الكريم . ولا عجب في ذلك فان التيار الاعلامي القادم من حضارة الغرب هو من الكثافة والقوة بحيث أدى خلال القرنين الماضيين ولا يزال ، دورا أساسيا في عزل الاجيال العربية الاسلامية عن تراثها وعن اعلامها الاسلامي الحديث . وليس هذا وحسب فان هذا الاعلام أبرز بقوة وباصرار مقصود مجموعة الافكار والمواقف الشاذة التي نجمت في بعض مراحل الحضارة الاسلامية ، أو تلك التي تعتبر امتدادا لعصر جود الفكر المبدع (۱) . وأنه لا ينبغي أن نتحرج من الاعتراف بان جانبا كبيرا من المجتمع الاسلامي ، أصبحت المباديء والتصورات الاسلامية في عجرد تراث فكري يتعامل معه كتاريخ قديم لا كمعيار ونهج حياة من المفروض فيه مجرد تراث فكري يتعامل معه كتاريخ قديم لا كمعيار ونهج حياة من المفروض الالتزام بتطبيقه في كل شئون الحياة . ومن الواضح أن الذي يسر لهذا الانسلاخ هو حصيلة قرون الجمود والسلبية اللتين مرت بها المجتمعات الاسلامية . أما ظواهر اليقظة والتطور في عصر النهضة الحديث فقد منيت بهذا التيار المضاد الحارف : تيار الحداثة والمعاصرة الذي هو بالضرورة نتاج ابداع ومنهجية غير اسلامية .

ومن ألوان الاستعمار الحديث التي لجأ اليها الغرب وما زال لبسط نفوذه وايديولوجياته على الشعوب العربية والاسلامية عامة ، السعي الدائب لقطع صلاتها بتراثها ، وطمس هويتها وتشويه صور أوطانها وشعومها وله في ذلك ماض عريق ؛ فلقد كان من (أسمى) أهداف نابليون في حملته على مصر والاوطان العربية العمل على «التقليل من المشرقية القاتلة» لها . وكذلك كان كرومر من بعده يرى في الوجود

⁽١) رمضان لاوند : مجلة «النهضة» السنة ١٥ العدد ٧٦٦ في ١٠ يوليو ١٩٨٢ ص ٤١ .

البريطاني الفرصة لتحقيق مثل ذلك وفرضه (١).

ومما توسل به الاستعمار الحديث لتحقيق أهدافه وضع الخطط وحبك المؤ امرات لتوجيه أفكار التحرر والنهضة اللتين تتطلع اليها هذه البلدان النامية ، وترويج الافكار المناهضة لأصالة الأمم الشرقية وقيمها ، مثل صياغة الافكار القومية والتقدمية ، والترويج لمفهوم «لبر وتستانتية في الاسلام» ومفهوم «للبرالية» و «يسار» اسلامي . هذا الى جانب نشر «العلمانية» بالدعوة الى فصل الدين عن العلم والحياة ، واذكاء العصبية بالتشجيع على المذهبية وبعث الروح «اللبرالية» (الحرية الفوضوية) الغربية للانسلاخ عن الجذور (٢) .

وانه من الواضح أن التعرض المستمر لضغط العصربها فيه من متغيرات سياسية واقتصادية وثقافية واجتهاعية ، يحدث تصادما بين (ثوابت الموروث) ومتغيرات العصر ، ويؤ دى الى صراع الاجيال وخلخلة كيان المجتمع ويجعله نهبا للحيرة والقلق . ومصير هذا التنازع أخيرا في تاريخ الاسلام أنه يحقق دوره في الانتقاء والتهذيب أو الرفض ، ويعمل على توثيق تأثير الماضي في الحاضر ، وتبني الصالح منه على مبدأ يتحقق معه الانسجام بينها . ولكن ذلك رهن بوعي أبنائه وبمدى التحمس والاعتزاز بهذا الماضي . ويمكن بمثل هذا تفسير حركات تجاوب بعض الأمم ذات الأصول والتراث الحضاري ، مع المد العالمي مصحوبا بعمليات التهذيب ، وان كان بطيئا ، فذه العناصر الدخيلة في محاولة لأقلمتها وتأطيرها بها يقربها من الطبيعة الخاصة للأمة وبيئتها وتغذية احتياجات هذه البيئة . والمثال في ذلك اليابان بوجه خاص .

وتمس خطورة هذا المدّ العالمي كل أجناس الفن والأدب على تفاوت في درجتها . والمظنون أن الخطورة تتركز في الوقت الراهن بدرجة كبيرة في ظاهرة انتشار فن القصة والمسرح العالمي والاقبال عليه مقدما في (السينا والتلفزيون) والاذاعة والمسرح (والفيديو) والكتاب والمجلة والجريدة . . . هذا وان كان مايزال «للكلمة» ، أيا ما جاءت عليه في هيئة معلومة أو خبر أو عمل فني ، خطورتها .

⁽¹⁾ انظر: «المستقبل العربي» عدد ٢٣ ص ٧.

 ⁽٢) انظر : (المهارسات الاستشراقية ودراسات تحديث العقل العربي) في المرجع السابق عدد ٢٣ ص ١٠ و ص ٩٥ ـ ٩٦ ، وعدد ٢٦ ص ٧٣ ، وانظر : د. محمود محمد سفر «الاعلام موقف» ص ٥٠ وما بعدها .

والمسرحية من بين الفنون قديمها وحديثها ولدت في حضن الوثنية وارتبطت بمغامرات (أساطير) اليونان التخيلية وطقوس العبادة الوثنية لهم أو للفراعنة من قبلهم لتحكي قصة الصراع والعلاقة بينها وبين البشر ، وهدفها في الاساس المفهوم السلبي في «تطهير النفس» بها تثير من عواطف وانفعالات ، مستمدة عناصرها وتشكيلتها من المتراث الاسطوري والقصص الخرافي الشعبي . وما يزال الادب المسرحي المعاصر ينتسب الى هذا التراث (1)

وكان من شرط التراجيديا (المأساة) بخاصة أن تكون قصتها مستوحاة من القصص التاريخي الذي زخرت به قصائد هومير وس ، ومن الاساطير والخرافات المرتبطة بشخصيات تلك الرموز «الإلهة» أو مما يقع للناس من أحداث .

وأهمية المسرح تنشأ من عمق ما يعالجه من موضوعات تتصل بأكبر القضايا: الوجود ومصير الانسان وما وراء الكون. وقد قالوا عن حق: «ان المسرح هو صورة حياة الشعوب ومعيار لقياس نفسياتها»، اذ تقدم المسرحية صورة بطيئة الحركة لواقع الحياة (التي تخضع لقانون الصراع) وفي اثارة وتهويل، أو كها قال كامو، وهويرى أن المسرح أسمى الالوان الادبية وأكثرها عالمية: _ «انه لا وجود لعمل مسرحي الا بتدخل المصير الانساني كله» (٢) وشأن الرواية والقصة شأن المسرح من حيث الموضوع الذي تدور في نطاقه ومن حيث قوة التأثير الى حد كبير. وهذه المرتبة المتقدمة لأجناس الرواية والقصة والمسرحية من بين الفنون على جنس الشعر، حقيقة واقعة ، وتكاد تصبح كذلك لدى الشعوب العربية التي ماتزال تحتفظ لجنس الشعر بمرتبة متقدمة .

واجمالا فانه ليس من وسيلة أقدر على حمل التناقض والتمكن من التأثير سلبا وايجابا مثل وسيلة الفن ، برحابة أفقه وكثرة تشعباته ومداخله لما ينضم عليه من فلسفات ومذاهب واتجاهات . ففي القصة والرواية والمسرحية يمكن للكاتب القادر على الابداع أن يعالج مايشاء بها يشاء من وسيلة . وان يفرغ مفاهيمه صحيحة كانت أم فاسدة ، أو خيالية مفرطة في الاغراق والاستحالة ، فلايواجه بأكثر من سخرية من ناقد جاد ، ومئات آلاف النسخ من عمله تروج في الاسواق . فهناك دائها سعة ومندوحة في المذهب وفي المصطلح وفي اختلاف الرأي . وليس ثمة من معيار دقيق

⁽١) انظر : د. ثروت عكاشة «الاغريق بين الاسطورة والابداع» ص ٢٣٤ ـ ٥١ .

 ⁽٢) سامية أسعد : «في الادب الفرنسي المعاصر» ص ٢٣٤ ـ ٥ .

يحدد «أيَّ قدر من الخير يبر رأيَّ قدر من الشرَّ» على حد قول النقاد (١١). ومع غياب القيمة الثابتة ومصدرها الدين والمعيار الجهاعي المحكوم بالعقل تظل الاهواء الفنية توسع مبدء الوسيلة (اليهودية) هذه التي تبر رها الغاية .

ومنذ عهد التشعب الفلسفي والمذهبي عند احتضار (الكلاسيكية) وانفجار المعلومات والثورات الفكرية والسياسية ، أخذت القيم والمثل الاجتهاعية في التخلخل فتقدمت المعاير الذوقية الخاصة والمبادءات الفردية على الاعراف والقوانين الجهاعية ، وأصبح الرأي حكها ، والضرورة والاستثناء قاعدة ؛ في وقت ضرب فيه صفحا عن تحكيم العقل والمنطق ، وتفردت التجربة الحسية بكونها وسيلة المعرفة والبرهنة الوحيدة لكل القضايا .

ونضرب لذلك مثلا واحدا «بالثورة الرومانسية» التي قامت على أساس الدعوة الى الذاتية وحرية الفرد، فاسهمت مع الفلسفات الوضعية في القضاء على سلطان العقل والغت الاحتكام اليه في ضبط جموح العاطفة وجنوح الخيال لتسلم القيادة الى القلب أي الهوى الذي هو منبع الالهام ومكان الضمير والهادي الذي لايضل! وذلك حين أصبح الحدس والتخمين أو النازع الانساني من أركان وسائل المعرفة في بعض الفلسفات الحديثة.

والرومانسية صنو «اللبرالية» وثالثة الثالوث الاحتجاجي: «الثورة البر وتستانتية والثورة الثقافية السياسية الفرنسية» ؛ جاءت ثورة على الاعراف الكلاسيكية ، وتحريرا للفرد من كل القيود ، بها أصبحت معه السمة الجامعة للمثقفين والادباء هي الخروج على السائد خروجا ثوريا تمرديا . وقد مهد هذا الأمر لاحتضان نزعة «الثقافة المضادة» ونشوء سائر ما تلى الرومانسية الأم من مذاهب واتجاهات أدبية كالوجودية (٢) والطبيعية والرمزية والسريالية والعبث . . . الخ . يعرف هوجو ، الأب الفرنسي للمذهب ، الرومانسية بانها : «الثورة الفرنسية محققة في الأدب : أليست هي حرية الالحام ، واخاء الفنون ، ومساواة الاجناس الادبية بل مزجها بعضها ببعض . . . »

⁽١) انظر: بامبرجاسكوين «الدراما في القرن العشرين» ص١٠٠٠ - ٤٢ .

 ⁽٢) نزعة تعلق أكبر قسط من الاهمية على وجود الفرد في الكون وعلى صفاته الجوهرية : فهو محور الوجود .
 قال بها كير كيجارد وياسبر زوغيرهما ثم نادى بها أخيرا سارتر . والوجود الفعلي في نظره خروج الفرد الى جو من الحرية المطلقة ، يشكل حياته بمحض ارادته .

ان الرومانسية على الطرف النقيض من الكلاسيكية في مبادئها (آ)فهي تتغنى هياما بجهال النفوس عظيمة كانت أم وضيعة : (مساواة) ، وتأخذها الرحمة بالجنس البشري كله بها فيهم الاشرار والفساق : ضحايا المجتمع فتدعو الى انصافهم : (عدالة) ، وتحلم بمجتمع مثالي تنال فيه الحقوق دون بذل جهد في أداء الواجب فيها عدا الشورة والتحرر من قيد العقل والعادة والتراث (حرية) . هذه هي قصة "الرومانسية في أصلها (۲). وهذه المباديء الشلائة : حرية ، اخاء ، مساواة هي الشعارات المخادعة للهاسونية التي قامت عليها الثورة الفرنسية (۳)

ولنا أن ندرك بعد ، أن كثيرا من هذا الجديد الذي تقدمه الآداب العالمية اليوم انها هو من ثهار هذا التسيب ، أويرجع الى أصول فكرية فلسفية ومذهبية من أسرة واحدة ، سواء وردت من المجتمعات الرأسهالية أو الاشتراكية فهي تقوم وهذا على سبيل الاجمال على :

- تراث الوثنية اليونانية من جهة ،
- واليهودية والنصرانية من جهة أخرى .
- والعلمانية : الالحاد والفلسفات الوضعية من جهة ثالثة

وهذا الثالوث الفكري بالاضافة الى تأثيرات مختلفة مشرقية هو الذي نمت في أحضانه أو بتأثيره بقية الفلسفات والنظريات في شئون الدين والفكر والمجتمع والأدب في الفكر الحديث ، بتوالد بعضها عن بعض ويرث أحدها الآخر . ونمثل هنا بالفلسفة الوضعية أو اليقينية (الاثباتية) (Positivism) التي توصف بها فلسفة أوجست كومت (عنه ، وبالفلسفة المادية الجدلية والتاريخية فعنها انبثقت ، على سبيل

⁽¹⁾ عهاد «الكلاسيكية» العقبل وممهوم العمل فيها هو دلك المبني فقط على قبول المألوف والتقليدي والذي تبقى فيه الامور في أنصبتها المقننة لها في العصر الكلاسيكي الاول (اليوناني) بحيث يظل السيد سيدا والخادم عبدا . . . وتظل التقاليد السائدة والعادات (الارستقراطية الراقية) فقط مرعية الجانب والحرمة فوق كل شك وجدل _

 ⁽٢) غنيمي هلال (الرومانتيكية) ص ٧ ، ١٨ ، وانظر حلمي مرزوق «النزعة الرومانتيكية والواقعية في
 الأدب ـ الاصول الايديولوجية» ص ١٧ ، ٣٨ ـ ٣٩ ومواضع أخرى

⁽٣) انظرد. عبد الرحمن عميرة : «المذاهب المعاصرة وموقف الاسلام منها، ص ٩٤ ـ ٩٧ .

⁽٤) كومت هو الذي مرحل تاريخ الفكر الانساني في ثلاث مراحل : لاهوتية ، ميتافيزيقية ، واقعية ، ونقل نظريته هذه الى ميدان فلسفة الفن ، ودعا الى عبادة الانسانية . وقد تحللت فلسفته وتسربت مفاهيمها الى ما بعدها من فلسفات . د. _ يوسف كرم «تاريخ الفلسفة الحديثة» ص ٣٠٥ و ٣١٤ و : 400 و . Pears, p. J40

المثال ، كثير من المباحث والنظريات في فلسفة التاريخ والاجتماع ، والاقتصاد والسياسة والنقد (1).

وهذه الفلسفات والمذاهب في جملتها هي التي توجه اليوم الفكر العالمي والاداب والثقافات العالمية ، وتفسر على أسسها قضايا الوجود والتاريخ والعلاقات الانسانية ومشكلات المجتمع المعاصر . وفي الأدب بصفة أخص ، ظهرت تيارات استوحت من المباديء الالحادية مواقفها الاساسية في محاولة لإجتذاذ ما في قرارة النفس البشرية من ميل فطري ومتطلب عقلي نحو الايان والتسليم بالغيبيات .

وسواء بهذا المفهوم للثقافة أو الفكر المعاصر عامة أو بغيره ، فالواقع أن ذلك عكوم اليوم اما بسياسات (الايديولوجيات) الغربية في خدمة (القوى) الرأسالية ، أو بالماركسية العالمية القائمة على المادية الجدلية _ نبت الثورة الفرنسية _ يتنازعها تسليم أعمى وتصديق عملي بسمو الثقافة الروسية أو في الاقل نقاؤ ها الذي لا يمس (٢)

والقضية برمتها أخيرا ، رهن باقرار هوية الوعي وصدق الانتهاء الى المجتمع المسلم ، والعمل الجاد المستمر انطلاقا من هذا الانتهاء ، في أكثر من ميدان يشمل :

أولا _ تقنين المفاهيم أو التصورات الاسلامية في قضايا الكون والانسان ، لصياغة فكر اسلامي معاصر (٣) ، وتحديد الخصائص والسات الاساسية للتراث الاسلامي .

ثانيا _ ينبغي ، وهذا لحسن الحظ أوسوئه ، العمل على أن يستمر الاتصال ، والانفتاح البصير ، والحوار الجاد مع الثقافة العالمية ، بها يؤدي الى تحقيق مزيد من الفهم والوعي بمساراتها ، وتشخيص الامراض الثقافية ومواطن الانحراف الفكري فيها ، بتتبع أصولها الفلسفية ومقارنة ذلك بالتصورات الاسلامية .

⁽١) تتلخص المادية الجدلية بصفة عامة في انها تعتبر العالم كلا مكونا من مادة متحركة لا ارادة الهية فيه . واعتمدت هذه الفلسفة أساسا منهجيا عاما لكل المباحث النقدية والجهالية التي قام بها النقاد الماركسيون حتى في غير البلاد الاشتراكية ؛ بنى عليها أرنست فيشر نظريته الجهالية : في كتابه «ضرورة الفن» والماركسي الانجليزي كودول نظريته في تاريخ الادب الانجليزي في «الوهم والواقع» (Illusien and Reality) ومن أهم أهداف هذه المادية التحرر من الارتهائية الذي يعني أنه ليس أمام الانسان في مواجهة الحياة الغاصبة الا أن يدمر القوى الضاغطة ويتجه الى الثورة لتبديل شروط الحياة في المجتمع !

⁽٢) انظر : بيشوا ، روسو (مرجع سابق) ص ٣١ .

 ⁽٣) المفاهيم الاسلامية: للوحدانية، الرسالة، علاقة العبد بربه وبأخيه الانسان وبالكون عامة، غاية الوجود، مصير الانسان، الخير والشر والقدر... الخ.

ثالثا ـ اذا ما أصبح المجتمع الاسلامي ـ فئاته المثقفة ـ على بصر من هذا ، استطاع حينئذ أن يحقق قدرا أكبر من التحصن ، من ناحية ، والتكافؤ في التعامل مع الثقافة العالمية ، من ناحية أخرى ، فيتسع بين يديه مجال الاختيار الراشد والعمل المتكافىء :

- ـ بتبنى الصالح المفيد من معطيات هذه الثقافة والاسهام فيه وفي ترقيته .
- وفرض واقع تحييد ما يمكن تحييده من المعارف والوسائل ، وتجريد مفاهيمها ، أو تهذيبها وتصحيح مسارها ، واستثهارها في المنفعة والمتعة .
 - ـ والتوعية بمخاطر الانحراف ومحاربته وتقديم البديل الاسلامي في كل حال .

والله من وراء القصد ، ، ،

د. صالح جمال بدوي

فهرست المراجم

- ١ ـ د. سامية أحمد أسعد «في الأدب الفرنسي المعاصر» الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦ .
- ٢ ـ د. زكي محمد اسهاعيل «الانثر وبولوجيا والفكر الاسلامي» شركة مكتبات عكاظ، جدة ١٤٠٢
- ٣ _ محمد اقبال «تجديد الفكر الديني في الاسلام» ترجمة : عباس محمود لحنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٥٥
 - ٤ ـ د. عواطف فيصل بياري «الاتصال الثقافي والنمو الحضري ؛ دراسة سيسيولوجية ميدانية بالمجتمع السعودي» دار النهضة العربية ، القاهرة ١٤٠٠ / ١٩٨٠
 - ٥ _ بيشوا _ روسو: كلود بيشوا ، أندريه ميشيل روسو «الادب المقارن» ترجمة :
- د. رجاء جبر ، مكتبة دار العروبة ، الكويت ١٩٨٠
 - ٦ بول فان تيجم «الأدب المقارن» ترجمة : د. سامي الدروبي ، دار الفكر العربي (د. ت)
- ٧ بامبر جاسكوين (الدراما في القرن العشرين) ترجمة : محمد فتحي ، دار الكاتب العربي للطباعة ٧ بامبر جاسكوين (الدراما في القرن العشرين) ترجمة : عمد فتحي ، دار الكاتب العربي للطباعة
- ٨ ـ د. محمد عزيز الحبابي (محاولة تحديد «شخصانية» اسلامية) في «الى طه حسين في عيد ميلاده السبعين» دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٢
 - ٩ ـ د. محمود محمد سفر «الاعلام موقف» تهامة ، جدة ١٩٨٢ / ١٤٠٢ .
- ١٠ ـ د. حسين حمدي الطويجي «وسائل الاتصال والتكنولوجيا في التعليم» دار القلم ، الكويت
 - 11 ـ د. جبور عبد النور «المعجم الادبي» دار العلم، بيروت ١٩٧٩ .
 - ١٢ ـ د. ثروت عكاشة «الاغريق بين الأسطورة والأبداع» دار المعارف بالقاهرة ١٩٧٨ .
 - ١٣ ـ د. فو اد عبد السلام الفارسي «قضايا سياسية معاصرة» تهامة ، جدة ١٩٨٢ / ١٤٠٢
 - 14 _ يوسف كرم «تاريخ الفلسفة ألحديثة» دار المعارف ، القاهرة ١٩٥٧ .
- ١٥ ـ د. حلمي مرزوق «النزعة الرومانتيكية والواقعية في الادب الأصول الايديولوجية» دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٨٠
 - ١٦ ـ د. محمد غنيمي هلال «الأدب المقارن» (ط ٥) دار الثقافة ، دار العودة بيروت (د. ت) .
 - ۱۷ ـ د. محمد غنيمي هلال «الرومانتيكية» (ط ٦) دار العودة ، بير وت ١٩٨١ .
 - 11 مجدي وهبة «معجم مصطلّحات الأدبّ» دار القلم ، بيروت ١٩٧٤ .

دوريــات

- _ «الثقافة» مجلة شهرية تصدرهاوزارة الثقافة ، القاهرة (السنة التاسعة ، العدد ١٠٦ يوليو١٩٨٢).
 - «الفيصل» مجلة ثقافية شهرية ، الرياض (السنة السابعة ، العدد ٨١ ربيع الاول ٤٠٤٠)
 - «المستقبل العربي» مجلة فكرية شهرية يصدرها مركز دراسات الوحدة العربية بير وت .
 - _ «الندوة» جريدة يومية تصدرها مؤسسة مكة للطباعة والاعلام ، مكة المكرمة .
- . «النهضة» مجلة أسبوعية تصدر عن دار الرأي العام ، الكويت (السنة الخامسة عشرة ، العدد ٧٦٦

في ١٠ يوليو ١٩٨٢) .

_ «اليهامة» مجلة أسبوعية تصدر عن مؤسسة اليهامة ، الرياض (السنة الثلاثون ، العدد ٧١٦ في ١٣ ذي القعدة / ١٤٠٢) .

مراجع أجنبية

- "Guinness Book of World Records", by N.Mc Whirter, Bantam Books Ltd., (20th ed.) U. S. A. 1982.
- "the man-made world" (Engineering Concepts Curriculum Project)
 Graw Hill Book Company, Brooklyn.
- "Pears Cyclopaedia", by L. M. Barker and C. Cook, (82nd ed.) Pelham Book Ltd., U. K. 1973 4.
- Scott, A. F., "Current Literary Terms", The Macmillan Press, U. K., 1979.

النح صنعة الموالم

دراسة حديثة لقضية قديمة

د. سيد رزق الطويل

مقدمــة:

بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين ، محمد النبي العربي ، أفصح من نطق بالضاد ، وهادي البشر الى طريق الرشاد .

وبعدد:

فهذا بحث في قضية قديمة ، نعيد دراستها الآن بمنهج حديث ، يتسم بالتجريد وينأى عن مؤثرات السياسة ، والفكر الشعوبي ، ونوازع الفرق ، والتعصب الاقليمي ، لايراد به الا وجه الحقيقة والقاء الضوء الكاشف على قضية برزت في كتب التراث فترة من الوقت ، هي أن النحومن وضع الاعاجم ، وأنه صنعة الموالي .

فالى أي مدى يصح هذا القول ؟ وما أبعاد هذه الظاهرة ؟ وما أسبابها ؟ وما نتائجها في الدرس النحوي ؟ وأريد أن أقدم بين يدى هذا البحث أمورا :

أولا: أننا عندما نتحدث عن العجمة ، أوعن الاعاجم لا نريد سوى الاصطلاح الذي يحمله اللفظ وأنهم غير العرب ، فلا نصدر عن فكر شعوبي ، ولا عن تعصب للعرب لمجرد أنهم عرب فتلك أمور قضى عليها الاسلام ، وأذاب فروق الاجناس والالوان ، وإن استبقى عروبة اللسان ، وفضل هذه الامة في أنها أمة الدعوة التي حملت الهداية الى شعوب الارض في المشارق والمغارب .

وقد ورد لفظ العجمة في القرآن الكريم وفي الحديث الشريف ، ولم يقل أحد بأن اللفظ يعني تحقير القوم أو التنقص منهم ففي الحديث الشريف : ليس لعربي فضل على أعجمي الا بالتقوى (1).

(١) ورد في خطبة الوداع ، راجع صحيح البخاري ، وسيرة ابن هشام .

وفي الكتاب العزيز جاء قوله تعالى « ولوجعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمي وعربي . . قل : هوللذين آمنوا هدى وشفاء والذين لايؤ منون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى ، أولئك ينادون من مكان بعيد »

فلفظ أعجمي في الآية ماجاء الاليبين للعرب أن عروبة القرآن ماهي الآآية لاقناع المرتابين وأنه لوجاءهم بلسان آخر لكانت لهم حجة ، اذ كيف تتأتى عجمة الكتاب وعروبة الرسول ؟!

ثانيها: مع يقيني التام بها لأمة العرب من خصائص ، من أجلها اجتباها الله لان تكون أمة الرسالة ولان يكون منها الرسول الخاتم ، لكني أستبعد تماما ما كانت تردده العرب في جاهليتها من ادعاء التميز لهم على غيرهم من الامم المجاورة لها حتى وسموهم بالعجمة ، وهي تعني القصور عن مستوى الفصاحة ، وأن تجرد اللفظ تماما عن هذا المفهوم في لغة القرآن والحديث .

ثالثها: اللسان العربي - وقد نزل القرآن الكريم به - لم يعد لسان جنس من البشر يستمد كيانه من وجودهم وثقافتهم وظروفهم الحضارية، وإنها أصبح لسان دين دخل فيه أجناس شتى من البشر أسلموا، وعربهم اسلامهم، حتى دفعوا للتمكن من اللسان العربي، وكانوا أكثر غيرة عليه، وحرصا على استمراره ووجوده لأنه لسان القرآن نقطة الالتقاء لشعوب الاسلام جميعا.

ومن هنا لانعجب اذا وجدنا اعلاماً في علوم اللسان العربي من غير العرب ، توفروا عليه حيث وجد العرب الخلص أنهم اذ ذاك في غير حاجة اليه ، لكن الله تعالى بارك عمل هؤ لاء الاعلام حتى أصبح جهدهم العلمي موئلا للأمة العربية عندما استعجمت وبعدت ـ بسبب مؤثرات متنوعة ـ عن لسانها الفصيح .

أبعاد هذه القضية:

توفر على الدراسة النحوية منذ بزوغ فجرها عدد كبير من غير العرب بصورة لفتت أنظار العامة من الاعراب ، جعلتهم أحيانا يتهكمون بهم ، ويسخرون منهم ، وان كانت حركة التقعيد أرضت أولى الامروأهل الرأي وأصحاب الفكر للتصدي لظاهرة اللحن التي فشت حتى نالت من ألسنة الفصحاء ، ومع هذا لم يسلم الموالي المشتغلون بالنحومن تندر بعضهم ، وبخاصة من عرفوا بالفكاهة منهم ، يقول المبرد

: مرّ الشعبي بقوم من الموالي يتذاكرون النحو ، فقال : لئن أصلحتموه انكم لأول من أفسده (١) وبها عرف عن الشعبي من ظرف خفف من حدة تهكمه بأن شهد لهم بأنهم يصلحون .

ويتحدث الشيخ محمد طنطاوي رحمه الله بها يحدد أبعاد هذه الظاهرة في كتابه نشأة النحوفيقول: وكانت هذه النهضة الميمونة بالبصرة التي كان في أهلها ميل بالطبيعة الى الاستفادة من هذا الفن اتقاء لوباء اللحن الزاري بصاحبه، وبخاصة الموالي الذين كانوا أحوج الناس حينذاك الى تلقي هذا العلم، رغبة منهم في تقويم لسانهم، وتخليصه من رطانة العجمة وحبًا في معرفة لغة الدين الذي اعتنقوه، وطمعا في رفع قدرهم بين العرب، فصدقت عزيمتهم في دراسته والتزيد منه، وما انفكوا جادين بعدئذ حتى نبغ منهم كثير، قاموا بأوفي قسط في هذا العلم، وقادوا حركته العلمية، فكان منهم علماؤه المبرزون دراسة وتأليفا حتى أشير اليه ردحا من الزمن أنه علم موالي (٢).

وهكذا أشار الشيخ طنطاوي بايجاز الى نقطتين هامتين :

أولهما: البواعث التي حفزت هؤ لاء على الامعان في هذه الدراسة والتصدي لها

ثانيهما : المدى الذي وصل اليه القوم في هذه الدراسة .

أما النقطة الاولى فاني أخالف شيخنا العلامة في أنه كان في حساب القوم الهروب من رطانة العجمة ، والطمع في رفع قدرهم ، لانه لاأحد ينفر من لغته ، أو يمقت لسانه الاصلي وإنها هؤ لاء تحركوا للتعرف على اللسان العربي ، والاسهام في وضع قواعد له تعينهم على سبر غورة وفهم أسراره من أجل فهم القرآن الكريم وتدبره ، وليكونوا مسلمين عن علم ووعي ودراسة ، ولان الاسلام لايستقيم فهمه الا بالتعرف على لسانه ، والعربية لسان الاسلام .

وهؤ لاء الذين دفعهم دينهم الى دراسة اللسان العربي ماخالجهم شعور بالضعة ليرفعوه بدراسة اللغة ، وإنها شعورهم الذي ملك عليهم نفوسهم هوأن يصلوا من الاسلام الى الذروة والسنام .

⁽١) « الكامل » مع الرغبة « الرغبة » ج ٤ ص ١٩٣٠ .

⁽٢) نشأة النحوص ٣٤ دار المعارف .

ويما يؤيد ذلك ماحدث لسيبويه ، يذكر ابن هشام أنه جاء لحاد ابن سلمة لكتابة ألحديث فاستملى منه قوله صلى الله علية وسلم : ليس من أصحابي أحد الا ولو شئت لاخذت عليه ليس أبا الدرداء ، فقال سيبويه : ليس أبو الدرداء ، فصاح ، حماد : لحنث ياسيبويه انها هو استثناء فقال سيبويه : والله لاطلبن علما لايلحنني فيه أحد ، ثم مضى ولزم الخليل وغيره (١) .

أما المدى المذي وصلت اليه هذه الظاهرة فحسبنا أن نلقي نظرة على أعلام النحاة في القرون الثلاثة الاولى ، لنتعرف على أسمائهم وأنسابهم .

فعبد الله بن أبي اسحاق الحضرمي كان مولى آل الحضرمي توفى سنة ١١٧ هـ . وعيسى بن عمر الثقفي كان مولى خالد بن الوليد ، ونزل في ثقيف ونسب اليهم توفى سنة ١٤٩ هـ

والاخفش الاكبر أبو الخطاب عبد الحميد بن عبد الحميد كان مولى قيس بن ثعلبة من أهل هجر توفى سنة ٢٧٧ هـ .

وأبو عبد الرحمن يونس بن حبيب الضبي كان مولى بني ضبة توفي سنة ١٨٢ هـ وسيبويه أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر مولى بني الحارث بن كعب .

وأبو الحسن الاخفش سعيد بن مسعدة أوسط الاخافشة الثلاثة وأشهرهم كان مولى بني مجاشع بن دارم (بطن من تميم) .

والجرمي أبـوعمـروصالـح بن اسحاق كان مولى بني جرم من قبائل اليمن توفى سنة ٢٢٥ هـ

والرياشي أبو الفضل العباس بن الفرج كان مولى محمد بن سليهان الهاشمي ، ولقب بالرياشي لان أباه كان عبد الرجل من جذام اسمه الرياش ، فانتقل اللقب من أبيه بعد الشهرة اليه توفى سنة ٢٥٧ .

والتَّوَّزي أبو محمد عبد الله بن محمد كان مولى قريش من تَوَّز (بلدة بفارس) . والمازني أبو عثمان بكر بن محمد كان مولى بني سدوس (١) توفى سنة ٢٤٩ هـ . والروءاسي على رأس المدرسة الكوفية كان مولى محمد بن كعب القرظي . ومعاذ الهراء ، عم الروءاسي كان مولى القرظي أيضا توفى سنة ١٨٧ هـ . وأبو الحسن الكسائى ، زعيم المدرسة الكوفية كان مولى بني أسد توفى سنة ١٨٩

⁽١) مغنى اللبيب الباب الاول / مبحث ليد

⁽٣) هذا ما أثبتته كتب الطبقات ، ويري بعض الباحثين المعاصرين أن المازني عربي وليس مولى .

والاحمر النحوي الكوفي كان جنديا من رجال النوبة على باب الرشيد . والفراء يحيى بن زياد كان مولى لبني أسد . وأبو العباس ثعلب كان مولى لبني شيبان .

والزجاجي أبو القاسم عبد الرحمن بن اسحاق من نهاوند ، قدم بغداد ، وسمع من ابن السراج .

وابن درستويه نشأ بفسا من بلاد فارس وأقام ببغداد .

وابن قتيبة الدينوري نسبة الى الدينور من بلاد فارس .

وابن الخياط أبو بكر بن محمد أصله من سمرقند .

ونفطوية أبو عبد الله ابراهيم من واسط توفى سنة ٣٢٣ هـ .

لاريب أنه بالاطلاع على أسماء هؤلاء الاعلام ، وفيهم رواد هذه الصناعة وأثمتها وذوو الرأي والتوجيه فيها يتكشف لنا المدى البعيد الذي وصل اليه القوم في هذه الصناعة .

ونجد سؤ الا يفرض نفسه على هذا الحديث.

ما وضع العرب في هذه الأونة ؟ وماذا كان موقفهم من الموالي الباحثين في هذه الصناعة ؟

جمهرتهم وجدوا أنفسهم في غنى تام عن تكبّد هذه الصناعة ، فكيف يتأتى الاصحاب اللسان الذين تعد كلماتهم شواهد أن يتصدوا لهذا النوع من الدرس ، انه في هذه الفترة للموالى وحدهم .

وكان خلفاء بني أمية وولاتهم _ وكانت دولتهم كها يقول الجاحظ _ عربية أعرابية يبعثون أبناءهم الى البادية ليشبوا على اللسان الفصيح من معدنه الصحيح بعيدا عن أوزار اللحن الذي كان اذ ذاك عاملا من عوامل الزراية والتنقص .

وأهل البوادي قد خلوا الى لسانهم الفصيح ، وأحيطوا الى حين بسياج يحميهم من هجنة اللحن ، ولوثة العجمة .

ودخل بعضهم في معمعة هذه الصناعة ، وأدلى بدلوه فيها وكانت لهم جهود بارزة ، ومؤثرة . نذكر منهم أبوعمروبن العلاء المازني التميمي قاريء البصرة والخليل بن أحمد الفراهيدي الأزدي الذي قال فيه الزبيدي: « وهو الذي بسط النحو ومد أطنابه ، وسبّب علله ، وفتق معانيه ، وأوضح الحجاج فيه ، حتى بلغ أقصى حدوده ، وانتهى الى أبعد غاياته » (۱) ومع هذه المكانة العظيمة لم يؤلف ، وان كتاب سيبويه كما يرى كثير من المحققين أكثره من علم الخليل ، ويعلل الزبيدي ذلك بأن الخليل كره أن يكون تاليا لمن تقدموه في التأليف فيه .

ومنهم كذلك المبرد واللحياني وابن سعدان.

وهنا في طريق هذا البحث حقيقة لابد أن نجليها:

هي أن الموالي بالرغم من أنهم أصحاب دور كبير في هذه الصناعة فان القيادة العربية لدولة الاسلام حينذاك هي صاحبة الفضل في التفكير فيها ووضع الخطوط الرئيسية لها .

كها كان للخليل بن أحمد على نحوما أشرنا - أثر كبير في ترسيخها وبسط قواعدها .

نشأة النحو عربية:

لقد نشأ النحونشأة عربية ، ونبعت فكرته من أعهاق القيادة العربية للأمة الاسلامية وقد تناول أبو البركات الانباري ظروف نشأة النحو ، وعرض لما قيل في ذلك من أقوال .

فرأي يقول إنه عمر بن الخطاب ، وأنه أمر أبا الاسود بوضعه عندما قدم أعرابي المدينة يريد تعلم القرآن ، وعلمه رجل السورة ، وقرأ له الآية : « وأذان من الله ورسوله الى الناس يوم الحج الاكبر ان الله بريء من المشركين ورسوله » وقرأ رسوله بالكسر فقال الاعرابي : أو قد برأ الله من رسوله ؟ ان كان قد برأ منه فأنا منه بريء ، وبلغ عمر ماقاله الاعرابي ، وعلمه الضبط الصحيح للآية فقال : الاعرابي : وأنا والله بريء ممن بريء الله ورسوله منهم ، وأمر ألا يقرأ القرآن الا عالم باللغة ، وأمر أبا الاسود بوضع النحو .

 ⁽١) طبقات النحويين واللغويين للزبيدي .

وأيد العقاد هذا الرأي في كتابه عبقرية عمر وعدّ ذلك من أوليات الفاروق . لكن هناك ملاحظتان :

الاولى: عبارة لايعلم القرآن الاعالم باللغة وهل توافر في عهد الفاروق المدارس للغة الذي يقال عنه عالم بها ؟ ان الموجودين في عصره هم أهل اللغة الناطقون بها بفطرتهم الواعون لها بسليقتهم سوى بوادر يسيرة من اللحن كانت تنبه الغير من القوم الى الخطورة القادمة .

الثانية : تكليفة لأبي الاسود مما يدل على أن الرجل وقد دارت حوله أكثر الروايات كان معنيا بأمر المصحف.

والانباري ومعه القفطي يرجعان وضع النحوالي على بن أبي طالب وأن أبا الاسود قد تلقاه عنه ، ويذكران قصصا محددة وأبوابا معينة وضعت في النحو على يديه.

لكننا نلاحظ أن الروايتين تجعلان لابي الاسود دورا فعالا في عملية الوضع .

ويذهب ابن سلام في الطبقات ، وابن قتيبة في المعارف ، والزجاجي في الامالي ، وأبوالطيب اللغوي في مراتب النحويين ، والسيرافي في أخبار البصريين ، والزبيدي في الطبقات وابن النديم في الفهرست الى نسبة الوضع الى أبي الاسود الدؤلي .

واذا استبعدنا رأي من قال إن أول من وضع النحوعبد الرحمن بن هرمز المتوفي بالاسكندرية سنة ١١٧ هـ والرأي الآخر الذي يقول: ان أول من وضع النحو نصر بن عاصم الليثي المتوفي سنة ٨٩ هـ وجدنا أبا الاسود موجودا في كل الروايات.

والخلاف بين من قالوا بأن الواضع عليّ أو أن الواضع أبو الاسود هو في تقديري ليس بذي بال ، ولا يدعو للوقوف عنده .

فأبو الاسود كها أسلفت له سابقة بحث في قضايا اللغة وأمور اللحن ، وشئون المصحف ، فهو قد أعجم المصحف بالشكل لدفع التحريف ، وجاء من بعده تلميذه نصر بن عاصم وأعجم المصحف بالنقط لدفع التصحيف ، وكان مع نصر يحيى بن يعمر ووجهها لهذا العمل الهام الحجاج بن يوسف في عصر عبد الملك .

ومن ناحية أخرى نلاحظ أن أبا الاسود كان علويا محبا لعلي ، مدافعا عنه ، يلقى الاذى من أجل هذا الاتجاه السياسي ومع ذلك يصبر عليه . أقام في البصرة منذ عهد عمر ولم يبرحها برغم ماتعرض له من ايذاء ؟ اذ كانوا يرمونه بالحجارة ليلا في بيته ، ويعاتبهم فيقولون : ان الله قد رماك ، فكان يقول : لو رماني الله ما أخطأني ، فلا نستبعد مع هذا التفاني في البولاء لعلي أن يكون تكريها منه للخليفة أن ينسب اليه الفضل في التوجيه إلى وضع النحو ، ولا سيها أن خلافة على رضي الله عنه كانت حافلة بالاضطراب وكان الخليفة عنده من عظائم الامور ، وابتلاءات الفتن ماهو كفيل أن يصرفه عن التفكير في مثل هذه الامور .

وهنا أريد أن أنتهي الى النتيجة التي أريد الوصول اليها وهي أن وضع النحوكان عربيا محضا ، وما أشارت الروايات الى واحد من الموالي ، والذي يتابع الاسماء التي تناولتها الروايات يجد أصحابها جميعا من العرب الخلص وهم : عمر بن الخطاب ، علي بن أبي طالب ، أبو الاسود الدؤلي ، نصر بن عاصم ، يحيى بن يعمر ، الحجاج بن يوسف ، عبد الرحمن بن هرمز .

فالطبقة الاولى كانت عربية .

وشارك الموالي في الطبقة الثانية .

وجاءت جهود الخليل من الطبقة الثالثة ، فتجاوزت كل تصور ، وتتلمذ على يديه أئمة النحو من الموالي وغيرهم .

هل النحو من أصل سرياني أو يوناني ؟

هذه قضية خطيرة في طريق البحث .

ذهب بعض المستشرقين الى أن علم النحو منقول من لغة اليونان ، لان وضعه في العراق انها كان بعد اختلاط العرب بالسريان ، وتعلمهم ثقافتهم ، وللسريان نحو قديم ورثوه عن اليونان .

وهـذا رأي قد يجد بعض الظواهر التي تسانده ، وفي مقدمتها : وجود الدراسة النحوية في العراق وموروثات السريان وغيرهم من أصحاب الثقافات متوافرة في هذه البيئة ، ولان الدراسة النحوية نمت فيه نموا سريعا حتى ظهر كتاب سيبويه بصورته

المتكاملة والدقيقة ، بها فيه من شمول واستيعاب دون أن يسبقه مايكون بمثابة المقدمات له . والموالى الذين غلبوا على هذه الدراسة في داخلهم موروثات ثقافية .

وهذا كله في تقديري لا يسند الرأي الخاطيء .

فمن يقول إن أمة كالعرب تعتز بلسانها ، وتنفر من الالسنة الاخرى تستعير قواعدها من غيرها وأن العقل القادر على الابتكار لاتعوزه القدرة على انضاج العمل واكهاله ؟!

وما هو سلطان السريانية أو اليونانية الذي يحمل أمة ذات لسان عريق نزل به الكتاب العزيز أن تستمد قواعده منها ؟

وما الكتاب المناظر لكتاب سيبويه في السريانية حتى يصح أن يقال: ان كتاب سيبويه مأخوذ منه ؟!

ان هناك أمرا ينبغي أن يضعه هؤ لاء الزاعمون في حسابهم هوأن الخليل بن أحمد كان فلتة في تاريخ العقل البشري ، وأتى في كل فن بالعجب العجاب ، فله باع في الموسيقى ، وهمو مخترع علم العروض والقوافي ، وله قدرة رياضية فائقة ، وبجانب هذا قدرته اللغوية في التقعيد والاستنباط ، وأنه كان رائدا في صناعة المعاجم .

ورأي المستشرق ليتهان في محاضراته أدنى الى الانصاف في هذه القضية ، اذ يقول : اختلف الاورباويون في أصل هذا العلم - أعني النحو - فمنهم من قال : أنه نقل من اليونان الى بلاد العرب وقال آخرون : ليس كذلك ، وانها كها تنبت الشجرة في أوضها نبت علم النحو عند العرب ، وهذا هو الذي روى في كتب العرب من زمن ، ونحن نذهب في هذه المسألة مذهبا وسطا . . . وهو أنه أبدع العرب علم النحو في الابتداء ، وأنه لا يوجد في كتاب سيبويه الا مااخترعه هو والذين تقدموه لكن لما تعلم العرب الفلسفة اليونانية من السريان في بلاد العراق تعلموا أيضا شيئا من النحو ، وبرهان هذا أن تقسيم الكلمة مختلف . قال سيبويه أن الكلم اسم وفعل وحرف جاء لعنى وهذا تقسيم أصلي ، أما الفلسفة فينقسم فيها الكلام الى اسم وكلم ورباط ، وهذه الكلمات ترجمت من اليوناني الى السرياني ، ومن السرياني الى العربي ، فسميت هكذا في كتب الفلسفة لافي كتب النحو . أما كلمات اسم وفعل وحرف فانها اصطلاحات عربية ماترجمت ولا نقلت (۱) .

⁽١) محاضرات ليتهان .

ومع تقديري لسيات الانصاف ، ونزاهة البحث في كليات « ليتيان » لكني أخالفه في أن العرب تعلموا من السريان في العراق شيئا من النحو . هم تعلموا الفلسفة وأولعوا بالمنطق ، واستعانوا بالاخير في دعم الصناعة النحوية ، وأوغلوا فيه ، وظهر هذا الامر بوضوح على نحاة الموالي الذين عربهم الاسلام وهذه هي القضية التي ترتبت عليها نتائج هامة في مسيرة الصناعة النحوية لمسنا نحن المتأخرين آثارها ، ولازلنا نسعى الى التخفف منها لتتيسر أعباء هذا العلم على الدارسين المحدثين الذين تغالبهم عجمة ضارية ، وإفدة عليهم في ركاب الاستعار الاوروبي .

وللاستاذ أحمد أمين رحمه الله رأي في القضية ، قضية نشأة النحووعروبته ، فهو يؤمن بعروبة النحو ، ويوافق علماء التراجم والطبقات في نسبة وضع النحو الى أبي الاسود ، ولكنه يرى أن ذلك أطلق عليه باعتباره أول من تكلم فيه لكنه لايعد المؤسس الاول له وربها لم يكن يعرف اسم النحو بتاتا . . . انها الذي كان له الفضل الاكبر في ذلك هو الخليل بن أحمد ذو العقل الجبار المبتكر الذي قل أن يوجد له نظير في علماء ذلك العصر . . . وهو الذي عمل النحو الذي نعرفه الى اليوم (۱) .

وهكذا يصل بنا الاستاذ أحمد أمين الى النتيجة التي قررناها .

مسيرة النحو بعد الخليل:

تلقف الموالي الصناعة النحوية منذ نشأتها الاولى ، أسهموا فيها ، ثم كادوا يستأثرون بها ، فامعنوا في الصناعة ، وبالغوا في التقعيد ، وأعطوا أنفسهم قدرا من الثقة البالغة جعلهم يتصدون للفصحاء يحكمون عليهم بالخطأ والزلل .

فترى عيسى بن عمر الثقفي وهومولى خالد بن الوليد يراجع أبا عمروبن العلاء المازني التميمي ، متعجبا من تجويزه « ليس الطيب الا المسك » فقال له أبا عمرو: نمت ياأبا عمرو وأدلج الناس ، ليس في الارض حجازي الا وهو ينصب ، وليس في الارض تميمي الا وهو يرفع ، ثم قال لليزيد ولخلف الأحمر: اذهبا الى أبي مهدي فلقناه الرفع فانه لايرفع ، والى المنتجع التميمي فلقناه النصب فانه لاينصب ، فأتيا

^{. (}١) ضحى الاسلام جـ ٢ ص ٢٨٦ والصفحات التالية .

، وجهدا بكل منها أن يرجع عن لغته فلم يفعل ، فأخبرا أبا عمر وعنده عيسى ، فقال له عيسى : بهذا فقت الناس (١).

وهكذا ترى خبرة الرواية ، والسماع عن العرب عند عمروبن العلاء فاقت الامعان في القياس عند عيسى بن عمر ، فأذعن ثانيهما لاولهما .

ومن هنـا أقـول أن العرب الخلص لوعنوا بهذه الدراسة ، وكانوا سوادا غالبا بين أعلامها لكان النحو ومعه التصريف أكثر تخففا من الاوزار التي يحملها الأن .

ان أبرز سمة لتولي الموالي صناعة النحوفي هذه المرحلة غلبة المنطق وسلطان القياس .

وهي النقطة التي أرى أنها موطن التأثر بها نقله السريان عن منطق اليونان .

وهي التي جعلت النحو البصري تغلب عليه هذه النزعة وفي سبيله يهدرون الكثير من المسموعات متى خالفت أقيستهم .

ووقفوا بالتالي في وجه بعض القراءات الصحيحة .

يقول أبو الطيب اللغوي عن عبد الله بن أبي اسحاق الحضرمي: وكان يقال: عبد الله بن أبي اسحاق الحضرمي أعلم أهل البصرة وأعقلهم ففرع النحووقاسه (٢).

وهذه صورة لانتصارهم لقياسهم على قراءات القرآن:

يقول ابن يعيش: وأما قوله تعالى: « واتقوا الله الذين تساءلون به والارحام » بجر الارحام في قراءة حمزة فان أكثر النحويين قد ضعف هذه القراءة ، نظرا الى العطف على المضمر المخفوض ، وقد رد أبو العباس محمد بن يزيد هذه القراءة ، وقال : لاتحل القراءة بها ، وهذا قول غير مرضي من أبي العباس ، لانه قد رواها أمام ثقة ، ولا سبيل الى رد نقل الثقة ، مع أنه قد قرأتها جماعة من غير السبعة كابن مسعود وابن عباس والقاسم ، وابراهيم النخعي ، والاعمش والحسن البصري ، وقتادة ومجاهد ، وإذا صحت الرواية لم يكن سبيل الى ردها (٣).

⁽١) مغني اللبيب جـ ٢ ص ٢٩٤ مطبعة المدني .

⁽٢) مراتب النحويين .

⁽٣) شرح المفصل حـ٣

والظاهرة اللافتة للنظر حركة الصراع بين أئمة القياس وبين المتبرمين بهذا الاتجاه ويخاصة الشعراء .

وقد أشرت في مقدمة هذا البحث الى كلمة الشعبي التي رواها المبرد ، وهويتندر بالموالي المنشتغلين بالنحو .

وأوضح صورة لهذا الصراع ملاحقة أبي بحر عبد الله بن أبي اسحاق زيد الحضرمي البصري للشاعر الفرزدق ، وحفلت بذلك كتب الادب والطبقات والنحو ومن ذلك :

حضر الفرزدق مجلس عبد الله بن أبي اسحاق ، فقال له عبد الله : كيف تنشد هذا البيت :

وعينان قال الله: كونا ، فكانتا فعولان بالالباب ماتفعل الخمر

فأنشده: فعولان ، فقال له عبد الله: ما كان عليك لوقلت: فعولين ، فقال الفرزدق لوشئت أن أسبح لسبحت ، ونهض ، فلم يعرفوا مراده . فقال : عبد الله: لوقال : فعولين لاخبر أن الله تعالى خلقها وأمرهما ، ولكنه أراد أنها تفعلان ماتفعل الخمر (1) .

ويقول الفرزدق في احدى نقائضه يمدح عبد الملك بن مروان :

وعض زمان يابن مروان لم يدع من المال الا مسحتا ، أو مجلف

فقال ابن اسحاق في اعنات وتحد : بم رفعت مجلف ، فقال له : بما يسوءك وينوءك علينا أن نقول ، وعليكم أن تتأولوا (٢) .

ويعرض كتاب الشعر والشعراء نهاذج عدة لهذه المطاردة بين الحضرمي والفرزدق منها غير ماسبق .

قال الفرزدق في مدح يزيد بن عبد الملك ، وهجاء يزيد بن المهلب :

مستقبلين شهال الشام تضربنا بحاصب كنديف القطن منشور على عهائمنا يلقي ، وأرحلنا على زواحف تزجي مخها رير

(١) الاشياء والنظائر للسيوطي (الفن السابع)

(٢) الشعر والشعراء راجع المقدمة وباب نقد الشعر .

فقال ابن اسحاق انها هو « رير » بالرفع ، وان رفع « أقوى » أي دخل في الاقواء وهو من عيوب القافية : بأن يختلف حرف الروي من ضم الى جر . فغضب الفرزدق ، وقال : أما وجد هذا المنتفخ الخصيتين لبيتي مخرجا في العربية ؟ أما اني لوشئت لقلت:

على عمائه منا يلقي وأرحلنا على زواحف تزجيها محاسير وهجا الفرزدق عبد الله بن اسحاق ، وقال في هجائه :

ولـوكان عبـد الله مولى هجـوتـه ولكن عبـد الله مولى مواليا(١)

فقال عبد الله : عذره شر من ذنبه ، فقد أخطأ أيضا والصواب مولى موال (٢) .

ولم يقف الصراع بين النحويين والادباء عند هذا المدى بل ظل يسير على هذا المنهج حتى رأينا المتنبي يثور على ابن جني ، وكان المتنبي معتدا بشعره يضيق بنقاده ، ويسخر منهم ، وكأن النقاد يعملون في خدمة شعره ، ويقول في ثقة واعتزاز :

أنام ملىء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم

وكان يسأل عن أمر من أمور النحوفي شعره فكان يقول : سلوا هذا الاعور فانه يخبركم عما قلته وعما لم أقله .

وهذا _ منه _ امعان في السخرية بغمل النحاة .

والتعبير عن الاشتغال بالنحو بلفظ الصنعة وهو تعبير قديم ؟ يوحي بها فيه من تكلف الاقيسة ، وظل هذا التعبير على ألسنة الكاتبين يطلقونه على النحاة لا على سواهم من المشتغلين بالعلوم الاخرى . ولا تزال في أذهاننا وآذاننا كلمة ابن خلدون في ابن هشام : ان ابن هشام على علم جمّ يشهد بعلو قدره في صناعة النحو .

والامعان في التمرينات غير العملية في الجانب التصريفي منذ عصر سيبويه حتى قرون كثيرة بعده يدل على غلبة الفلسفة والمنطق على هذه الصناعة على يد الموالي

⁽١) المرجع السابق .

⁽٢) هذه التخطئة معروفة في كتب النحوراجع سيبويه جـ ٢ ص ٥٨ الاميرية ، وشرح المفصل لابن يعيش

وشعر النحاة أنفسهم بهذا الامعان وانتقد بعضهم بعضا فيه .

ومن ذلك مايراه النحويون في قوله تعالى : « ولن ينفعكم اليوم اذ ظلمتم انكم في العذاب مشتركون » وأن « اذ » بدل من اليوم مع اختلاف الزمن . قال أبو الفتح ابن جني : راجعت أبا علي مرارا في هذه الآية مستشكلا ابدال « اذ » من اليوم ، فآخر ما تحصل منه أن الدنيا والآخرة متصلتان ، وأنها في حكم الله تعالى سواء ، فكان اليوم ماض ، أو كأن « اذ » مستقبلة (١).

وهو بهذا يكشف عن صورة من صور التكلف في هذه الصناعة ، وكان للفارسي ، أستاذ ابن جني ضلع كبير فيه حتى أن عضد الدولة البويهي وكان معجبا به ، متتلمذا عليه ، وألف له الفارسي كتاب الايضاح فاستصغره ، فاغتاظ الفارسي وكتب له كتاب « التكملة » فقال عضد الدولة : غضب الشيخ فجاء بها لانفهم نحن ولا هو (٢)

وبالرغم من هذا كان الفارسي ينتقد معاصره أبا الحسن علي بن عيسى الرماني ، وينكر عليه ايغاله في الفلسفة حتى صار النحوغير مفهوم منه ، وقال فيه قولته المشهورة: ان كان النحومايقوله الرماني فليس معنا منه شيء ، وان كان النحومانقوله نحن فليس معه منه شيء (٣).

ولم تكن نتيجة غلبة المنطق والفلسفة على الدرس النحوي مقصورة على هذا الصراع المذي وقفنا على صور منه ، وإنها نتج عنه كذلك باب واسع من الفروض النظرية .

ومن ذلك باب العلل وفلسفة العوامل النحوية

وتصوري لهاتين القضيتين التي أعدهما من نتائج عمل الموالي في النحو، واللتين كانتا من ناحية أخرى مصدرا لثورة ابن مضاء في المغرب على النحاة تأثرا بالاتجاه الظاهري الذي كان سائدا في كل شيء في مغرب العالم الاسلامي أقول تصوري لهاتينم القضيتين يختلف تماما عما يراه بعض الكاتبين.

⁽١) المغني جـ ١ ص ٨٢

⁽٢) راجع نزهة الالباب ترجمة الفارسي

⁽٣) المرجع السابق.

فأبوحيان في الارتشاف يرى أن اللغات لاتمنطق ولا تعلل ، وهوقول على جانب كبير من الصواب ، لكن العلة لون ضروري من اقناع العقل البشري الذي يجري وراء الاسباب ، ويبحث عن الدوافع ، ومن الظلم أن نتركه بلا اقتناع .

فهناك قدر ضروري من العلل لابـد منـه لمسـانـدة القـاعـدة ، وليرضي العقل المتطلع .

أما أن تتحول العلل الى غاية ، ويتجرد لها الكاتبون ، ويؤلفون ثم يجد المؤلفون شراحا لما يكتبون ما أرى ذلك في تاريخ النحو الا لونا من الجهد الضائع ، والضرب في بيداء على غير هدى ، ولا برهان للانسان الذي يكد في هذا السبيل الا الحدس والتخمين ، وسواء هدى الى العلة الحقيقية أم وقفت دونه عقبات فليس ذلك بضائر الدرس النحوي شيئا .

وأما العوامل النحوية فبرغم نقد الحركات التجديدية المعاصرة لها فاني أراها منهجا تربويا في توصيل القاعدة أكثر منها ظاهرة نحوية ، أو خصيصة لسانية . وفي ظل هذا الفهم نستطيع أن نستثمرها على أساس أنها خطة تربوية تعطي لونا من التجسيد للظاهرة الاعرابية تدنيها الى أفهام الدارسين المحدثين وذلك لان الاثر عندما ينكشف مؤثره يصح تصوّره ، ويتيسر فهمه ، والنائي الشارد الذي نظنه بعيدا يمسي قريبا .

ويهذا نسد بابا من أبواب الجدل لايزال مفتوحاً على مصراعيه حتى عصرنا الحاضر .

الحركات التجديدية المعاصرة:

ان الحركات التجديدية المعاصرة في النحو ، والتي اتجهت بالنقد لبعض مناهجه القديمة ، سواء صدرت بحسن نية وهذا ما أرجحه ـ أو بغير ذلك وهذا أمر لاتتوافر عندي الدلائل للحكم به هي في حقيقتها لون من التعبير عن السخط الذي ظل يتجه الى النحو في ظل قيادة الموالي له ، وما انتهي اليه رأيه من تعدد الاراء وتشعب المذاهب حتى انطلقت عبارة رددها المشتغلون بالنحو ويجب عليهم أن ينكروها وهي أن النحوي لا يخطىء أبدا .

واذا كان اشتغال غير العرب بالنحو وصل به الى هذه الصورة فهذا جهد مشكور ، وعلاج الاخطاء سهل ميسور .

> فالمحنة ليست في ظاهرة الاعراب . وليست في العلل والاخذ بها . ولا في فلسفة العوامل .

فهذه ، كلها يمكن أن تتحول الى مزايا ـ وهي في حقيقتها كذلك ـ نعض عليها بالنواجذ واصلاح اللغة والنحو ـ في تصوري ـ جانب كبير في خطة الاصلاح الاسلامي واللغة العربية هي خط الدفاع الاول عن الاسلام . والعودة الى القرآن الكريم خطة مستقيمة لاصلاح اللسان واصلاح الانسان واصلاح المجتمع كله .

وماذا لوجعلنا لغة القرآن الكريم مقياسا أمثل للغة الفصيحة ، متخلين عن التأول والتكلّف ، والجري وراء بيت من الشعر مصنوع ، أو الوقوف طويلا أمام بيت لشاعر مجهول ؟!

انني أرى أن الحركة الاسلامية المعاصرة يسايرها أوينبغي أن يسايرها حركة اصلاح لغوي تبحث عن الامثل ، وتجري وراء الحق ، وتحاول أن تضع أقدامها على الطريق الصحيح .

والدارس المعاصر الذي أصبح بين يديه الكثير من التراث سيتسع أفقه لتصورات صحيحة وافهام صادقة ، وسيدرك الظروف والملابسات وخطط الاعداء في القديم والحديث . وعليه أن يأخذ بالاسباب فمن سار على الدرب وصل وعند الصباح يحمد القوم السرى .

والامل في المستقبل كبير ، لكن الامل بلا عمل لون من الاماني الباطلة ، وأردد في هذه المناسبة بيتا كا يردده عضد الدولة ، واتخذ منه الفارسي شاهدا مع أن صاحبه أبا تمام بعد عصر الاستشهاد وهو قوله :

من كان مرعبي عزمه وهمومه ووض الاماني لم يزل مهزولا

وأخلص من بحثي هذا الى تقرير عدد من النتائج أراها ثمرة له :

١ ـ كانت نشأة النحو عربية خالصة لاريب فيها .

٢ ـ تأثر الدارسون للنحوفي عهد قيادة الموالي له بمنطق اليونان وفلسفتهم ، لكن لم ينقلوا عنهم نحوهم أويتأثروا بقواعد لغتهم ، والقول بتأثر النحو بنحو العبرية أو السريانية بعيد عن الصواب .

٣ ـ التندر بالنحو والنحاة ظاهرة قديمة سببها الامعان في الصنعة ، وكثرة التكلف ، ولا زلنا نذكر ثورة الكسائي على الاصمعي في مجلس الرشيد ، والكسائي يردد البيتين (١) .

أني جزوا عامرا سوأ بفعلهم أم كيف يجزونني السوأى من الحسن أم كيف ينفع ماتعطي العلوق به رئهان أنف اذا ماضن باللبن

وقال الكسائي « رثمان » بالرفع فرد عليه الاصمعي بأن الوجه النصب فقال له الكسائي اسكت ، ما أنت وذاك فيه الرفع والنصب والجر . . . وسكت الاصمعي مع أنه على صواب .

٤ ـ اللغة هي خط الدفاع الاول عن الاسلام وأعداء الاسلام كثيرا ما يحاولون ضرب المسلمين بقطع لسانهم الفصيح الذي يربطهم بتراثهم القويم .

• _ لابد من مساندة الدراسات النحوية النابعة من القرآن ، والدائرة حوله والدراسة له على أساس أنه سجل للغة في أفصح صورها ، وان كنا لن نأتي بجديد في التقعيد .

ت حكن الانسان من اللسان العربي يربطه بالاسلام برباط وثيق فالمسلمون من غير العرب ، عرب الاسلام لسانهم فكانوا قوة عظيمة على طريق الحضارة الاسلامية ٧ ـ حفظ القرآن الكريم خطوة أساسية لدراسة نحوية خصبة ومثمرة ، وأمر لابد منه لكى تعود للغة صوتياتها وخصائصها التعبيرية .

وأخيرا أرجو أن أكون _ في هذه الصفحات قد قدمت للاخوة الفضلاء أفكارا ذات بال ، تلقي ضوءا على تاريخ هذا العلم العريق ، وتكشف جانبا من أسرار هذه الدراسة ، تعيننا في خطة الاصلاح المأمولة ، فان وفقت في ذلك فالفضل لله وحده ،

⁽١) مغني البيب جـ ١ ص ٤٦

وان كانت الاخرى فاني أؤكد لكم أني ما ألوت جهدا ، ولا ادخرت وسعا ، وحسبي أني أبلغت نفسي العذر ، ومبلغ نفس عذرها مثل منجح .

(وما توفيقي الا بالله عليه توكلت واليه أنيب)

دكتور السيد رزق الطويل ـ أستاذ مشارك بكلية اللغة العربية ـ جامعة أم القرى

أهم مراجع المحاضرة - مرتبة أبجديا

- ١ ـ القرآن الكريم
- ٢ _ الاشباه والنظائر _ السيوطى
- ٣ _ رغبة الأمل من كتاب الكامل _ المبرد _ المرصفي
 - ٤ ـ شرح المفصل لابن يعيش
 - الشعر والشعراء لابن قتيبة
 - ٦ _ صحيح البخاري
 - ٧ ـ ضحى الاسلام _ أحمد أمين
 - ٨ _ طبقات النحويين واللغويين للزبيدي
 - ٩ ـ الكتاب لسيبويه
 - ١٠ ـ مغنى اللبيب لابن هشام
 - ١١ _ نزهة الالباب في طبقات النحاة
 - ١٢ _ نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة

الخطام المتناثر في

تضاعيف اللغة العربية

د. عبد العزيز برهام

القسم الأول

النظرية

ظاهرة التطوراللساني

أملاً: فكرة التطور في اللغية

تضم اللغة ، أي لغة ، مجموعة من الانظمة تتعاون فيها بينها لاداء الغاية من وجودها . فهناك النظام الصوتي ، وهناك النظام البنيوي ، وهناك نظام الدلالة المعنوية .

هذه هي النظم الاساسية التي تكون هيكل اللسان .

وقد أثبتت الدراسات العلمية ، أن اللغة بنظمها الثلاثة لاتستقر على حال ، فهي دائمة التغير ، وان بدرجات متفاوتة ، فالنظام الصوتي اليوم ليس هونظام الامس بحذافيره . وقل مثل هذا في النظامين الآخرين .

ومعنى التطور اللغوي أن لغة اليوم غير لغة الامس بقضها وقضيضها. فلغة صحافتنا اليوم ، ولغة التأليف ليست هي اللغة التي كانت تجري على ألسنة وأقلام القدامى . بل هناك تفاوت يمكن أن نلحظه في النطق بالاصوات ، وبناء الجملة ، ودلالة الكلهات المعنوية وغيرها .

ومعنى هذا أننا لو استعرضنا حالة لغةٍ ما على مدى ألف سنة مثلا ، لوجدنا فوارق قد تكون محسوسة في الصور التي اتخذتها اللغة خلال هذه الفترة الطويلة .

سنجد كلمات اختفت من الاستعال ، وحل محلها أخرى ، وأساليب بليت وجدت أساليب تخالفها ، ومعاني حلت محل أخرى قديمة أو أضيفت الى الحصيلة التى نقلها الينا الزمان .

هناك اذن أطوار متعددة تمر بها اللغة ، متى طال باستعمالها الزمان . وفي كل طور من هذه الاطوار تتغير إلى حد ما سمة اللغة . وليس معنى هذا أن لغة الامس تختفي كليةً ، لتحلّ محلها لغة جديدة . وإنها معناه أن لغة الامس تطعم بعناصر جديدة قد تطغي على القديمة وقد تسير معها جنبا الى جنب .

وهذا الامر يختلف من نظام لأخر من النظم التي أشرنا اليها .

لقد مرت اللغة العربية مثلا بعصر كان أسلوب الاسترسال فيه هو السائد ، ثم تلاه أسلوب السجع ، ثم عدنا في العصر الحاضر الى أسلوب الاسترسال ، ولكن أسلوب السجع لم يختف كلية ، بل ظل يستعمل في مناح متعددة ولا سيما في الخطب المنبرية .

وهـذا التطور اللغوي أمرطبيعي مادام الذين يتحدثون اللغة هم أهلَها ، لان لهم بهذه الصفة حقَّ الابتكار ، والتوسع ، والتضييق في الاستعمال ، واحلال جديد محل قديم .

أما غيرهم ممن يستعملون اللغة عن طريق الاستعارة ، فليس من حقهم مجاوزة الحدود التي وضعت للغة التي يستعير ونها . ولذلك رأينا علماء اللغة القدامى يضعون حدودا فاصلة من حيث الزمان والمكان والاشخاص ، للتفرقة بين مايقبل وما لايقبل من اللغة . أوبعبارة أخرى أسمو التي كان يعيش فيها أهل اللغة العربية «الأصلاء» عصور الاحتجاج . فما قيل في تلك الفترة مسلم به ، وأما ما قيل في غيرها فدخيل ومؤلد ، ولو نطق به العربي .

كذلك قالوا إن أكثر ما ورد عن أهل اللغة سهاعي ، وقياسي ؛ وقليل منه شاذ. وأما مايرد من غير أهلها فقياسي لاغير .

فاللغة بهذا مرت بأطوار ، لكل طور منها طابعُه ، وإن لم تتباعد صور الأطوار بعضُها عن بعض إلا اذا فصل بينها زمن طويل .

ولقد أدرك أسلافنا القدامي فكرة التطور اللساني هذه ، وجرت على أقلامهم ، وله يجدوا فيها مايَعِيب . بل على العكس من ذلك . آمنوا بحدوثها لأنها أمر طبيعي ، اذ هي الوسيلة المثلى لنمو اللغة .

لقد أدرك بعض علمائنا الاقدمين - غفر الله لهم - بحسهم المرهف ، أن العرب قد تنطق بها يخالف القياس الذي يقول به النحويون ، فلم يرمُوهم بالخطأ . بل أن مانطق به الأعراب ، قد يكون وصل إليهم من لغة قديمة اندثرت معالمها ، ولم يبق منها إلا صبابة ، ظلت عالقة باذهان من ينطقون بها .

يقول الله _ سبحانه :

« ماهذا بَشَراً ، إِنْ هذا الا مَلَك كريم » (١)

قال الـزمخشـري في « الكشـاف » : وإعـمال (ما) عمل ليس هي اللغة القُدْمَى الحجازية ، وبها ورد القرآن . ومنها قوله تعالى : « ماهُنَّ أُمهاتِهمْ » (٢) . ومن قرأ على سليقته من بني (تميم) قرأ : « بَشَرٌ » بالرفع . وهي قراءة ابن مسعود ا هـ .

⁽١) سورة يوسف ١٢ / ٣١ .

⁽۲) المجادلة ۲ / ۵۸ .

ويكمل أبوحبان الفكرة في (البحر المحيط) فيقول :

« وانها قال القُدْمَى ، لأن الكثير في لغة (أهل) الحجاز إنها هوجر الخبر بالباء . فتقول مازيد بقائم . وعليه أكثر ماجاء في القرآن . أما نصبُ الخبر ، فمن لغة (أهل) الحجاز القديمة ، حتى أن النحويين لم يجدوا شاهدا على نصب الخبر في أشعار الحجازيين غيرَ قول ِ الشاعر :

تصل الجيوش إليكما أقوادُهما (١) وأنا النذير بحرة مسودة حنِقـوا الصـدور، وما هم أولادُهـا أبناؤها متكنفون أباهم

وقال الفراء ^(٢) : لايكاد أهل الحجاز ينطقون الا بالباء . فلما غلب على أهل الحجاز النطق بالباء ، قال الزغشري « اللغة القُدْمَى الحِجازية » . فالقرآن جاء باللغتين : القدمي وغيرها (أهـ) .

فالزمخشري يدرك إذن أن هناك لغة قُدْمَى لأهل الحجاز ، لايكادون ينطقون بها اليوم ، في حذف الباء من خبر ما . ويؤيده في ذلك القرطبي ، وأبوحيان ، والفراء ، وصاحب زاد المسير ^(٣) ، وغيرهم .

وقد جاء القرآن باللغتين ، كما يقول الفراء صراحة ، وان كان ماورد فيه من اللغة الحجازية القديمة لايجاوز ثلاث آيات ، الاثنتين اللتين مرذكرهما في كلام الزمخشري، وقولَه تعالى: فها منكم مِنْ أرحدٍ عنه حاجزينَ (١) ولم يقل أحد من النحاة إن استعمال خبر ما بدون باء هنا (شاذ) . بل أقروا بالتطور اللغوي ، أي أن هناك لغة حجازية قَدْمَى ، وأخرى حديثة ، وأن القدمي بقيت منها بقية وردت في كتاب الله الكريم . وهذا هو موضوع بحثنا .

⁽١) النذير المعلم ، لايخوف القوم ، بها يدهمهم من عدو ونحوه .

الحرة : (بفتح الحاء) : الارض ذات الحجارة السوداء . وأراد: الكتيبة السوداء ، لكثرة ماتحمل من الحديد . (أقوادها) جمع قود ، وهي الجهاعة من الخيل . (أبناؤها) : أي أبناء هذه الكتيبة التي ينذرهم بها ، وأراد : رجالها . و(أَبَاهُم) : القَائد . (مكتنفون) : احتاطوا به ، والتَّفوا حوله (أنظر البحُّر المحيط ٥ / ٣٠٤ : شرح ابن عقيل ١ / ٣٠٢ ، الجامع لاحكام القرآن للقرطبي ٩ / ١٨١ .

⁽٢) معانى القرآن ٢ / ٤٢ .

^{. 119 / 8 (4)}

⁽٤) الحاقة ٦٩ / ٤٧ .

هذا وقد ذكر القرطبي في الجامع لاحكام القرآن (١) ورود الآية في مصحف حَفْصَةَ (رضي الله عنها) بالباء . « ما هذا ببشر » ، وأورد أحمد الغزنوي ذلك . ويمكن أن نقول ، كما قال الزمخشري بالنسبة إلى تميم : إنها نطقت بسليقتها .

ويقول الفراء (٢٠): إن أهل (نجد) يتكلمون في خبر (ما) بالباء ، وبغير الباء . فاذا أسقط وهـا رفعـوا . وذكـر القـرطبي أن البصـريـين ، والكوفيين حكَوا : «مازيدُ م منطلق » (بالرفع) ، وذهب البصريون الى أنها لغة تميم ، واستدلوا بقول الشاعر :

(أَتَّـيْـماً) يجعـلون إلى نَدًّا ؟ ومـا (تيـمُ) لذي حسبٍ نَدِيـدُ! وذهب الكسائي إلى أنها لغة تهامة ونجد .

ويذهب الفراء الي أن الرفع في العربية أقوى من النصب . ومن رفع خبر (ما) قول الشاعر :

جميعا، فها هذان مستويان وكـلُّ فتـيً والمـوتُ يلتـقـيان

تمنَّـوُا لِي المـوتُ الـذي يَشْعَب الفتى وقول الآخر :

ونساقمة (عمرو) مايُحَـلٌ لها رحلُ^(٣) وما أنت فَرع يا (حُسيْلُ) ولا أصلُ. ركاب (حُسيْل) أشهر الصيف بُدَّن ويـزعم (حِسْل) أنه فرعُ قومه

لَشَتُّ ان ما أُنْـوي ، وَينْـوى بنــوأبي

^{. 1}AY / 4 (1)

⁽٢) معاني القرآن ٢ / ٤٣ وزاد المسير ٤ / ٢١٩ .

⁽٣) معاني القرآن للفراء ٢ / ٤٣ ـ الانصاف المسألة رقم ٤٣٧ ص ٦٩٤

الركاب : الآبل ، ولا واحد لها من لفظها . واحدها راحلة . (أشهر الصيف) : مركب اضافي ، صدره منصوب على الظرفية . (البدّن) جميع بادن ، وهو الكثير اللحم ، العظيم البدن . وأشار به (بدّن) الى أنها لاتعمل ، ولا يؤخذ منها شيء من دم أولبن . وقابله بقوله : (ما يحل لها رحل) أي أنها على سفر دائها . (حسل) اسم ، وأصله ولد الثعلب . و(حسيل) تصغير . والشاهد في إهمال (ما) النافية على لغة (تميم) .

وقال الفرزدق:

وما نحن راعودارها بعد هذه يد الدهر إلا أن يمر بها سَفْر (١)

هذا ، وقد قال الزنخشري في تفسير قوله تعالى : إِذَ أَنْتُمُ بِالْعُدْوَةِ الدنيا ، وهم بِالْعُدُوةِ الدنيا ، وهم بِالعُدُوةِ القُصْوَى .

«ويقول سيبويه في « باب ما أُجْرِي مُجْرَى ليس . . . »

ومثل ذلك قوله (عزوجل) « ما هذا بَشَرًا » في لغة أهل الحجاز. وبنوتميم يرفعونها إلا من دَرَى كيف هي في المصحف . . . ثم يقول :

وتقول : (مازيد الا منطلق) ، يستوى فيه اللغتان . ومثله قوله (عزوجل) ما أنتم إِلا بشرٌ مِثْلُنا (٢) ثم يقول :

«وزعموا أن بعضهم قال ، وهو الفرزدق (٣):

فأصبحوا قد أعداد الله نعمتهم إذ هم (قريش) ، واذ ما مثلَهم بشرُ وهذا لايكاد يعرف ، كما أن « لات حينُ مناص » كذلك ا هد.

« الدنيا والقُصْوى تأنيث الادنى ، والاقصى . فان قلت : كلتاهما فُعْلَى (من بنات الواو) ، فلمَ جاءت إحداهما بالباء ، والثانية بالواو ؟

قلت: القياس هوقلب الواو، كالعُلْيا، وأما القصوى فكالقَود في مجيئه على الاصل. وقد جاء القُصْيا. الاأن استعال القصوى أكثر، كما كثر (استصوب) مع مجيء (استصاب)، و (أغْيَلَتْ) مع مجيء (أغالت).

والعُدوة الدنيا مما يلي المدينة ، والقُصوى مما يلي مكة ا هـ . »

⁽١) معاني القرآن للفراء ٢ / ٤٣ .

⁽Y) الكتاب ١ / ٥٩ .

⁽٣) الكتاب ١ / ٥٩ ـ ديوان الفرزدق ٢٧٣ ـ الخزانة ٢ / ١٣٠ وهومن قصيدة يمدح بها عمربن عبد العزيز. أي اعاد لقريش ما كانوا فيه من الخير ، حين كان جده مروان واليا عليهم . استشهد به على تقديم خبر (ما) منصوبا ، والفرزدق تميمي يرفعه مؤخرا ، فكيف إذا تقدم (المحقق) .

فالزيخشري هنا أيضا يقر بوجود لغتين ، الحديثة منها تجري على سَنن القياس ، والأخرى خارجة عنه ، وهي الأصل أي الأقدم في الوجود . ولكنه يعقب على هذا بقوله (إن استعال القصوى أكثر » مع وجود (القُصْيا » أي أن الصيغة القُدْمَى ظلت مستعملة أكثر من الجديدة ، وظلت الاثنتان تسيران جنبا الى جنب ، كما هو الشأن في استصوب ، واستصاب .

هذا والذي نقوله عن التطور في احدى الالسنة ، نستطيع أن نقول مثله في ولغات العرب» . أي لهجاتها فنحن نعلم أن اللغة العربية بعد أن انفصلت عن الام السامية كانت وسيلة التعبير لطائفة كبيرة من القبائل العربية ، وأن هذه القبائل السامية كانت وسيلة التعبير لطائفة كبيرة وأخذت لغة كل منها تتكيف بالبيئة التي انتشرت بعد فترة من الزمان في أنحاء الجزيرة وأخذت لغة كل منها تتكيف بالبيئة التي تعيش فيها . هناك اذا تطور أصاب كلا منها ، عبر عمرها الطويل ؛ ولكنه لم يسر بدرجة واحدة ، فقد سار خطوات فساحا في بعضها ، ووئيدة في بعضها الآخر أو بين بين . ولذلك لا نعجب اذا وجدنا بينها تباينا في الاستعالات اللغوية ، فمنها ماظل قريبا من اللغة ـ الام ، ومنها ما بعد عنها ، ولكن ظل صداها قائها فيه . واللغات السامية الاخرى أكبر دليل على ذلك .

ولوأن الرواة الذين جمعوا هذه اللغات المتعددة نقلوا الينا لسان كل قبيلة على حدة ، لاستطعنا أن نؤرخ لها جميعا تأريخا علميا موثقا . ولكنهم جعلوا المراحل الزمنية والتطورية المختلفة مرحلة واحدة . وهنا كانت المشكلة ، ونحن اليوم حين نحاول أن نترسم خطا هذه المراحل التطورية ، انها نعمل عقولنا فيها وصلنا من هذه اللغات (اللهجات) من صيغ وأساليب وتعابير ، وغيرها مما علق بأهداب اللغة المشتركة التي جاء بها كتاب الله الكريم ، وشعر الجاهليين .

هذا ، وكما ضيق الرواة دائرة الاخذ ، من حيث الزمان والمكان ، ضيقوا دائرة المأخوذ عنهم . فيكادون يحصرونهم في بني قيس وتميم وأسد . فان هؤ لاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ، ثم هذيل ، وبعض كنانة ، وبعض الطائيين (۱) ، وهذه القبائل التي اعتمد عليها في الاخذ هي قُلّ من كُثر ، وغيض من فيض . وهي لاتمثل العربية تمثيلا كاملا . والا فأين هي من العرب المنتشرة في الجزيرة العربية ؟ قد تكون حجتهم الحرص الشديد على سلامة اللغة ، وخوفهم من تسرب اللحن اليها . ولكن يقف في الحرص الشعرطي ص ١٩ ، اللهجات العربية في التراث للدكتور أحمد علم الدين الجندي جـ ١ ص

سبيل ذلك أن اللحن وجد بين قبائل العرب في الجاهلية ، وصدر الاسلام . ثم أننا اذا اعتبرنا كل تعبير لهجي عن اللغة المتكلمة لحنا فيا كان أكثر اللحن الذي دخل على اللغة العربية الفصحى قبل الاسلام ، وبعده ! لأن العرب ، وان كان لهم قبل الاسلام لغة أدبية موحدة ، فقد كانت لهم لغات للتخاطب . ويخطيء من يظن أن الفصحى ظلت بعيدة عن آثار هذه اللغات ، فهي مختلطة بها ، ومؤثرة ومتأثرة ، أخذة منها ومعطية . ولهذا خانهم التوفيق عندما بتر وا هذه اللحون ، بحجة أنها لهجمات سوقية ، مع أنها كثيرا ما تفيدنا في حل مشكلات الفصحى ، وتساعدنا في فهم العربية . وعندما حددوا الأخذ عن قبائل معينة ، كان استقراؤ هم محصورا في نظاق ضيق ، وملاحظتهم في فهم العربية محدودة . ولو أنهم وسعوا (دائرة) الأخذ عن القبائل العربية ، لتفتحت أمامنا طرق جديدة في تاريخ عربيتنا ، ولكان منهجهم منهجا تسجيليا ، يسجل الظواهر اللهجية المختلفة (1)

ابن أبي سعيد قال : قال ابن نوفل : سمعت أبي يقول لأبي عمروبن العلاء : أخبر ني عما وضعت مما سميته عربية : أيدخل فيها كلام العرب ؟ فقال : لا فقلت : كيف تصنع فيها خالفتك فيه العرب ، وهم حجة ؟

قال: أعمل على الاكثر، وأسمي ماخالفني لغات» (٢) .

فأبو عمرو بهذا يشير الى أن ماخالف الاكثر عربي ولكنه يأتي من لغات . فهو لم يطرح ماخالف هذا الأكثر ، بل أدخله في حسابه ، لانه من لغات العرب . وهو مانسمي بعضه « حطاما لغويا متناثرا في ثنايا اللغة المشتركة » .

كذلك أدرك (ابن جني) أن اللغة العربية ، كما ورثناها ، تضم طائفتين من الصيغ والاساليب ، طائفة تسود ، والأخرى مَسُودة . فالاولى تضم الجمهرة العظمى من المفردات التي تجري على ألسنة الناس والتراكيب ، والثانية هي القليلة الاستعمال التي لاتجري على سنن الاولى ، بل يشتم منها رائحة القدم ، ولذلك سميت « شاذة » .

والذي يقال عن الصيغ والتراكيب ، يقال عن التغيرات الصوتية التي تتوقف عن النمو ، ولا تجاري مثيلاتها ، وتبقى عالقة ببعض الاذهان .

كذلك الحال بالنسبة للمعاني ؛ فعشرات الآلاف منها قابعة في بطون المعاجم ، لانحتاج اليها الا عند تعرضنا لشرح بيت قديم من الشعر أو عبارة من النشر .

(١) اللهجات العربية في التراث جـ ١ ص ١٨١ .

⁽٢) طبقات النحويين واللغويين لأبي بكر الزبيدي ص ٣٩ .

يقول أبو الفتح ابن جني في قول المتنبي :

بعثت اليه من لساني حديقة سقاها الحياسقى الرياض السحائب

« وإذا اتفق شيء من ذلك نظر في حال العربي ، وما جاء به : فأن كان فصيحا ، وكان ما أورده لايقبله القياس ، فالأولى أن يُحْسَن الظن به ، لأنه يمكن أن يكون قد وقع اليه من لغة قديمة قد طال عهدها ، وعفا رسمها .

ثم قال (أبوالفتح):

«فاذا كان الامركذلك لم نقطع على الفصيح ، اذا سمع منه مايخالف الجمهور، الخطأ » . (١)

هذه الحقيقة اللغوية لانختلف مع (أبوالفتح) فيها ، ولكن الذي نختلف معه فيه هو محاولة التعليل لما أسموه « بالشذوذ » ، وأحيانا « بالخطأ » ، بما لايتفق والواقع اللغوي .

يقول ابن جني في الخصائص (٢):

« باب في امتناع العرب من الكلام بها يجوز في القياس » . ثم يورد أمثلة على هذا الامتناع فيقول :

وانها يقع ذلك في كلامهم اذا استغنيت بلفظ عن لفظ ، كاستغنائهم بقولهم : ما أجود جوابه عن قولهم : « ما أجوده » اه. .

فأفعل التفضيل من (أجاب) الرباعي كان يجري ـ كما نرى ـ على غرار الثلاثي أي على وزن (أفعل) . ولكن العرب عدلوا عنه الى صيغة أخري .

يقول (ابن مالك) في ألفيته عن صيغتي التعجب :

وصغها من ذي ثلاثٍ ، صُرِّف قابل فضل ، تَمَّ ، غير ذي انتفا وغير نوي وصف يضاهي أشهال وغير سالك سبيل فُعِلا

ثم يقول: وأشُدَّ أو شبهها يَخْلُف مابعض الشروط عَدِما

(١) البحر المحيط لابي حيان جـ ٤ ص ٢٣٠ (ملخصا)

(٢) جـ ١ ص ٣٩١ .

ومع ذلك فقد بقيت بقية من الصيغ القديمة عبر عنها ابن مالك بقوله: وبالندور احكم لغير ماذكر ولا تقس على الني منه أثير

هذا النادر الذي يشير اليه (ابن مالك) هو في واقع الامر ماكان يجري على البناء القديم مثل : « ما أخصره ! » من اختصر . فأفعل التعجب هنا مبني من فعل زائد على ثلاثة أحرف ، فخالف بذلك المطرد ، أي الاحدث ، الذي استقرت عليه جهرة اللغة ، وهو المبنى للفاعل .

كذلك ورد قولهم: «ما أحمقه »، فبنَـوا (أفعـل) من فعـل الوصفُ منه على (أفعل) ، نحو: حُمِّ فهو أحمق.

وورد «ما أعساه» و «أُعْس ِ به» . فبنُّ وا أفعلُ وأفعِلْ من عسى . وهو فعل غير متصرف .

كل هذه ، في اعتقادنا ، بقايا من الاستعمال القديم الذي تطور ، والذي كان يبني (أَفْعَلَ) في التعجب بدون قيد أوشرط أي في الوقت الذي كانت فيه قواعد اللغة . وليدة الحس ، لم يتدخل العقل في صياغتها ، بل كانت تجري دون عوائق (كما سنرى)

لقد حاول (ابن جني) في هذا الباب أن يعلل للصيغ القليلة الاستعمال في اللغة والتي ترد أحيانا على ألسنة الشعراء ، وفي لغة الحديث . وهو في هذا التعليل كما يتضح من عنوان الباب ، يقلب الوضع اللغوي ، فيما يتعلق باللغة العربية ، فاعتبر القياس هو أساس الكلام عند العربي ، ولكن هذا يخالفه أحيانا ، ويأبى أن يتأساه .

هذا الكلام معناه أن القياس سابق على كلام العرب ، وأن بعض هؤ لاء يخالفونه أحيانا ، والواقع أن العكس هو الصحيح . فالقياس على خلاف بين النحويين واللغويين في أساسه ، وفي مدى مايقوم عليه ـ انها قام على كلام العرب في مرحلته الاخيرة . فنحن نقيس على ماقالوه ، وهم ينطقون على سجيتهم ، وعلى مأنشئوا عليه . فاذا كان هناك مايخالف ماشاع بينهم ، وجرت به ألسنة جمهرتهم ، فهذا مرده ، أما إلى خروج العربي عها هوسائد ، واما الى ابتكار وفق اليه ، واما الى أن ما نطق به ليس الا رواسب من نظام لغوي سابق ، عُدِل عنه الى نظام لغوي الاحق ، واما الى غير ذلك .

كان أبو محمد اليزيدي يسخر من الكوفيين ، ومن شيخهم الكسائي ، لأنهم يأخذون اللغة عن قوم فسدت سليقتهم ، فيقول :

على لسان العرب الأوَّل ِ: على لِغَسى أشياخِ قُطْرُ بُلِ ان (الكسائي) ، وأشياعًه يرقَون في النحوالي أسفل (١)

كنا نقيس النحو فيا مضي فجاءنا قوم يقيسونه

هذا ، وجواب الفرزدق التميمي على عبد الله بن أبي اسحق الحضرمي ، النحوي ، حين قال له : علام ترفع (أومجلف) ؟ فرد عليه بقوله : على مايسوؤك ، وينوؤك . علينا أن نقول ، وعليكم أن تتأولوا ـ خير دليل على اعتزاز العربي بعربيته وعدم رغبته في الخضوع لقواعد النحاة .

ولقد ترتب على هذا الصدام بين الشاعر والنحوي أن هجا الفرزذق مُلاحيه ، فقال:

فلوكان عبد الله مَولى هجهتُ م ولكنَّ عبد الله مولى مواليا (١)

ولم يترك ابن اسحاق الشاعر ، بل تعقبه ، وقال فيه : لقد أخطأت ، وكان عليك أن تقول « مولى موال ٍ » (٦)

هذا ، ويستمر (ابن جني) في ضرب الامثلة ، وذكر الدوافع التي جعلت العرب يعدلون عن صيغة الى صيغة أخرى ، فيقول :

. . . أو لأن قياسا آخر عارضه ، فعاق عن استعمالهم اياه ، وكاستغنائهم بـ «كاد زيد يقوم» عن قولهم : «كاد زيد قائها أو قياما» .

ثم يقول : « وربها خرج ذلك في كلامهم . قال تأبط شرا :

فأبتُ الى فهم ، وما كدتُ آيباً وكم مثلِها فارقتُها ، وهي تصفِر

(١) أخبار النحويين والبصريين لابي سعيد السير افي ص ٦٢ . وكان عليه أن يقول الى أسفل (بفتح اللام)

(٢) طبقات النحويين واللغويين للزبيدي ص ٣٢.

(٣) الكتاب لسيبويه ٢ / ٥٨ (ط بولاق) خزانة الأدب ١ / ١١٥ ، مراتب النحويين لأبي الطيب اللغوي

ألا ترى أن معناه : فأبت ، وما كدت أءوب (1)

هنا يشير (ابن جني) الى القضية التي نحن بصدد الكلام عنها ، قضية تطور البناء اللغوي ، أو بعبارة أخرى قضية الحطام اللغوي المتناثر في تضاعيف اللغة .

لقد حدث فعلا تطور في البناء اللغوي كها ذكر (أبو الفتح) ، ولكن تأبط شرا ظلت عالقة بذهنه صورة البناء القديم ، كها يعترف ابن جني ، وهو استعمال اسم الفاعل استعمال المضارع ، وفي معناه . وآية ذلك أن بعض اللغات السامية تعبر عن معنى الزمن الحالي باستعمالها اسم الفاعل .

اللغة العبرية مثلا، يقال:

: أنا سامع أي أنا أسمع . في أنا أسمع . في أنا لا أسمع . في أنا لا أسمع . في أنا لا أسمع .

ويقال في السريانية: قبل عدي الحرار المن المنظم المن

أنا لاأعود مُسَمِّيكم (أسميكم) عبيدا، لأن العبد ليس عارفا (= لايعرف) ماذا فاعل (= يفعل) مولاه (انجيل يوحنا ١٥ / ١٥ .)

ففي هذه الحمل ثلاثة من أسهاء الفاعلين ، استعملت في معنى المضارع الحالي هي بريم. مُسَمَّ مُ هُمُّ مُن فَعَل الثالث مُكُمِّ فَي فاعل ، صانع .

كَذَلْكُ بِقَالَ : كُلُومُ عُلَمُ اللَّهِ عَلَيْكُ اللَّهُ اللَّالَّا اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ

«وأما أنت فمتى أنت صانع (= تصنع) صدقة ، فلا عارفة (= تعرف) شمالك ما فاعلة (تفعل ، تصنع) يمينك . (انجيل متى ٦ / ٣) .

(١) من قصيدته التي مطلعها :

(١) مَن فَصْلِيدُكُ النِي مُصَافِع . إذا المسرء لم يُخْسَل ، وقسد جَلد جِلَّه أَضَاع ، وقساسي أمسرَه ، وهسومدبسرُ

(٢) يلاحظ هنا أن عين الكلمة مشكلة بالفتحة بدل الكسرة ، لأن لام اسم الفاعل حرف حلق .

هنا أيضا اسم فاعل هو حَتْ أي عامل ، صانع وهو الذي التقينا و و به في النص السابق ، في حالة التأنيث حَتْ النص السابق ، في حالة التأنيث حَتْ النص الحرى . ولكن المضارع هنا المرابط الله عنى المستقبل .

والى جانب هذا الاستعمال ظل اسم الفاعل محتفظا كذلك في اللغات السامية ، ومنها العربية ، بدلالته على الحال القائمة . فتقول : أنا جالس ، هو واقف . أنا منشرح الصدر .

وتقول في العبرية :

(تر) كا الإكراكر هو واقف (تر) كا الإكراكر الربي واقفة . وهكذا .

كذلك يقال في السريانية:

كَانَا جُولِكِلاً ؛ أَنَا خَاتُفُ إِنْ فَالْكُلّا ؛ هوقاتل

هذا وقد أصبح اسم الفاعل في السريانية الحديثة هو الصيغة الوحيدة للتعبير عن الزمن الحاضر (المضارع الحالي) في اللحون السريانية الحديثة بعد أن اندثرت صيغة المضارع الاصلية .

كذلك يستعمل اسم الفاعل فقط في اللغة الحبشية للدلالة على الحال القائمة ، كما هو الحال في السريانية الحديثة .

فاذا عدنا الى اللغة العربية وجدنا خلافا نُشِب بين البصريين والكوفيين في فهم طبيعة اسم الفاعل. فقد نظر الأولون الى صورته ، فهوينون ، ويحلى بأل ، ويضاف أي يقبل علامات الاسم ، فاعتبر وه لذلك اسها . بينها نظر الكوفيون إليه نظرة أخرى . «لقد أغفل أصحاب سيبويه العنصر الزمني حين تأملوا في طبيعة الفعل . ومن ثم أغمضوا عيونهم عن مثيلاته ، من اسم الفاعل ، واسم المفعول ، والمصدر ، والصفة المشبهة ، وأفعل التفضيل ، فاعتبر وها أساء ، لأنها - كها قلنا - تقبل علامات الاسم . وكان خيرا لهم لوأنهم ألحقوا هذه الصيغ بالمادة الفعلية ، من حيث

إفصاحها عن الزمان ، وإبرازُه في حدود واضحة ١١٠٠ .

ومن أجل هذا كان الكوفيون أشد اتصالا بالعلم اللغوي من خصومهم البصريين في تقسيم الفعل . فقد قسموا الفعل باعتبار دلالته الزمانية الى ماض ، ومستقبل ، ودائم . وقد أرادوا بالفعل الدائم اسم الفاعل المتطلّب للمفعول . وهذا ما قال به (الفراء) ، كما أشار (الزَّجّاجي) النحوي في مجالس النحويين فقد ورد به :

«قال (ثعلب) : كلمت ذات يوم محمد بن يزيدٍ ، البصري ِ فقال : كان الفراء يناقض . يقول : (قائم) فعل ، وهو اسم لدخول التنوين عليه . فان كان فعلا لم يكن اسها ، وان كان اسها لاينبغي أن نسميه فعلا . فقلت (الفراء) يقول : قائم ، فعل دائم ، لفظه لفظ الاسهاء ، ومعناه معنى الفعل ، لأنه يَنْصِب . فيقال : قائم قياما ، وضارب زيدا . فالجهة التي هو فيها اسم ليس هو فيها فعلا ، والجهة التي هو فيها فعل ليس فيها اسها (٢) » .

فالفراء قد «سمى اسم الفاعل فعلا دائما ، لانصراف هذه الصيغة نحو الحال ، والمستقبل . وهو بهذا قد فرق بين اسم الفاعل العامل ، واسم الفاعل غير العامل ، فسمى الأول منها فعلا دائما ، في حين عد اسم الفاعل غير العامل من الأسماء ، وأطلق عليه «الاسم» (٢٠) .

وهـذا الـذي قال به الفراء كانت جذوره عند أستاذه الكسائي (أ). فقد قرأ الكسائي : فالتُ الإصباح ، وجاعلُ الليلِ سكنا ، والشمسَ والقمرَ حُسبانا (٥) وقال أبو حيان :

وقرأ الكوفيون: «وجَعَل الليلَ سكنا» فعلا ماضيا، لما كان (فالق) بمعنى المضي حسن عطف (وجعل) عليه، وانتصب، والشمسَ، والقمر حسبانا عطفا على الليل سكنا.

⁽١) الفعل : زمانه وأبنيته للدكتور ابراهيم السامرائي ص ١٩ ط ٢ .

⁽٢) مجالس النحويين للزجاجي ص ٣٤٩ - الفعل للسامرائي ص ١٩٠٠

٣) معانى القرآن للفراء ١ / ٤٥ ـ السامرائي ص ٢٠ .

⁽٤) شرح الكافية للرضى ٢ / ٢٠٠ .

⁽٥) الانعام ٦ / ٩٦ .

وقرأ باقي السبعة: و(جاعل) باسم الفاعل مضافا الى الليل. والظاهر أنه اسم فاعل ماض، ولا يعمل عند البصريين. فانتصاب «سكنا» على اظهار فعل أي يجعله سكنا، لا باسم الفاعل، هذا مذهب أبي على .. قال: وأما من قال اعمال اسم الفاعل الماضي، وهو الكسائي، وهشام، فسكنا منصوب به . (۱) واستدل الكسائي على رأيه بقوله تعالى: « وكَالبُهُمْ باسِطٌ ذِراَعيه بالوَصِيدِ » (۲) ويرد البصريون قوله، قائلين: بانه حكاية حال ماضية.

والـواقـع ان الـذي يتتبع مسـار الآيه يجد أنها تصور الحال التي كان عليها الفتية وكلبهم ، مستعملة في ذلك صيغة المضارع . يقول (جل شأنه) :

« وَتَحْسَبُهم أَيقاظا وهم رقود . ونُقَلِّبُهم ذاتَ اليمينِ ، وذاتَ الشَّمالِ . وكلبُهم باسطٌ ذراعيه بالوصيدِ » .

فاسم الفاعل هنا يعبر عن حال دائمة أي حاضرة ، لاماضية .

* * *

هذه الجولة الخاطفة في الآفاق السامية ، وفي آراء الكوفيين ترينا أن تأبط شرا لم يشذ عن الاستعال اللغوي ، وان خالف ماعليه اللغة في عصره . وإنها جرى على لسانه استعال قديم ، هو أثر لاستعال أبلاه الزمن ، وكان سائدا ذات يوم . ومن يدري فقد نجد اذا فتشنا بين الشعراء والكتاب من استعمله ، ولكننا لم نهتد بعد الله .

لنتأمل في معنى قوله تعالى على لسان بني اسرائيل في حوارهم مع نبيهم موسى (عليه السلام):

«ياقوم ! ادخُلوا الأرضَ المقدسةَ التي كتبَ الله لكم . ولا ترتدُوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين . قالوا : ياموسى ! إن فيها قوما جبارين ، وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فان يخرجوا منها فإنا داخلون ، قال رجلان من الذين يخافون ، أنْعَمَ الله عليهما : ادْخُلُوا عليهم البابَ ، فاذا دخلتموه فإنكم غالبُون (٣) .

- (١) البحر المحيط ٤ / ١٨٦ . انظر الاقناع في القراءات السبع لابن الباذ ش حـ ٢ ص ٦٤٠
 - (۲) الكهف ۱۸ / ۱۸
 - (٣) سورة المائدة ٥ / ٢١ _ ٢٢ .

في هذه الآيات الكريمة ثلاثة من أسهاء الفاعلين : « فتنقلبوا خاسرين » و « فانا داخلون » و « فانكم غالبون » . وهذا الحوارتَم قبل أن يدخل بنو اسرائيل الأرض المقدسة ، وحدوث مافيه سيتم بعد الدخول . فالجمل الثلاث التي أشرنا اليها تدل على زمن مستقبل ، والاستقبال في الآية الأولى مستمد من المضارع « فتنقلبوا » ، واسم الفاعل معها يدل على « تصوير الحال » عند الانقلاب .

أما في الآيتين الأخريين فيؤخذ معنى الاستقبال من الجملة المكونة من (الضمير واسم الفاعل) « فانا داخلون » _ فسندخل ، « فانكم غالبون » _ فستَغْلِبون . فاسم الفاعل في الآيات دل مرة على تصوير الحال ، ومرتين على التعبير عن زمن الاستقبال وفي كلا الحالين هو « الفعل الدائم » .

والقرآن الكريم نزل بلسان عربيِّ مبين . والحطام اللغوي الذي نتحدث عنه. حمل أثارة منه الكتاب العزيز، كما تضمن تعبيرات واستعمالات من كثير من اللغات العربية ، سواء منها ما أخذ الرواة عنه أو ما لم يأخذوا .

ان لغات هذه القبائل التي رفض الرواة الأخذ عنها متمثلة في القرآن الكريم ، فلغة غسان ، وردت في القرآن أربع مرات (١) ، ولغة أزْد عُمَان (١) ، ولغة بني حنيفة ثلاث مرات (٢) ، ولغة خزاعة مرتين (١) ، ولغة لخم مرتين أيضا (١) ، كما ورد عن ابن عباس أن من القبائل التي ورد القرآن بلغتها - لغة ثقيف (٦) ، وعن عمر : لايملين في مصاحفنا الاغلمان قريش ، و (ثقيف) . وقول (عثمان) : اجعلوا المصلّي من هذيل ، والكاتب من ثقيف (V)

كما ثبت أن القرآن بعضه بلغة جُذام (^) ، وبعضه بلغة اليمن (١) ، وبعضه بلغة قَضاعة (١٠٠)، وبعضه بلغة اليهامة (١١١)، وبعضه بلغة النَّمِر (١٢)

- (١) كتاب اللغات في القرآن ص ٢٧ ، ٢٨ ، ٣١ ، ٤٨ ، وانظر الاتقان ١ / ١٣٦ . (٢) كتاب اللغات ٤٢ .
 - (٣) كتاب اللغات : ٢ و ٤٠ و ٤٤ ـ وانظر الاتقان ١ / ١٣٦ .
 - (٤) كتاب اللغات : ٢١ ، ٢١ = وانظر الاتقان ١ / ١٣٦ .
 - (٥) كتاب اللغات ٢٧ و ٣٤ ـ وانظر الاتقان ١ / ١٣٦ . (٦) كتاب اللغات ٢٨ ـ وانظر الاتقان ١ / ٤٨
 - (٧) المزهر ١ / ٢١١ .
 - (٨) الاتقان ١ / ١٣٦ .
 - (٩) الاتقان ١ / ٤٩ و ١٣٥ و ١٣٦ ـ المزهر ١ / ٢١١
 - (١٠) الاتقان : ١ / ٥٠ .
 - (١١) الاتقان ١ / ١٣٦ .
 - (١٢) الاتقان ١ / ١٣٦ .

-11-

كل مافي الامر أن بعض اللغات أسعد حظا به من بعض وأكثر نصيباً . " ثم . . يقول دكتور أحمد علم الدين الجندي : «ومن هذه الروايات أرى أن لهجات هذه القبائل فصيحة ، على عكس مارأى علماء العربية ، لأنها موجودة في القرآن الكريم ، ولهذا أطعن في مقياس الفصاحة الذي وضعه رواة العربية ، ووزنوا به لهجات العرب جميعاً » (١)

* * *

لقد قلنا من قبل إن القبائل العربية عندما تفرقت في أنحاء الجزيرة أخذت لغة كل منها طريقها في النمو ، فمنها ما وصل درجة كبيرة منه ، ومنها مابقى على حاله ، ومنها ما كان وسطا .

هذا معناه أن الظواهر اللغوية التي وصلتنا في فترة جمع اللغة كانت تمثل أطوارا متباينة من التغير .

زد على ذلك أن القبائل لم تكن دائم المعزل احداها عن الاخرى . بل كان الانتجاع والحروب بين لغاتها ، وتجعل كلا منها يأخذ من الأخريات .

يقول أبو الفتح ابن جني :

« واعلم أن العرب تُحتلِفُ أحوالها في تلقي الواحد منها لغة غيره . فمنهم من يخف ويُسْرع (٢) قبول مايسمعه ، ومنهم من يستعصم ، فيقيم على لغته البتة ، ومنهم من اذا طال تكرر لغة غيره عليه لصقت به ، ووجدت في كلامه . الا ترى الى قول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وقد قيل : يانبيء الله !

فقال : لست بنبيء الله ، ولكنني نبي الله

وذلك أنه (عليه الصلاة والسلام) أنكر الهمز في اسمه ، فرده على قائله ، لأنه لم يدر بم سهاه ، فأشفق أن يمسك على ذلك ، وفيه شيء يتعلق بالشرع ، فيكون بالامساك عنه مبيح محظور ، أو حاظر مباح . »

⁽١) اللهجات العربية في التراث للدكتور أحمد علم الدين الجندي جـ ١ / ١٨٢ . ماذكر هنا يخالف الاحصاء الذي في الكتاب بعض المخالفة . (المؤلف)

⁽٢) لعلها يسوغ . لان يخف بمعنى يسرع . وان كان المعنى يستقيم بها هي عليه .

ويتابع (ابن جني) كلامه ، فيقول :

«وحدثنا أبوبكر محمد بن الحسن ، عن أحمد بن يحيى ، قال : اجتمع أبوعبد الله ابن الاعرابي وأبوزياد الكلابي على الجِسْر ببغداد ، فسأل أبوزياد أبا عبد الله عن قول النابغة :

«على ظُهْر مَبْناة» (١) (بفتح الميم وكسرها)

فقـال أبـوعبـد الله [ابن الاعـرابي] : النَّطع . فقال أبوزياد : ؛ لا أعرفه . فقال ، النَّطع . فقال أبوزياد : نعم ، أفلا ترى كيف أنكرغير َلغته ، على قرب مابينها(٢) ؟

ثم يقول (ابن جني) تأييدا لوجهة نظره :

«وُحدثني أبو اسحاق ، ابراهيم بن أُحمد عن أبي بكر ، محمد بن هرون الرُّويانيُّ ، عن أبي حاتم قال :

«قرأ علي أعرابي بالحرم: طِيبي لهم ، وحسنُ مآب (٣). فقلت: طُوبي . فقال : طِيبي . قلت : طوطو . فقال : طِيبي . قلت : طوطو . فقال : طِيبي . قلي طِي .

أفلًا ترى الى استعصام هذا الاعرابي بلغته ، وتركِه متابعة أبي حاتم (٤٠٠) افلًا ترى الى الفتح في موضع آخر بعنوان :

« باب فيها يرد عن العربي مخالفًا لما عليه الجمهور »:

(١) هو من قوله :

كَانَ عِبَرِ السرامِسساتِ ذيه ولَهَا عليه حصيرُ نمقته المصواسعُ على ظهر مَبناة ، حديدٌ سيورها يطوف بها وسط السلطيدمة بالسع الخصائص جد 1 ص ٣٨٣ .

(٢) (المبناة بفتح الميم وكسرها) تتخذمن الجلد ، يضم بعضه الى بعض ، ويضع عليه التاجر أمنعته . وكانوا يضعون الحصير عليها ، يطوفون بها لبيعها . (الرامسات) : الرياح التي تطمِس . يعني أنه سأله عن المبناة ماهي فقال : النّطع (بفتح النون) فأنكر ذلك ، اذكان في لغته النِطع (بكسرها) وأورد اللسان القصة في نطع .

(اللَّطيمة): وعاء العطر، وقيل غيره. يقال: فاحت اللطيمة ـ وكأن فاها لطيمة تاجر (الاساس للزنخشري) وقيل: اللطيمة: العير التي تحمل الطيب، وَيزَّ التجار. وربها قيل لسوق العطارين لَطِيمة (مختار الصحاح)

(٣) الرعد ١٣ / ٢٩

(٤) الخصائص جـ ١ ص ٣٨٣ .

«اذا اتفق شيء من ذلك نظر في حال الاعرابي ، وفيها جاء به . فان كان الانسان فصيحا في جميع (مايقول) ماعدا ذلك القدر الذي انفرد به ، وكان ما أورده مما يقبله (القياس) ، الا أنه لم يرد به استعمال الا من جهة ذلك الانسان ، فان الاولى في ذلك أن يحسن الظن به ، ولا يحمل على فساده . فان قيل : فمن أين ذلك له ، وليس مسوغًا أن يرتجل لغة لنفسه ؟

«قيل: قد يمكن أن يكون ذلك وقع اليه من لغة قديمة قد طال عهدُها ، وعفًا رسمُها ، وتأبّدت (١ معالمها . أخبرنا أبوبكر ، جعفر بن محمد بن الحجاج ، عن أبي خليفة ، الفضل بن الحباب (ت ٣٠٥) قال : قال ابن عَونْ (ت ١٥١) (عبدُ الله) عن أبي سيرين ، قال عمرُ بنُ الخطاب (رضي الله تعالى عنه) : كان الشعر عِلْمَ القوم ولم يكن لهم علم أصحَّ منه . فجاء الاسلام ، فتشا غلت عنه العرب بالجهاد ، وغزو فارس والروم ولمَيت عن الشعر وروايته .

«فلها كثر الاسلام ، وجاءت الفتوح ، واطمأنت العرب في الأمصار ، تراجعوا . رواية الشعر ، فلم يثولوا الى ديوان مدوَّن ، ولا كتاب مكتوب ، وألفوا ذلك ، وقد هلك من العرب من هلك بالموت ، والقتل ، فحفظوا أقل ذلك ، وذهب عنهم أكثره . »

«وحدثنا أبوبكر أيضا ، عن أبي خليفة (ت ٣٠٥ وهوبصري) قال : قال يونس ابن حبيب : قال أبوعمروبن العلاء : ما انتهى اليكم مما قالت العرب الا أقله ، ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير . فهذا ما تراه . وقد روى في معناه كثير» (٢) ويستمر (أبو الفتح) في ضرب الامثلة ، ثم يخلُص الى القول :

«فاذا كان الامركذلك لم نقطع على الفصيح يُسمع منه ما يخالف الجمهور بالخطأ ، ماوُجد طريقٌ إلى تقبل مايورده ، اذا كان القياس يعادله ، فان لم يكن القياس مسوغا له ، كرفع المفعول ، وجر الفاعل ، ورفع المضاف اليه فينبغي أن يرد . وذلك لانه جاء مخالفا للقياس والسماع جميعا . فلم يبق له عصمة تضيّفه ، ولا مُسكة تجمع شعاعه (٣) » .

⁽١) جهلت ، من قولهم تأبد الرسم : أوحش وأقفر ، وتنكر .

⁽٢) الخصائص جـ ١ ص ٣٨٦ ـ ٣٨٧ .

⁽٣) المصدر السابق ، الجزء والصفحة .

من هذا نرى:

(أولا) أن (ابن جني) يعترف بوجود لغات قديمة ، بل قديمة جدا عفا رسمها ، وتأمدت معالمها .

(ثانيا) أن ماوصلنا من آثار أدبية ولغوية ليس الا النزر اليسير . فمعالم اللغة لاتكاد كلهًا ترى ، بل هناك منها ما اندثر ، ولم يبق منه الا آثار ضئيلة ، لاتكاد تحس . (ثالثا) أن ماوصلنا من هذه الآثار أومن هذا الحطام الذي يظهر على السنة بعض الشعراء يجب أن نعرضه على محك القياس ، فان قبله قبلناه ، والا رفضناه .

* * *

واذا كنا نتفق مع (أبوالفتح) في الأمرين الأولين فاننا نخالفه كلية في الأمر الثالث، اذ لادخل للقياس هنا البتة. فنحن إنها نقيس على اللغة التي وصلتنا أي على اللغة في مرحلتها الأخيرة. وليس هذا من المنطق في شيء ، إذ مادمنا قد اعترفنا بأن اللغة مرت بأطوار ، لانعرف عن بعضها شيئا أصلا ، إلا هذه البقايا الضئيلة ، فليس من حقنا أن نحكم على هذه البقية بالمقاييس التي نحكم بها على اللغة الحالية. لأن اللغة _ كها سنرى _ قد مرت بأطوار عدة ، تغيرت فيها بعض معالمها ، فاختفى منها ما اختفى ، وحل محله جديد ، وبقى ما بقى ، فوصلنا على حاله أو غير ، أيضا تطور لاحق .

إنناحين نحكم ، في الحكم على هذا الحطام ، المقاييسَ التي نقيس بها الطور اللغوي الأخير ، نكون في هذا أشبه بالذي يطبق مقاييس الشعر الحديث ، والقصص الحديث على الأدب الجاهلي وما تلاه . فليس من المنطق في شيء أن نقول إن الأدب العربي متخلف ، لأن الرواية والمسرحية ، والملحمة . . الخ لم تظهر فيه . إذ لكل أدب طبيعته ، والدوافع التي دفعت الى ظهوره ، وتلونه . كذلك أمر اللغة .

كان على (ابن جني) اذن ألا يغفل هذا الجانب ، وأن يكون منطقيا مع نفسه ، فيجعل لكل مرحلة مقاييسها ، ولا يخلط بين هذه المقاييس . إنه لايفتا يكرر أن هناك لغاتٍ قديمةً ، وصل إلينا منها نزريسير ، يجب أن نعترف بوجوده ، سواء وافق مانحن عليه أو خالفه . ولكنه لم يستطع التخلص مما وقر في ذهنه من أن العبرة

انها هي بمقاييس المرحلة الحالية . وقد يعود ويعترف بالارتجال ، وبوجوب قبول مايقول تحت عنوان : «باب في الشيء يُسمع من العربي الفصيح ، لايُسمع من غيره» .

«وذلك ماجاء به ابن أحمر في تلك الاحرف المحفوظة عنه . قال (أحمد ابن يحيى): حدثني بعض أصحابي عن الاصمعي أنه ذكر حروفا من الغريب ، فقال : لا أعلم أحدا أتى بها الا ابن أحمر الباهلي» .

ثم يعدد بعض هذه الأحرف ، ويعلق عليها بقوله :

«والقول في هذا الكلِم ، المقدَّم ذكرُها ، وجوبُ قبولها . وذلك لما ثبت به الشهادة من فصاحة ابن أحمر . فاما أن يكون شيئا أخذه عمن ينطق بلغة قديمة لم يشارَك في سماع ذلك منه ، على حدما قلنا فيمن خالف الجماعة ، وهو فصيح ، كقوله في الذَّرَحْرِح الذَّرَحْرِح (بتخفيف الراء الأولى في الأول ، وتشديدها في الثاني) ، ونحو ذلك .

ذلك . «وإما أن يكون شيئا ارتجله ابن أحمر . فان الاعرابي إذا قويت فصاحته ، وسمت طبيعته تصرف ، وارتجل مالم يسبقه أحد قبله به . فقد حكى عن رؤ بة وأبيه أنها كانا يرتجلان ألفاظ لم يسمعاها ، ولا سبقا اليها . وعلى نحومن هذا قال أبو عثمان : «ماقيس على كلام العرب ، فهو من كلام العرب».

«.... وكد لك ان جاء نحو هذا الذي رويناه عن ابن أحمر عن فصيح آخر غيره _ كانت حاله فيه حاله . لكن لوجاء شيء من ذلك عن ظَنِين أومتهم ، أومن لم ترق به فصاحته ، ولا سبقت الى الأنفس ثقته _ كان مردودا غير متقبًل (١).

ثم يعاود (أبو الفتح) الكلام عما يقبل ، وعما لايقبل في القياس . ويذهب الى تعليلات ما كان أغناه عنها ، لو أنه آمن بفكرة التطور التي أشار اليها غير مرة ، وطبقها .

يقول د. مهدي المخزومي في ذلك :

«في العربية أفعال لم تنهج السبيل التي سلكتها الافعال ، فهي أفعال متخلفة ، لم تتطور ، ولم يدركها الاستعمال الواسع ، فيخضعها لما خضعت له سائر الافعال .

(١) الخصائص ٢ / ٢١ ـ ٢٢

«هذه الافعال ـ كما وصلت الى النحاة ـ متفاوتة في تخلفها ، وجمودها : فبعضُها ظل في قالبه القديم ، وبعضها جاء في بناء جديد ، لاصلة له بأبنية الأسماء ، ولا بأبنية الأفعال ، وهوبناء مركب من بناءين مختلفين ، كبناء «ليس» وبناء «حبذا» ، وبناء «حَيَّهُلْ» وغيرها من أبنية المركبات المعروفة . وبعضها اتخذ لنفسه قالبا فعليا ، الا أنه قصر عن إدراك الأفعال الأخرى ، فلم يتصرف تصرفها ، ولا توسع في الاستعمال توسعها نحو : عسى (۱)

* * *

هذا ، «وقد عرف المهتمون باللغة من قديم هذا التفريق بين نوعين من الاستعمال فيها .

«فالشاعر الرومانيي (هوراس) في قصيدته عن النقد التي أذاعت مباديء (أرسطو) النقدية ، والتي سهاها ARTS POETICA قد جدد في ناحية هي : العبارة اللفظية في الشعر .

« وخلاصة ماقاله هوراس في هذا الباب أن عبارة الشاعر لايمكن أن تكون شيئاً جامدا، متفقا عليه. فان وظيفة اللسان في الشعر أن تعبر، وتبين. ولكن تجارب الانسان التي وجد الشعر للتعبير عنها دائمة التغير، والتبدل؛ لأنها آخذة أبدا في الازدياد. وكلها نمت التجارب، وازدادت وجب على لغة الشعر أن تجاربا، وأن تتمشى معها اذا أريد منها أن تكون صادقة التعبير. واللغة بمثابة الشجرة، والالفاظ منها بمثابة الورق. وعلى مدى السنين تتساقط الاوراق القديمة، وتنموبدلا منها أوراق حديثة، والشجرة باقية كها هي»

« وهذا التشبيه الذي ساقه (هوراس) يمثل اللغة، والألفاظ في الشعر تمثيلا حسنا. ولكن يجب ألا ننسى أن الشجرة التي عناها (هوراس) لم تكن تفقد أوراقها جملة واحدة، بل كانت تشتمل دائها على أوراق قديمة، وأوراق حديثة.

«كذلك الحال في لغة القريض . لابد من أن تستحدث أيضا ألفاظ جديدة ، وتختفي ألفاظ قديمة . . . »

«ومن المكن بالطبع - كما أوضح ذلك (هوراس) في جلاء وابداع - أن يصبغ الشاعر الألفاظ العادية المألوفة بصبغة شعرية رائقة، بأن يجمعها بمهارة في جمل (١) النحو العربي: نقد وتوجيه ص ١٩٠

وعبارات(١)».

هذا ونستطيع أن نطبق ماقاله (هوراس) من حيث تجدد الألفاظ، على النثر، كها طبقه هو على الشعر. فالتعبير الانساني يضم الشعر، والنثر جميعاً. والتشبيه بالشجرة وأوراقها تشبيه رائع، يتفق تماما وما نقوله عن الحطام اللغوي.

فاذا أضفنا إلى هذا، في مجال الألفاظ، ومدلولاتها، تطور المعنى، لأسباب عدة، واختفاء بعض المعاني ليحل محلها أخرى نكون قد أضفنا عنصراً جديداً من عناصر المسيرة اللسانية المتغيرة.

ويلعب تحوير المعنى دورا كبيرا في ثراء المفردات المستعملة في الحديث التي لاتلبث مع مرور الزمن أن تصبح جزءا من الحصيلة اللغوية.

ويضرب بلومفيلد L. BLOOMFIELD مثلا لذلك فيقول ، :

«إن هناك فرقابين المعنى الاصلي الاساسي PRIMARY والمعنى المعجمي المحمي المحالي المحالي

وقد يختفي المعنى الأصلي من الاستعلا ، ويبقى المعنى المجازي عالقا بالاذهان. فكلمة (ريشة) مثلا في مثل (أعطني الريشة) لاتنصرف أبدا الى ريشة الطائر التي هي أصل وجودها، ولكنها تنصرف رأسا الى الأداة التي يكتب بها. كذلك كلمة (سيارة) في قولك: «احضر لي سيارة» لاتنصرف أبدا الى الابل.

(1) Lacelles Aber Crombie
(1) Lacelles Aber Crombie (ط ۲ عام ۱۹۶۸) ص. ب ۱۶۹ ـ ۱۶۹ نقلا عن الاستاذ بجامعة لندن ـ وترجمة د. محمد عوض محمد (ط ۲ عام ۱۹۶۸) ص. ب ۱۶۹ ـ نقلا عن د. محمد أبو الفوج : المعاجم العربية ص ۱۰۰ (ط ۱۸۲ ـ ۱۹۲ ـ

لذا كان من الخطأ البين أن نعتبر الصورة التي وصلتنا بها اللغة العربية - هي الصورة التي كانت عليها ، يوم أن انسلخت من أخواتها الساميات ، واستقلت بنفسها .

لقد وصلتنا ناضجة تمام النضج ، صالحة للتعبير الكامل عن حاجيات الانسان . وأكبر دليل على ذلك أنها _ كما يقول شاعر النيل حافظ ابراهيم _ «وسعت كتاب الله الكريم لفظا وغايةً ، ولم تضق عن آي به وعظاتِ »

ودراسة أية لغة يعرف ماضيها ، تطلعنا على أنها مرت بمراحل عدة ، أقلها ثلاثة ، صارعت فيها الزمن ، ثم تغلبت عليه ، فبقيت حية ، أو تغلب عليها فأفناها.

فمن الوهم إذن الاعتقاد بأن اللغة العربية ظهرت على ألسنة أهلها مكتملة ، لا شية فيها ، لان مثل هذا القول يخالف طبيعة الاشياء . فكل شيء في الوجود ينشأ صغيرا ثم يكبر ، حتى الانسان نفسه ، وكل كائن حي . فلا العلوم ، ولا الفنون ، نشأت دفعة واحدة . بل مرت بعدة أطوار ، كانت في كل منها تخطو خطوة في طريق الكمال . ومع ذلك فانها لاتتوقف قط . ففي كل يوم يجدّ جديد ، لابد من أن يُنظر فيه . وشتان مابين اللغة العربية الفصحى التي نكتب بها اليوم ، وتلك التي كان يكتب بها أهل الجاهلية ، وصدر الاسلام .

وإذا كانت العلوم والفنون إنها يبحث فيها طائفة قليلة من الناس ، فإن اللغات ليست كذلك ، إذ تتحدث بها المجتمعات بأسرها ، تجري على ألسنة جميع أهلها ، صباح مساء ، دون توقف . ومعنى هذا أنها أكثر من سواها عرضة للأخد والرد ، عرضة للتغير ، من فرط استعهاها ، لتعرضها على ألسنة أهلها ، للنمو والانحراف ، والبتر ، وغير ذلك من الظواهر اللغوية . هذا ولم تتوقف قط لغة عن النمو . والكهال الذي تصله في فترة من فترات حياتها إنها هو كهال نسبي . إن اللغة هي الفكر معبرا عنه ، ومادام الفكر دائم النمو ، فاللغة دائمة التطور كذلك لكي تستجيب له ، ولولا أن كتاب الله الكريم ثبت قواعد اللغة على ماكانت عليه عند نزوله ، لاستمرت في تغيرها . ولو أن النحاة اعتمدوا اعتهادا كليا ، في تقعيد قواعدهم ، على لغة القرآن

الكريم ، وقللوا من الاعتهاد على الشعر ، وعلى اللغات ، لجاءت قواعدهم أقل تعقيدا ، وأكثر توفيقا ، وأحسن تعبيرا عن اللغة المشتركة ، ولكنهم اعتبر وا الحصيلة اللغوية التي جمعت من لغات شتى ، كأنها صادرة عن لغة موحدة ، وبنوا بناءهم القواعدي الشامخ على هذا الاساس . ومن هنا تفرقت بهم السبل ، وكثر الاخذ والرد ، وتعددت وجهات النظر ، وما سمي بالمدارس النحوية ، وتشعبت الاراء في المسألة الواحدة ، ثم جاءت الفلسفة ومناهجها فأضافت ضغثا على الابالة !

ثانيا: أطوارً نمواللفكة

قلنا ان اللغة تمر خلال حياتها ، اذا قطعتها حتى النهاية،بمراحل ثلاث : مرحلة النشأة ثم مرحلة التلقي المفرط ، ثم مرحلة النضج ، والكمال .

والمدة التي تقضيها في كل مرحلة من هذه المراحل قد تطول ، وقد تقصر ، تبعا للظروف التي تحيط بأهلها ، ولمدى أخذهم من أساليب الحضارة ، ومدي تقدمهم الفكري .

فقد تطول مرحلة النشأة حتى تبلغ آلاف السنين ، لأن الناطقين باللغة قَضُوا هذه الحقبة الطويلة في حياة بدائية ، لم يأخذوا من أساليب التقدم الحضاري بنصيب . فاللغة تنمو ، وتزدهر مع الحضارة ، لأن مطالب هذه تستدعي التعبير عنها ، ثم «التفنن» في هذا التعبير . فتزداد بذلك الشروة اللغوية ، وتتنوع أساليب الكلام . وعلى مقربة منا لغات الشعوب الفطرية ، التي تعيش في إفريقية ، وآسية ، فهي لاتزال على حالها التي نشأت عليها أو قريبا منها ، مادام أهلها كذلك .

هذا ، والاختلاط بين المجتمعات أكبر عامل من عوامل النمو اللساني ، لأنه مدعاة الى الأخذ . إذ هوليس إلا التقاء حضارات في مراحل متساوية أو متباينة بعض وتاريخ اللغة في العصر العباسي يشهد بذلك فقد اتسع أفقها ، وزادت مفرداتها ، وتنوعت أساليبها ، ودخلها الكثير من المعاني والصور الخ

كذلك الحال مع اللغة العربية المعاصرة . فاتصال أهلها بالحضارات الأوربية ، والامريكية دفع بها إلى الأمام خطوات ، وخطوات . ولولا القيود التي قيدت بها ، لانطلقت الى أبعد مما وصلت اليه في مجال الثراء .

هناك إذن عوامل متعددة تأخذ بيد اللغة ، متى توفرت لديها . فاذا لم يتوفر لديها منها شيء ظلت تدور في فلكها لاتبرحه كها هو شأن ألسنة الشعوب الفطرية .

* * *

ونعود فنقول ان اللغة في مرحلة النشأة تكون وليدة الحس بينها هي فيها بعد ذلك وليدة العقل . ولما كان الحس يختلف من جماعة الى جماعة ، بل من شخص الى شخص ، فليس غريبا اذن أن نجد الناس يعبر ون عن الشيء الواحد بطرق مختلفة كذلك ، من صيغ ، وأساليب

وتزداد هذه الصيغ ، وهذه الاساليب عددا ، كلما تشعبت اللغة الى لهجاتٍ ، وتباعد الناطقون بهذه بعضهم عن بعض ، كما كان الحال مع سكان شبه الجزيرة العربية .

هذا ، «وقد سارت اللغة العربية في هذا الطريق سير غيرها من اللغات الأخرى كاللاتينية واليونانية مشلا . واذا لم يكن لدينا من الوثائق التاريخية ، ولا من الادلة العلمية اليقينية ما يسهل علينا مهمة إثبات ذلك ، بالنسبة للغة العربية ، فان مانجده في مثيلاتها من اللغات الأخرى يجعلنا نطمئن الى هذا الحكم ، ونضرب صفحا عن رأي بعض العلماء القائلين بأن النحو العربي قديمُ النشأة ، بل انه تَوْقيفي ، كما أن اللغة في نظرهم توقيفية . ومن هؤ لاء العلماء (ابن فارس) (۱) »

هذا ، ولو أن رواة اللغة عُنُوا بجمع التراث اللغوي لجميع القبائل العربية ، ولم يوجهوا عنايتهم فقط للتراث الادبي الذي قيل بلغة الجميع لكانت لدينا الآن حصيلة ضافية تعاوننا على تأييد مانقول ، وتقول الدراسات اللسانية الحديثة ، وتقفنا على تاريخ اللغة ، وصور تطورها ، ونموها ..

ولكن علماءنا ، وقد وضعوا نُصْبَ أعينهم هدفا محددا ، هوجمع التراث الذي يعين على فهم كتاب الله ، وعلى حفظه ، لم يعننوا كثيرا باللغات التي لم ترق في نظرهم ، ووصفوها تارة بالضعف ، وتارة بالفساد ، وتارة بالشذوذ . . . وقد ساءلنا (١) ـ اللغة والنحوص ٥٢ ـ ٥٣ .

أنفسنا في غير هذا المكان (1) عن مدلول هذا الذي أسموه «فسادا» ، وأثبتنا أنها كلمة أريد بها ، دون تحقيق ، اطراح اللغات التي توصف بها . ونحن نعرف جيدا أن العلماء الذين جاؤ وا بعد رواة اللغة (أي بعد القرن الثاني الهجري) منهم من أنكر على هؤ لاء هذا الصنيع ، كابن جني ، واعتبر كل مانطق به العربي صحيحا ، وان كان بعضه أفصح من بعض (٢).

مرحلة التطور:

قلنا أن أنظمة اللغة الاساسية ثلاثة: هي النظام الصوتي ، والنظام البنيوي ، والنظام البنيوي ، والنظام الدلاني . فأي هذه الانظمة يصيبه التطور؟ أيهما يستسلم له ، وأيهما يتأبى عليه ؟

الواقع اللغوي يجعلنا نؤ من بأن الأنظمة يصحبها التطور ، ولكن بعضها يستسلم كلية ، فيمسُّ هذا التطور جميع عناصره ، وبذلك يقضي على الماضي قضاء كليا ، فلا يثبت منه في اللغة شيء ، ولكنه يستغرق وقتا طويلا في التحول .

وهذا هو النظام الصوتي . ففي اللهجة المصرية مثلا تحولت (الذال) الى (زاي) و أحيانا الى (دال) ، فيقال : زهن بدل ذهن ، وزكْر بدل ذكر ، وزهَبَ بدل ذهب ، ودهبْ بدل ذهب ، ويقال : دِيبْ بدل ذيب (بعد تسهيل الهمزة) .

وتتحول تاء افتعل الى طاء ، بعد أصوات الاطباق . فيقال : (اصطبر) بدل (اصتبر) ، (اضطرب) بدل (اضترب) .

أما النظام البنيوي الذي يخص المفرد ، فيصيبه التغير كذلك . ولكنه لايشمل كل أفراده ، بل يخلف وراءه ، عبر الزمن ، بقايا من النظام السابق ، هي التي نسميها «الحطام اللغوي» ، وهي التي تبدو وتختفي على ألسنة بعض المتعمقين في اللغة . من ذلك البيتُ الذي سقناه لتأبط شرا ، واستعمال الضمير والظاهر مع الفعل المتقدم على فاعله كما في قوله تعالى : «وأسرُوا النَّجْوَى الذين ظَلَمُوا» وقوله : «وَعَمُوا وصَمُّوا كثيرٌ منهم» .

⁽١) لصاحب هذا البحث بحث آخر عن غموض معنى الفساد اللغوي الذي يقول به الرواة والنحويون .

⁽٢) أنظر الخصائص جـ ٢ ص ١٠ ـ ١١ .

أما نظام الدلالة المعنوية فدائم التغير ، لأنه الغاية التي كانت من أجلها اللغة . فالكلمات تغير من معانيها باستمرار ، لتستجيب لمطالب النفس الانسانية ، وهذه المطالب لاتنقضي . وهذه الكلمات هي التي تكون البروة اللغوية . ولكل لغة أسلوبها الخياص ، في إنهاء هذه البروة . والمجاز والاستعارة والمشترك اللفظي من أهم وسائل الثراء اللغوي في جميع اللغات . وتتغير معاني الكلمات لعوامل عدة ، وهذا التغير قد يلقي ببعض الدلالات المعنوية في زوايا النسيان أبدا أو فترة من الزمان . وبمقدار حصيلة الانسان من المفردات والاساليب تكون حصيلته من اللغة .

هذه الأنظمة الشلاثة مرتبط بعضها ببعض كل الارتباط ، ومتداخلة تداخلا كاملا . ونحن انبها نفصلها في الدراسة لتسهيل ادراكها . فالأصوات منها تتألف الكلهات ، فلا وجود لهذه دون تلك ، والاصوات داخل الكلهات قد يؤثر بعضها في بعض ، وهذا التأثير قد لا يتعدى مجال الاصوات لتحويل صوت الى آخر ، وادماجه فيه ، فالنون تتحول الى ميم اذا وليها ميم أو باء ، كها في قوله تعالى : « وإما تَّخَافَنَ فيه من قوم خيانةً فانْبِذْ إليهم على سواء» والواو والياء الاصليتان تتحولان الى همزة . في مثل قائل وبائع .

وقد يحدث تغير حقيقي في الصيغة ، كها في مثل جاء بدل جائبيء اسم فاعل من جاء ، وفي مثل فرازنة وزنادقة ، وجحا جحة ، فقد لحقتْ بالجميع تاء عوضا عن ياء المد في فرازين ، وزناديق ، وجحاجيح ، وبذلك تغير الوزن .

وكذلك الهاء في تَفْعِلَة في المصادر عوضا عن ياء تَفْعِيل أو ألف فِعّال ، وذلك نحو : سلّيته تسلية ، وربّيته تربية : الهاء بدل من ياء تَفْعِيل في تَسلّى وتربّى أو ألف سِلاً ، وربّاء أنشد أبو زيد :

باتت تُنزّي دلوَها تَنْزِيّا كَمَا تُنزى شَهْلَةٌ صبياً (١)

ومن ذلك تاء الفَعْلَلَة في الرباعي ، نحو الهَمْلَجَة (٣) ، والسَّرْهَفَة ، كأنها عوض

^{ُ (}١) الانفال ٨ / ٥٥ . (٢) الشهلة : العجوز ـ وفي شرح شواهد الشافية ص ٦٧ وهذا الشعر مشهور في كتب اللغة العربية وغيرها ، ولم يذكر أحد تتمته ولا اسم قائله (المحقق) أنزاه ونزاه تنزية وتنزيا وثب به

[·] رَمِ يَـُــُونُ (٣) الهملجة : حسن سير الدابة في سُرعة _يقال : سرهفه : أحسن غِذاءه ، .

من ألف فِعْلال ، نحم: الهِمْلاج ، والسِرْهاف . قال العَجَّاج : (سَرْهَفْتُه ماشتُتُ من سِرْهَافِ) . (١)

كذلك تتصل البنية بالمعنى ، فالكلمات أوعية المعانى . وقد أصاب (ابن جني) حين قال : زيادة المُبْنَى تذل على زيادة المُعْنَى ، فكَسر الشيء : فصل أجزاءه بعضها عن بعض ، وقد يكفي على هذا المعنى أن يصبح قطعتين أو ثلاثا . وكسره : فصل أجزاءه بعضها عن بعض ، إلى قطع صغيرة وعديدة ، وانكسر : قام به الكسر ، وتكسر : تفرقت أجزاؤه ، وهكذا .

هناك اذن رابطة وثيقة بين أجزاء الكلام ، تجعلها وحدة متكاملة . والتطور الذي يصيب أحد أجزاء الكلام يستغرق وقتا طويلا ، وان كان بعضه يحتاج الى وقت أطول من الأخر .

كذلك تختلف فترة تكون كل عنصر عن العناصر الأخرى . فالنظام الصوتي الايحتاج لوقت طويل لكي يتكون . فالطفل يأخذ منذ يولد يدرب نفسه على النطق ، ولا يلبث جهازُ نطقه أن يعي جميع أصوات اللغة التي ينشأ فيها . ويظل هذا النظام الصوتي ملازما للانسان طوال حياته ، اللهم الا اذا أصاب بعض أعضاء النطق عاهة من العاهات أو حدث تأثر خارجي من لغة أخرى . أما النظام البِنيوي فيحتاج في تكونه الى فترة من الزمن قد تطول وقد تقصر ، تبعا لاستعداد الطفل لاستيعاب المفردات والتراكيب التي يحتاج اليها في التعبير عن نفسه .

وهذاً النظام مستقر ، ولكنه أيضا متطور وقد يستغرق تطوره كسابقه جيلا أو أكثر .

وأما نظام الدلالة المعنوية فيختلف من شخص لآخر ، لأنه يقوم على مقدار الحصيلة اللغوية التي يحصل الشخص عليها . وهو أقل ثباتا من النظامين السابقين . فالمفردات كثيرا ماتغير من معانيها ، ولكنها تضم المعاني الجديدة الى القديمة . وقد تستغني بالأولى عن الثانية ، وقد يعيشان معاجنبا الى جنب . وتحوى المعاجم كلَّ المعاني التي حملتها المفردات والتراكيب عَبْر عمرها الطويل ، فتختزنها . وهي مابين جثث هوامد ، تظل قابعة في زوايا النسيان زمنا قد يطول ، وقد يقصر ، وبين أجسام حية نابضة تتداولها الألسنة والأقلام في كل وقت وحين .

⁽١) الخصائص جـ ٢ ص ٣٠٢ . وهـ ذا من أرجوزة في الحـديث عن ابنـ ه رؤ بــة . انظـ رالخزانة ١ / ٢٤٩ والديوان ٤٠ ، وسمط اللآلي ٧٨٨ .

واذا كانت الأصوات التي حلت محلها أخرى تختفي من الاستعمال كلية ، فان الحطام الذي يُخلِفه النظام البنيوي يظل عالقا باللغة فترات طويلة ، والمعاني التي دالت دولتها قد تعود الى الظهور اذا ماهيئت لها الأسباب التي تبعث فيها الحياة . ففي الفترات التي تنهض فيها الأمة ، وتدب الحياة في ألوان نشاطها المختلفة ، تحتاج الى مفردات ومعان جديدة ، لتعبر بها عن المستحدثات التي جدت فقد تُبتكر هذه الفردات ، وقد تتلفت الأمة الى ماضيها الطويل ، فتحيى موات المفردات التي تنوسيت دهورا طويلة ، وتستعملها كما نفعل نحن في عصرنا الحديث ، فنعطي معاني جديدة لكل من (السيارة ، والقطار ، والقاطرة ، والماتف وغيرها) وكما تفعل اللغات الاوربية حين تقتبس من اللغتين الاغريقية ، واللاتينية بعض مفرداتها ، كما هي أو بتحويرها ، واخضاعها للقوالب الجديدة .

نالنا: الكلام عَنُ نشأة اللغة وتطورها

لقد خاض العلماء العرب في الكلام عن الطريقة أو الطرق التي تكونت بها اللغة العربية . وذهبوا في ذلك مذاهب شتى . والذي يهمنا مما قالوه هو أن اللغة لم تنشأ دفعة واحدة ، بل مرت بأطوار عديدة ، تغيرت فيها تارة بالزيادة وتارة بالنقص ، وان كانوا قد اختلفوا فيها سبق ، وفيها لحق من وجوه الكلام . وقد عقد ابن جني في الخصائص عدة فصول عرض فيها لأمور اللغة في مراحلها الأولى كها تصورها ، واستعرض فيها بعض ماقاله رجال اللغة من قبله ، وفي زمانه .

من ذلك ماورد في الخصائص (جـ ٢ ص ٢٨) من قوله : باب في هذه اللغة : أفي وقت واحد وضعت أم تَلاحُق تابعُ منها بفارط . وما ورد في جـ ١ من قوله :

«باب القول على اللغة ماهي» (ص ٣٣) وباب القول على أصل اللغة : أإلهام هي أم اصطلاح ؟ وباب القول على اجماع أهل العربية (ص ٤٠) متى يكون حجة (ص ١٨٩) . وباب في تدريج اللغة (ص ٣٤٧) . وباب فيما يرد عن العربي مخالفا للجمهور (ص ٣٨٥) وغيرها .

كل هذه الابواب وكثير غيرها تعالج موقفنا من التراث اللغوي الذي وصل إلينا . وقد أشرنا من قبل الى ماقاله (ابن جني) عن الاستعمالات اللغوية التي ورثناها ، والتي لاتتفق والقواعد النحوية التي استخلصها النحاة من هذا التراث ، والتي يعدونها (شاذة) . وقبل أن نبدي رأينا في طبيعة هذا الحطام اللغوي الذي خلفته لنا الدهور الطويلة العديدة منذ الازمان السحيقة ، والذي علق بكيان اللغة كلما أصابها تطور نرى أن نتفق مع المستمع الكريم على بعض الحقائق المسلم بها ، والتي تعتبر تمهيدا لما سنقوله .

ان اللغة العربية ، من الوجهة التاريخية السائدة اليوم تعد من أحدث اللغات السامية ظهورا (١). ولكننا نعرف من التاريخ القديم أن حروبا نشبت ، وغارات وقعت بين العرب وكل من الأشوريين والرومان ، والفرس . غير أن التاريخ لم يشر بشيء إلى لغة هؤ لاء الأعراب في ذلك الحين . وكنا نود أن نعرف الكثير عنها في هذه العصور القديمة حتى نتتبع مراحلها تتبع المستيقن ، والذي يهمنا هنا أن نعرفه ، هو أنه ليس من طبيعة الأشياء أن تولد لغة مّا ناضجة ، غنية على هذا النحو . إن العربية التي عرفناها في شعر امريء القيس ، واضرابه من الجاهليين ، ليست لغة فقيرة ساذجة ، بل هي لغة ناضجة في إعرابها ، وثروتها اللغوية ، وقواعِدها . لذلك ، فمن المحقق أن هذه اللغة حين ظهرت على مسرح التاريخ ، كانت تمثل طورا من أحدث أطوارها .

«كانت هناك فيما يعتقد مرحلتان في نشأة اللغة العربية ، سبقتا هذه المرحلة : مرحلة يسمونها (PRE - ARABIC) (المرحلة السابقة على العربية) هي أولى مراحلها ، كانت فيها داخلة في مجموعة اللغات السامية ، لم تتشكل بعد ، فتصير لغة مستقلة ، متميزة ، لها خصائصها وطابعها .

في هذه المرحلة كانت تفقد كثيرا من ميزاتها التي نعرفها الآن. ومع ذلك تعد اللغة في هذه المرحلة (جدة) اللغة العربية الفصحى. والمرحلة الثانية، وهي أحدث من الأولى نسميها (PROTO - ARABIC) (المرحلة العربية الاولى) وفيها أصبحت اللغة العربية مستقلة، متميزة، متهيئة لان تكون لغة كتابة وشعر. ثم تتحول في المرحلة الثالثة، قبل ظهور الاسلام، إلى لغة أدبية تتمثل في لغة أدباء الجاهلية.

⁽١) ليس معنى هذا أنها أحدثها وجودا .

قدَّر الباحثون لها هذه المراحل على ضوء نصوص ونقوش كُشِف عنها في جزيرة العسرب وغسيرها . ولكن هذه النقوش ، وتلك النصوص لم تُلْق ضوءا قويا على تفاصيل تطورات هذه اللغة (١)

ومسألة أخري هامة لابد من الوقوف عندها قليلا: «وهي أن النحو لاينشأ مع نشأة اللغة ، وإنها هو مرحلة من مراحل نموها ، ومظهر من مظاهر رقيها ، إذ هو بهذا الاعتبار وليد العقل ، واللغة في نشأتها وليدة الحس .

وليس من شك في أن العقل متأخر في الوجود عن الاحساس. وليس أدل على ذلك من أن النحو المكتمل لا يوجد الا في اللغات الراقية ، ذات الآثار الأدبية ، والعلمية الثرة .

«وقد سارت اللغة العربية في هذا الطريق سير غيرها من اللغات الأخرى ، كاللغتين اللاتينية واليونانية مثلا . واذا لم يكن لدينا من الوثائق التاريخية ولا من الادلة العلمية اليقينية ما يُسهل علينا مهمة إثبات ذلك بالنسبة للغة العرب ، فان مانجده في مثيلاتها من اللغات الأخرى _ يجعلنا نطمئن الى هذا الحكم . . .

ومن الشابت أن كلا من اللغتين اليونانية واللاتينية ، قد نشأت ساذجة في الفاظها ، وفي تراكيبها ، محدودة في أساليبها وفي طرق أدائها للمعاني . غير أنها لم تلبث أن اتسعت دائرتها ، وتعددت أساليبها ، وتلا ذلك طبعا مايشبه التعقيد المعنوى : فبدأت تلتزم طرقا خاصة لتأدية المعاني ، وتميزت بعض التراكيب عن بعض ، اذ أن اللغة في حياتها تخضع لحياة المجتمع ، وطبيعته ، فكلما كبر المجتمع ، وتعددت مشاكله ، وتعقدت أموره - كان في حاجة إلى أن تنمولغته ، وتتعدد تراكيبها ، وتتشكل أساليبها ، وفق مايستلزمه النمو العقلي في المجتمع . ولعل أول مظهر من مظاهر رقيها هو ما وجد فيها من الاغاني الشعبية التي تكون جزءا مما يعرف عند الغربيين بالفولكلور (FOLKLORE) «التراث الشعبي» ولما كان زمام هذه الاغاني الشعبية لايزال منوطا بيد الحس ، ولا دخل للعقل فيه إلا عن بعد ، فان الملحوظات النحوية ، والالتزامات الدقيقة المنظمة لاترى ، ولا تحس الا قليلا . . .

(١) المدخل الى دراسة النحو العربي على ضوء اللغات السامية للدكتور عبد المجيد عابدين ص ٣٣ .

«... ولكن عندما يدخل العقل في دور العمل ، ويتسلم زمام اللغة ، ويبدأ في تصريفها ، وترتيبها ، بحيث يسهل أن يؤدي بها كل مايتصوره من المعاني ، وما تدعو اليه الحياة الاجتماعية _ نجد اللغة تبعا لذلك تدخل بدورها في التزام طرق للأداء مخصوصة ، وأساليب في التعبير متباينة تباين المعاني والتراكيب (١).

طائفة من الحقائق:

ما تقدم نستطيع أن نستخلص الحقائق الآتية :

(١) اللغة العربية التي وصلتنا مرت بها مربه غيرها من أطوار ، وتعثرت خلال رحلتها الطويلة ونهضت ، وسلكت سبيل التقدم حتى وصلت الى أن أصبحت أهلا لأن يوحي الله بها كتابه على لسان رسوله العربي (صلوات الله وسلامه عليه) .

(٢) أنها في خلال نموها كانت تترك وراءها في كل مرحلة تنتقل اليها آثارا من المرحلة أو المراحل التي سبقتها ، وهي ما أسميناه «الحطام اللغوي» ، والذي سنضرب له الكثير من الامثلة في الجزء التطبيقي من هذا البحث (إن شاء الله) .

(٣) أن طول العهد الذي قطعته بعيدا عن أخواتها الساميات أعطاها نوعا من الاستقلال ، وكون طول عمرها أكثر من عمر أخواتها جعلها تبلغ غايتها أوتكاد . فظلت تنمو باطراد ، بينها توقفت أخواتها ، واحدة بعد الأخرى ، في احدى مراحل النمو . وبهذا لاندهش اذا رأينا مثلا ظاهرة كالاعراب تكتمل فيها ، بينها أصابها التوقف في غيرها .

(٤) أنّ تفرقَ أهِلها هنا وهناك ، ويقاء هم على هذه الحال دهورا طويلة عدد من لُغَيّاتها ، وباعد أحيانا بينها . ثم اننا كلما اقتر بنا من فترة ظهور الاسلام ، وجدنا نوعا من التقارب والتلاقح بين هذه اللغات ، مما جعل الفروق بينها تأخذ في التناقص.

وأكثر ما كان بينها من تباعد ، كان في أبنية الأفعال ، وفي بعض الظواهر اللغوية كالهمز والتسهيل والأدغام والفك ، والاكهال ، والحذف ، وتغير صور الوقف ، واختلافِ جموع التكسير ، والمصادرِ ، وغيرَها .

⁽١) اللغة والنحوص ٥٢ ـ ٥٤ .

ثم جاء القرآن الكريم وثبت قواعد اللغة المشتركة ، فصارت هي لغة القوم جميعا . وبذلك قضى بطريقة غير مباشرة على اللغات فاقتصرت آخر الأمر على لغة الحديث .

(٥) أن من العسير جدا ، بل من المستحيل حتى الآن ، أن نعرف حال اللغة العربية ، حين انفصلت عن اللغة السامية الأم ، ولا كيف تألفت ولا في أي عصر ظهرت ، ولا كيف تطورت ، فالذي وصلنا منها ناضج كلَّ النضج ، وان كان يحمل في طياته حطاما ، هو صدى لتغير ات حدثت ، ولكننا لانعرف عن تاريخها شيئا . ثم أن التغير ات التي أصابت اللغة في جملتها ، واللحون ، كلَّ على حدة ، استغرقت ، ولا شك ، دهورا طويلة ، وحدثت بطريقة عفوية ، مثلها في ذلك مثل سائر اللغات الانسانية .

حقا ، ان من اللغات المعاصرة مايمكن معرفة تاريخه ، ولكن منها ماهو موغل في القدم ، وما اختفت من الوجود مراحله الأولى . ولذلك كان من العسير تتبع سير التطور فيه ، والتأريخ له . كذلك اختفت من الوجود اللغة (الأم) التي تولدت عنها هذه أو تلك .

وإذا كان في استطاعتنا أن نعرف أوليات بعض اللغات الاوربية ، المأخوذة من السلاتينية أو الاغريقية ، فإن معرفة انفصال هاتين عن اللغة السنسكريتية أمر بالغ الصعوبة . ولقد حاول (علم اللغة المقارن) أن يصل الى نتائج مؤكدة في تحديد معالم الروابط بينها ، ورد كل شيء الى أصله ، ولكنه لم يوفق .

وإذا كانت اللغة السنسكريتية ، التي هي أم اللغات الهندية - الاوربية ، معروفة ، ومع ذلك صعب معرفة طريقة انسلاخ هذه عن تلك ، وزمانه ، فانه يكون أكثر صعوبة أن نعيد تكوين اللغة (الأم) للغات السامية .

« من هنا يجب أن نفرق في التأريخ للغة بين أمرين :

(١) أصلها و (٢) التغيرات التي طرأت عليها .

فالأول من المحال أن نهتدي اليه . وليس من العلم في شيء أن نخمن في أي صورة بدأ الكائن الانساني يتكلم . ونحن اذا كنا نأخذ على القدماء أنهم أوغلوا في النظر المحض ، ودارُوا في فراغ ، فلا ينبغي لنا أن ننبه على هذا الخطأ ، ثم نقع في

مثله . انها ينبغي أن يكون مجال بحثنا اللغوي هو التغيرات التي طرأت على اللغة ، دون أن يمتد بصرنا الى الأصل والنشأة ، ودون أن تشرئب أعناقنا الى ماض سحيق ، ليس من سبيل الى الاهتداء اليه (١) »

(٦) «على أن من الخطأ أن يظن أن المنهج التطوري يعتمد على الاستفادة من الظواهر اللغوية البارزة وحدها ، بل يعتمد (كذلك) على اللحون العربية الدارجة ، واللغات التي اتصلت بالسامية كذلك .

«لهذا كانت المقارنة من الاسانيد القوية التي يعتمد عليها منهج التطور اللغوي . كما أن من الخطأ أن يظن أن مثل هذا المنهج يحول دون تسجيل مايحدث في أثناء سير اللغة من انحرافات ، واتجاهات مضادة لطريق التقدم . فهذا أمر طبيعي . والتطور الاصطلاحي يحمل في طياته هذه المعاني ، والاحتمالات» (٢).

لقد عامل النحاة ماجمع من تراث لغوي معاملة واحدة ، واعتبر وه كلَّه نِتاج المرحلة الأخيرة للغة ، وهذا خطأ . إنهم لم ينتبهوا الى وجود تطور لغوي تخضع له أية لغة أثناء مسيرتها الطويلة ، عبر الزمن . ولوأنهم آمنو أو فطنوا لذلك لأراحونا من الخلافات التي لاحصر لها ، والتي أثقلت كاهل النحو ، ونفرت منه ، ولا زلنا نرددها دون أن نجرؤ على مخالفتها وكأنها مقدسة . كانت الأكثرية العظمى من الذين عالجوا قضايا النحو من الموالي ، الذين لا يعرف أكثرهم شيئا عن ماضي اللغة العربية ، ولا عن صلتها بغرها .

يقول بروكلمان عن سيبويه «وروى أن (سيبويه) كان بادي العي في لغة الخطاب ، فلم يكد يسيطر على العربية في حديثه العادي ، وليس فقط في مشاكل مادته التي تخصص فيها . وكثيرا ما يلحظ قاريء كتابه أيضا قلة حيلته ، وظهور عجزه ، بل غموضه وابهامه في التعبير ، كأنها يساور اللغة مساورة ، ويعالجها علاجا . «وعلى الرغم من ذلك لم يزل أهل الشرق يعدون كتابه أكمل كتاب في بابه . بل قال (محمد) ابن يزيد (المبرد) : لم يعمل كتاب في علم من العلوم مثل كتاب سيبويه» (١)

⁽١) المدخل الى دراسة النحو العربي على ضوء اللغات السامية للدكتور عبد المجيد عابدين ١٧ / ١٨ . (٢) المرجع السابق ص ١٩

⁽٣) تاريخ الأدب العربي جـ ٢ ص ١٣٢ . انظر خزانة الأدب للبغدادي ١ / ١٧٩ هـ

حقا ، ان دراسة النحوكانت لاتزال في أولى مراحل نموها ، وأن المصطلحات لم تكن قد وجدت بعد ، واستقرت . ولكن هذا ليس الا بعض العذر . ويكفي أن نقارن أسلوب (الكتاب) بها ورد في كتب المعاصرين المؤلفة من غير العجم لندرك الفرق في الإحساس باللغة .

يقول امام النحاة:

هذا باب ما ينتصب خبره ، لأنه معرفة ، وهي معرفة ، لاتوصف ، ولا تكون وصفا .

ويقول :

هذا باب ما يُنتَصِب ، لأنه ليس من اسم ماقبله ، ولا هو هو . »

ويقول:

«هذا باب مايثنى فيه المستقر توكيدا .»

وهكذا.

على أن قلة الآثار الادبية ، ولا سيها النثرية ، التي وصلت النحويين ، جعلتهم لايستطيعون الحكم على أساليب اللغة ، وارجاعها ، كل الى عصره ، حتى يمكن اتباع التطورات التي أصابتها عبر الزمن ، ورد كل شيء الى أصله . لذلك عدت اللغات جميعا ذات تاريخ واحد ، ومكونة وحدة متهاسكة الا في النادر ، واستنبط هؤلاء النحاة قواعدهم على هذا الاساس ، وما خرج عنها عد (شاذا) ، أو (ضعيفا) ، أو (رديئا) .

فكل ماصح لديهم من كلام العرب ينبغي أن يكون مطابقا لهذه القواعد العامة التي لم تكن في الواقع سوى ظواهر ، وضوابط للهجة قبلية واحدة ، هي لهجة قريش غالبا بعد أن توفر لها من عوامل الرقي ما يجعلها تتغلب ، وتسود لحون القبائل الأخرى .

ولم يتنبه هؤ لاء النحويون الى ما يمكن أن يكون هناك من أثر بالنسبة لتطور تلك اللحون ، ومنها لحن قريش نفسها ، حتى استقرارُها على طريقة واحدة في النطق والاداء .

ولم نجد من بين هؤ لاء النحويين ، بالرغم من هذه العصور الطويلة التي مرت بها دراسة النحو ، من حاول أن يضع نصب عينيه هذه الاعتبارات ، فيفهم اللغة على حقيقتها ، ويخلصها من ذلك الجمود الذي منيت به ، ومن تلك الشبه التي علقت بها(١) .

ولقد نظر النحاة الى شواهد العربية على أنها وكل متاسك، ، كها نظر الفقهاء الى النصوص الشرعية في القرآن . هؤلاء كانوا اذا صادفوا مايشعر بالتعارض في النصوص الشرعية وجدوا حل الاشكال في أمرين هامين : التأويل ، وفكرة الناسخ والمنسوخ . فاذا جاز أن يكون للتأويل نصيب مّا في تقعيد القواعد ، فلا مجال للتوفيق بين الشواهد اللغوية المتضاربة على أساس فكرة الناسخ والمنسوخ .»

«والامر الذي لاشك فيه أن العربية كأي لغة في العالم ، لا يمكن أن تكون «كلا متهاسكا» خالية من التناقض والتضارب .

«وأكبر الظن أن فكرة (تكامل اللغة) هذه التي سيطرت على أدمغة النحويين إنها هي أثر من آثار التفكير الفقهي . الذي لايقبل أن يكون هناك تناقض , أو تهافت ، أو تعارض في النصوص المقدسة (٢٠) .

(٧) نحن نتكلم عن التطور اللغوي ، لا عن (التقدم) ، فالتطور يعني التغير ، أيا كان نوعه . أما التقدم فيعني السير نحو الأفضل ، والأكمل ، يعني وجود مثل أعلى للغة يراد الوصول اليها .

كانت هذه النظرة هي نظرة القدماء بعد تأثر هؤلاء ، كما يقول فندريس ، بها كان يفعله مؤرخو الأدب . فالقول بتقدم اللغة ليس الاصدى لمصطلح من تاريخ الأدب . اذ أن العادة قد جرت وقتا طويلا على اعتبار معنى التقدم في الأدب دينا ومذهبا . فكان الناس لايرون في تطور الأنواع الأدبية إلا صعودا نحو الكمال أو انحدارا الى الانحلال .

وهذا هو الرأي الابتداعي (الكلاسيكي) الذي يذهب الى أن الفن والذوق بعد أن يصلا الى كما لهما لا يسعهما الا الانحدار والفساد .

⁽١) اللغة والنحوص ١٧٤ ـ ١٢٥ .

⁽٢) المدخل الى دراسة النحو العربي ـ للدكتور عبد المجيد عابدين ص ١٠٦ ـ ١٠٧

«وقد نقل علياء (فقه اللغة) الابتداعيون هذه الفكرة الى مجال الدراسات اللغوية ، متخيلين أن تاريخ اللغتين ، الاغريقية واللاتينية ، ، به نقطة كمال ، وصلت اليه هاتان اللغتان بعد مجهودات طويلة . ومن بعدهما سارتا في طريق الاضمحلال . (۱) »

«ومع ذلك ، فهذا ماكان يفعله لغويو القرن المنصرم الذين كانوا يقررون لكل لغة مثلا أعلى من الكمال ، وكانوا يجعلون هذا المثل الاعلى في الماضي ، وفي الماضي السحيق بطبيعة الحال . ويزعمون أنه كانت توجد في العصر (البدائي) لغة كاملة ، ذاتُ اطراد مطلق ، وأنه لما كان التغير من قوانين اللغة كان من المحتوم أن يسير تطور اللغة بها الى الابتعاد عن مثلها الأعلى (البدائي) .

لذلك يتكلمون عن هذا التطور اللغوي في عبارات غريبة فهو عندهم تشويه أو تحريف أو فساد . وليست لغاتنا الحديثة ، هذه المواليد المتأخرة الأوان ، التي رمى بها حظها العائر في شيخوخة الزمان ، الا بقايا مزدراة ، أو على حد تعبير (شليشر) الألماني الا «فتاتا نخرته العُثّة ، فكلها تقادم عهد اللغة عظم جانبها من التقدير»

«ومن العبث أن نؤكد أن الفرض القائل ، بأن هناك لغة كاملة قدّت في عهد سحيق مّا قبل التاريخ - فرض خيالي محض ، شأنه شأن الفكرة القائلة بأنه يمكن أن توجد لغة لا تتغير ، وتبقى جامدة في سكونها أبد الأبدين . يجب أن نسلم بالتغير ، لأنه أمر حتمي ، وألا نستسلم للبكاء على العصر الذهبي - كما يقول فندريس - لأن هذا عبث في عبث ، سواء في اللغة أم في غيرها .

و (بعد)! أوليس للتغير مزاياه العديدة ؟ ذلك ماتقول به مدرسة أخرى ، أخذت وجهة النظر المخالفة للمدرسة السابقة على خط مستقيم ، وذلك بنقلها للمثل الاعلى للغة من الماضي الى المستقبل (٢). »

«لقد أخذت هذه المدرسة على عاتقها رد اعتبار اللغات الحديثة إليها. فهي ترى أن أكمل اللغات هي التي قطعت في التطور أطول شوط، وهي بذلك لا تؤدي إلا الى ايقاظ تلك المعركة الخالدة، معركة القديم والجديد، بتطبيقها على المسائل اللغوية (٣).

⁽١) قندريس : اللغة ٤١٧ ـ ١٨٨

⁽٢) يمثل يسبر سِن هذه المدرسة خير تمثيل .

على أننا حين نتكلم عن التطور اللغوي وما خلفه من حطام ، لانعني التقدم أو التخلف _ كما قلنا _ وانما نعني مطلق التغير ، سواء أكان الى الافضل أو الى الأردأ . ولقد قال (فندريس) إن من عادة الخلف أن ينظروا الى أعمال السلف في شيء من القداسة ، ويحاولوا الابقاء عليها في أية صورة كانت ، والاحتجاج بها .

والدراسات اللغوية الحديثة تحاول أن تزيل هذه الفكرة من الأذهان . ولكنها لم تستطع حتى الآن أن تبلغ غايتها . فلا زالت قواعد النحو التي وضعها أسلافنا ، على مابها من تعقيد ، وبلبلة فكرية ، وتأثر بالمنطق الاغريقي ـ تدرس في مدارسنا ، وفي جامعاتنا . ولا زالت التفريعات التي لا أول لها ولا آخر ، والتي لاجدوى منها ، وقد مضى زمانها ـ تحشى بها أدمغة الدارسين ، ويطارد بعضها بعضا ، فتعود هذه الأدمغة بعد طول دراستها أفرغ من فؤ اد أم موسى .

ولست أدري إن كان هذا راجعًا الى أن الخلف عاجزون عن أن يضيفوا شيئًا جديدًا أم أن وطأة التراث ثقيلة ، فمن الصعب التخلص منها ؟ كل هذا ممكن .

(A) واذا نحن سلمنا بمبدأ (التطور اللغوي) فهذا معناه أن اللغة يمكن أن تضم في وقت واحد مستويات مختلفة ، ومتناقضة أحيانا من الصور الكلامية ، ومن الأدوات ، والمفردات ، والتراكيب المتباينة الدلالة ، والتي لايمكن أن تكون وليدة طور واحد . وفي هذه الحالة يكون علينا أن نصنف هذه كلها تصنيفا تاريخيا ، فنبين بذلك مسيرة التطور ماأمكن .

حقا ان الامرليس بالهين ، فليست لدينا نصوص تمثل كل طور ، وانها الذي نملكه هو رواسب خلفتها لنا الأطوار السابقة ـ هي التي أسميناها حطا ما لغويا ـ وان لم تفصح هي نفسها عن ذلك . بل اننا نحن الذين نلتقطها ، ونحكم عليها ، مستعينين في ذلك بوسائل موازنتها بها في اللغات السامية الأخرى ، وبندرة وجودها وسط خضم متهاوج من الاستعهالات التي تخالفها ، الى غير ذلك من المقاييس (وسنرى أمثلة لذلك في القسم الثاني : التطبيق) . فاللغة العربية مثلا تحمل الينا صورا من الاعراب بالحروف ، وأخرى بالحركات ، فهل وجدت هذه الصور جميعا في وقت واحد أو أن احدى الطريقتين سبقت الأخرى في الوجود ؟ وأيها كانت السابقة ؟ وهل بلغ التطور مداه ؟

ثم هناك صور مدء ددة للوقف: الوقف باشباع الحركة الأخيرة ، والوقف بالسكون ، والوقف بنقل هذه الى الحرف الذي بالسكون ، والوقف بنقل هذه الى الحرف الذي قبل الأخير ، والوقف زيادة نون على الكلمة الخ فلم هذا التعدد ؟ وهل كانت هذه الصور وليدة لغة واحدة أو لغتين أو أكثر ، ولماذا لم يحدث تنسيق بينها ، ومرة أخرى نسأل ، هل بلغ التطور مداه ؟

ويزداد الأمر صعوبة حين نجد أنفسنا أمام أمشاج من لحون عربية متعددة مبعثرة في ثنايا التراث اللعوي انذي جمعه النحاة واللغويون .

(٩) في التعرف على صور هذا التطور ، علينا أن نحاول ، مستعينين باللغات العربية المتعددة ، أن نقف على طبيعته ، وعلى مساره . والقرآن الكريم خير معين لنا على الوصول الى هدفنا ، ففيه الكثير من الكلمات اللهجية ، والأساليب : فيه الادغام ، وفيه الفك ، فيه تحقيق الهمز وتسهيله ، فيه صور من الوقف . . . الخ

يقول الله _ سبحانه :

«ياأيها الذين أمنوا مَن يَرتدً منكم عن دينِه فيمتْ ، وهو كافرُ ، فسوف يأتي الله بقوم - يُحِبُّهم ويحبونَه» (١)

ويقول:

«ومَن يرتدِدْ منكم عن دينه ، فيمت وهوكافر ، فأولئك حبطت أعمالُهم في الدنيا والأخرة» (٢)

ويقول جل شأنه :

«يسألونك عن الأهلة ، قل : هي مواقيتُ للناس والحجِّ» (٣) بتحقيق الهمزة

ويقول :

«ولم يكن له كفوا أحد» (١) بتسهيل الهمزة

وفيه عشرات المفردات أوكها يقال: (اللغات).

(١) المائدة ٥ / ٤٥

(٢) البقرة ٢ / ٢١٧ (٣) البقرة ٢ / ١٨٩

(٤) الاخلاص ١١٢ / ٤

«ويؤسفنا أن هذه النظرة لم تدخل في حساب القدماء ، عندما قعدوا للغة العربية الفصحى ، لغة قريش أولغة القرآن . فقد كانت هناك لحون كثيرة الى جانبها ، فأدمجوها في لغة قريش ، ونظروا اليها على أنها صور مختلفة ، أومذاهب مختلفة من اللغة المشتركة . كانت لحون هذيل أوقيس أوطيء أوتميم أوربيعة مختلفة فيها بينها . ومع ذلك أدرج النحويون هذه اللحون في لغة قريش . ولقد كان أصحاب رسول الله (صلوات الله وسلامه عليه) يفرقون بسليقتهم بين لغة قريش ، وسائر لغات العرب في قراءة القرآن الكريم وفي تدوينه . وعندما قرأ (ابن مسعود) «عتى حين» أرسل اليه عمر بن الخطاب بأن يقريء الناس على لغة قريش لا على لغة هذيل .

«كان من أثر هذا الخلط بين لغة قريش ، وبين لحون التخاطب الخاصة أن اضطربت قواعد اللغة ، (لأن شرط اللغة الاطراد ، والتوحد في الخصائص) . فمحاولة بناء قواعد اللغة العربية من كل ماروى عن القبائل [والنظر اليه على أنه من واد واحد] يؤدي حتما الى التناقض ، ويبعد باللغة عن الانسجام ، والاتحاد في الخصائص .

«فلو أن النحويين وقفوا في استنباط قواعدهم عند حد اللغة الأدبية التي جاءتهم موحدة ، وممثلة في كتاب الله الكريم ، وفي الآداب الجاهلية ، لجنبوا أنفسهم كثيرا من المهاترات ، والجدل فيها يجوز وفيها لا يجوز ، ولكنهم حاولوا اقحام تلك الصفات الحاصة للغات العربية ، فبدت لنا القواعد اللغوية مضطربة متعددة الوجوه . الى حد أن قال بعض الأقدمين «عجبت لنحوي يخطيء» .

«ولسنا نعرف لغة من لغات العالم قد تعددت فيها الوجوه ، وكثرت فيها الأقوال في المسألة الواحدة ، كذلك الذي حاول النحاة أن يطلعونا عليه ، ويعرفونا به (١)

لقد اختلف النحاة حتى في المصطلحات ، فهذا يقول «ضمير فصل» وهذا يقول «عهاد» وهذا يقول «فعل دائم» ، وذاك يقول «اسم الفاعل» وهذا يقول «خالفه» ، وذلك يقول . . . الخ .

واختلفوا اختلافا كبيرا في (العامل) ، حتى بلغ ببعضهم الأمر حد ذكر مبر رات لايقبلها عقل ولا منطق .

فعلينا أن نفصل بين لغة القرآن ، واللغات العربية الأخرى ، وأن نستعين بهذه (١) اللهجات العربية للدكتور ابراهيم أنيس ص ٣٤ . انظر المدخل الى دراسة النحو العربي ص ٥٠-٥١ في معرفة المراحل التي مرت بها اللغة الفصحى ، قدر المستطاع . ولكن علينا قبل ذلك أن نجمع هذه اللغات بطريقة جدية ، من ثنايا كتب التراث ، والا نكتفي منها بنتف ، نتخذ منها ركيزة لبحوثنا ، والا كان عملنا من جنس عمل من سبقونا ، ووقعنا في مثل ما وقعوا فيه من الخطأ . فهل سنفعل ؟

ان في استطاعتنا أن نحصر جموع التكسير التي استعملها القرآن الكريم ، وأبنية الأفعال ، والمصادر وغيرها من الظواهر اللغوية ونكتفي بها ، ونترك ماعداها أثرا تاريخيا . لنتفق على أنواع من المصادر محددة ، وأنواع من جموع التكسير التي تعد بالعشرات ، وغيرها ، ونعلمها أبناءنا ، ومن أراد المزيد فعليه بالكتب المراجع . فلسنا في حاجة مثلا أن نقول ان مصدر فعل اللازم يأتي على فعل عند الحجازيين ، وفعل عند أهل نجد كسكت سكتا وسكوتا . وهدأ هدءا وهدوءا ، فأحد هذين المصدرين كاف في التعبير عن المراد .

لاشك أن الامر ليس سهلا ، ولكنه ليس مستحيلا ، لوخلصت النيات وشحذنا الهمم ،

وعلينًا في دراسة هذه اللغة ودراسة لغة الكتاب الكريم أن نستعين - كما قلنا من قبل - باللغات السامية ، أخوات اللغة العربية ، في القاء الضوء على مسيرة هذا التطور ، وعلى ماغمض في التراكيب الجاهلية بخاصة ، وفي الاستعمالات القرآنية ، كتنوع أزمنة الفعل عند ذكر الحدث الواحد مثلا ، وهي التي يضل في فهمها النحويون ، فيضعون لها تخريجات ما أنزل الله بها من سلطان ، على حين أننا نلتقي بمثل هذا التنوع في بعض اللغات السامية الأخرى كالعبرية . استمع الى قول الله سبحانه - :

«إِن مثَـلَ عيسى عنـد الله كَمَثـل ِ آدم ، خلقَـه من ترابٍ ، ثم قال له : كُنْ فيكونُ (١) بدل كن فكان . ,

وقوله :

«إِن الذين يَتْلُون كتابَ الله ، وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سِرًّا وعَلاَنِيةً ، يَرْجُونَ تِجارةً لن تَبُورَ» (٢) فقد استعمل المضارع ، ثم الماضي ، ثم عاد فاستعمل المضارع .

⁽١) آل عمران ٣ / ٥٩ .

⁽۲) فاطر ۳۰ / ۲۹ / ۳۰ .

يوم تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضَعَةٍ عَمَّا أَرضعتْ ، وَتضَعُ كُلُّ ذاتِ خَمْلَ خَمْلَها . . (١) وهنا كذلك استعمل المضارع فالماضي ثم عاد الى المضارع. وهكذا . لقد حاول البلاغيون أن يجدوا تبريرا لكل هذه الاستعمالات، دون التغلل في أعماق الاستعمال اللغوي السامي أوحتى الالتفات اليه ، ودون الاحاطة بالاستعمال العربي بعامة في النثر . فعلينا أن نتفهم جيدا سر هذا التنوع اللغوي في أفصح بيان .

هذا ، ولم يكن القول بعجمة لفظ من الالفاظ في العربية عند الأقدمين مبنيا على البحث والدرس ، أوقل: إن القائلين بهذا لم يكونوا على علم بلغات غير عربية من لغات العجم ، وإنها كانت أقوالهم مبنية على الظن والوهم . وعندهم أن كل كلمة لم يشتهر فيها استعمال جاهلي فهي دخيلة ، وإذا كانت كذلك فهي فارسية عند أحدهم ، وعبرانية أوسريانية عند آخر ، وحبشية عند ثالث ، وهكذا . ولم يهتدوا الى أن بين العبرانية والعربية ، والسريانية والحبشية ، ولغات أخرى علاقاتٍ تاريخيةً وقراباتٍ لغويةً ، مردها الى الأصول السامية الأولى التي اهتدى اليها البحث اللغوي الحديث. وربما عَزَوا كلمات دخيلةً الى العربية ، ثم أخضعوها لقوانين الاشتقاق العربية .

«هذا ، وقد ذكروا للرَّقِيم في قوله تعالى :

«أم حَسِبْتَ أَنَّ أصحابَ الكهفِ والَّرقِيم كانوا مِنْ آياتِنا عَجَباً » (١) مدلولات عدة لاتقوم الا على الظن والوهم ، والوضع . قال أبو القاسم الزجاجي في أماليه :

«اعلم أن في الرقيم خمسة أقوال : أحدها هذا الذي روى عن ابن عباس (رحمه الله) أنه لَوْح كُتِب فيه أسهاؤهم . والآخر أن الرقيم هو الدُّواة ، ويروي ذلك عن مجاهد ، والثالث أن الرقيم : القرية ، وقال : هوبلغة الروم . والرابع : ان الرقيم : الوادي . والخامس ماروي عن (الضحاك) و (قتادة) أنهها قالا : الرقيم : الكتاب ^{٣)}

⁽١) الحج ٢٢ / ٢ .

⁽٢) الكهف ١٨ / ٩.

⁽٣) الأمالي ص ٦ - ٧ .

والى هذا يذهب أهل اللغة . [والسؤال الآن : من أين أتى كل هؤلاء بهذه المعاني ؟ من النذي كان منهم هناك ، ويعرف لحنهم ؟ أو أن وحيا أنزل بهذه المعاني على كل واحد منهم ؟ اللهم اهدنا الى صراطك المستقيم]

والحق أن «مادة رقيم من الألفاظ السامية التي وجدت في كثير من اللغات السامية» (١)

«وقد جاء في القرآن الفاظ لها أصول سامية ، وجدت في أغلب اللغات السامية ، ولكن الأقدمين وقفوا منها وقفة الجاهل بالأصول ، فقالوا أقوالا لم تبن على علم ثابت . ومن هذه كلمة (الطُّور) في قوله تعالى :

«وشَجَرةٍ تخرجُ من طُورِ سَيْناء» (٢)، وفي قوله تعالى :

«والطُّورِ ، وكتابِ مَسْطُورِ» (. .

فقد ذكر الجواليقي في (المعرَّب) ، قال (ابن قتيبة) : الطور : الجبل بالسريانية (١)

. وقال الفراء : وهو الجبل الذي بمدين الذي كلم الله (تعالى) موسى عليه تكليها (٥)

. وقال ياقوت : قال بعض أهل اللغة : لا يسمى طُورا حتى يكونَ ذا شجر ، ولا يقال للآجر (طُور) . ويقال لجميع بلاد الشام (الطور) . وبلسان النبط كلُّ جبل يقال له (طور) ، فاذا كان عليه نبت وشجر قيل : طُورُ سَيْنَاء (١) »

وقد استعملت كلمة (طور) في (سفر الخروج) بمعنى طبقة من الحجارة (١٠٠٠). أما في سفر (دانيال) فقد جاءت بمعنى الجبل (١٠٠٠) وفي السريانية : لَحْمَعُ وَلَى الْرَامِيةُ وَ لَمَ الْحَبَلِ عَظِيمُ وَالْكُلُمةُ آراميةُ الأصل ، لأنها بالطاء ، إذ المشهور أن (الطاء) في الأرامية و لم يقابلها (ظاء) في العربية . فكان حقها أن تكون (ظور) في العربية كما تقول (نظر) في السريانية (١٠٠٠).

- (١) دراسات في اللغة لابراهيم السامرائي ١٤٥ ١٤٧ .
 - (٢) المؤمنون ٢٣ / ٢٠ .
 - (٣) الطور ٥٢ / ١ .
 - (٤) المعرب ص ٢٢١ .
 - (٥) اللسان مادة (طور) .
 - . 17 / 74 (1)
 - . To / Y (V)
 - . Yo / Y (A)
 - (٩) انظر دراسات في اللغة ص ١٤٦ ١٤٧ .

يقال : كَمْ حَمَّرٌ بِهِ كُنْتُهُ طَمَّدُكُ : بادية طور سيناء . ويقال : نَجْمُ وَ مِنْ مُرَّدٍ : طور سيناء .

«ومن أجل هذا ، فالعلم بالساميات وسيلة مفيدة لفهم العربية» ولا يمكن فهم الخصائص التي تميز العربية عن غيرها من اللغات الا بالرجوع الى تلك اللغات التي تتصل بالعربية اتصال نسب .

«... ودراسة أي موضوع من العربية في ضوء هذه الطريقة تثبت لنا أن معرفة تاريخ لغة من اللغات غير ممكنة ، إِن دُرست ، وهي منعزلة عن غيرها من اللغات التي تقرب منها.وان تاريخ لغة لاصلة لها بغيرها ، أوقل لانعرف فيها هذه الصلة ، غير مُكن دَرْسُه ، للتعرف على المراحل التي مرت بها هذه اللغة (١).

هذا ، ولنا في كلمة (اسم) خير مثال على ذلك فقد اختلف النحاة في أصلها وبالرجوع الى اللغات السامية لانجد للألف وجودا .

المرحلة الأخيرة في حياتها . كان المجتمع العربي حين ذول بها كتاب الله لم تكن المرحلة الأخيرة في حياتها . كان المجتمع العربي حين ذاك فاسدا غاية الفساد ، فاحتاج الى رسول يحمل إليه وسائل الاصلاح . ولكن اللغة كانت لاتزال تنمو ، ويصارع القديم منها الحديث ، وبالعكس . وهي تحاول جاهدة أن تعالج ماكان بها من نقص . ولذلك لاندهش اذا وجدنا بها ، فيا وصلنا منها ، مخالفات للكثرة الغالبة في الاستعمال . مثل هذه المخالفات ليست اذن خطأ ، كما يقال أحيانا ، ولا شاذة ، وأنها هي استعمال جار في طريقه الى التطور ، والاتساق . وقد يأتي هذا التطور على القديم كلية ، وقد يستبقيه إلى جانبه فترة من الزمن ، ثم ينتهي به الأمر الى القضاء عليه ، طردا للباب على وتيرة واحدة . فصيغة اسم الفاعل (آيب) التي استعملها تأبيط شراً قضت عليها (يئوب) بعد (كاد) ، فبقيت في كلام الشاعر أثرا بعد عين (١) المرجع السابق ص ١٦٠ - ١٦١

وجمع خائن على (خَوَنة) ظل حيا في اللغة ، ولكن وجد الى جانبه (خانة) أي الصورة المتطورة . ولكن هذا لم يستطع القضاء على المسموع . ولو استمرت اللغة في تطورها فلربها كان قد حل محله .

قد يقال : كيف تدعي أن اللغة العربية كانت لاتزال في حالة تطور ، وقد نزل بها كتاب الله الكريم ، الذي بلغ أسمى درجة في الفصاحة ؟

أقول: هذا حق ، ولكن ينبغي ألا ننسى أنه نزل «بلسان عربي مبين» . وهذا هو اللسان العربي الذي كان مستعملا في تلك الفترة . ولو أن القرآن الكريم استعمل أسلوبا آخر ، خاليا من كل ماكانت تحمله اللغة معها من تعارض ، لقيل حينذاك : ليس هذا بلساننا . فكلام الله ـ جل جلاله ـ جاء باللحون التي كانت حين نزوله تدور على الألسنة . وآية ذلك هذا الحشد من اللغات الذي أشرنا اليه من قبل أن والذي لم يكن الاصدى لما كانت تنطق به القبائل في شتى أنحاء الجزيرة ، ومع ذلك فقد سها بها كتاب الله إلى أعلى مراتب البلاغة . ولم يرق إليه واحد منها أو هي جميعا .

فليس غريبا اذن أن نعثر في اللغة على صيغ ، أو تراكيب ، أو ظواهر لم تكن قد بلغت غايتها من التطور حين نزل القرآن الكريم ، وثبًّت قواعد اللغة على ماوصلت الله ، وورد بها . وتتمثل هذه الظواهر في أمور كثيرة ، أشرنا الى بعضها (٢) ومنها وجوب مطابقة الفعل للفاعل اذا جاء بعده ، وتعدد جموع التكسير ، والمصادر ، واستعمال الألف بدل الصوت المزدوج في مثل : علاها ، بدل عليها ، واختلاف صيغ الأفعال ، والزام المثنى الألف ، الى غير ذلك .

هذا كله حطام لغوي يحمله تيار اللغة الجارف ليستقرعلى شاطيء من الشواطيء، ويستمر التيار في طريقه، يجرف كل متخلف. وهذا هو النادر الذي أشار اليه ابن مالك في باب التعجب (٢).

إن من طبيعة اللغة ، حين يتحكم العقل في مسارها . أن تصحح الأخطاء التي وقعت في مرحلة الحس ، لتسير بعد ذلك في خط مستقيم لا عِوَج فيه .

⁽١) ص ١٥ .

⁽۲) ص ۳۲ و ۳۹

⁽٣) ص ٨ - ٩ .

استمع إلى قول أبي جعفر الرعيني في كتابه: (اقتطاف الأزاهر ، والتقاط الجواهر) عند الكلام عن مضارع فَعَل : أمضموم هو أو مكسور ؟ يقول : إذا التبس عليك مضارع فَعَل : ، ولا تعلم : أمضموم هو أو مكسور فتتبع الساع ، فان لم تجده مسموعا ، فأنت بالخيار في الضم والكسر ، الا أن الكسر أولى لخفته . وحكى عن أبي زيد أنه قال : طفت في سافلة قيس ، وعلياء تميم ، فها رأيت أحدا فصل بينهها ، ولم أجد لذلك حصرا . وكل يتكلم به على مايريد ، يعني من ضم المضارع أو كسره (١))

* * *

وبعد فهذه البلبة اللغوية هي التي تحاول اللغة أن تقضي عليها باتخاذها طريقا واحدا تسير فيه ، طريق الضم أوطريق الكسر ، فاذا اهتدت الى مسارها ، خلفت الطريق الأخرى وراءها ، تتشبث بها فترة من الزمن ثم لاتلبث أن تتخلى ، وقد تبقى أثرا بعد عين لايضير بقاؤه اللغة في شيء .

فدراسة تطور اللغة منذ نشأتها يقفنا على مساراتها المختلفة ، عبر الزمان ، ماجد منها وما قدم ، واستعصى على مصارعة الزمن ، وما خارت قواه ، فهزمه التيار الجارف .

وفي (القسم الثاني) من هذا البحث سنحاول تطبيق هذا الجانب النظري الذي بسطناه على بعض المظاهر اللغوية ، محاولين أن نلتقط الحطام من على سطح اللغة لنرده الى المكان الذي قذف منه ، وتخلى عنه .

والله ولى التـــوفيق .

د برعبدالعزيز برهام

أستاذ علم اللغة بقسم الدراسات العليا ورئيس قسم اللغة العربية واللغات الشرقية الأسبق

(١) ص ٤٧ من المخطوط

بجامعة الاسكندرية والجامعة الليبية

أهم مراجع البحث

القرآن الكريم:

الاتقان في علوم القرآن _ لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت ٩١١ هـ).

جزءان _ ط ٣ / ١٣٧٠ هـ _ ١٩٥١ م

أخبار النحويين البصريين لأبي سعيد الحسن بن عبد الله السيرافي (ت ٣٦٨) - تحقيق فريتس كرنكو ـ المطبعة الكاثوليكية / بيروت ١٩٣٦ م

أساس البلاغة لأبي القاسم محمود بن عمر الزنخشري - كتاب الشعب بمصر - 1970 م الاقتراح في علم أصول النحو لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي - تحقيق د. أحمد محمد قاسم القاهرة ط 1 1997 هـ - 1977 م

الاقتباع في القراءات العشر لأبي جعفر أحمد بن علي بن خلف الانصاري ابن الباذش - نشر مركز البحث العلمي ، واحياء التراث الاسلامي - بجامعة أم القرى بمكة المكرمة تحقيق د . عبد المجيد قطامش ١٤٠٣ هـ (رقم ٢٣).

الأمالي في المشكلات القرآنية ، والحكم ، والأحاديث النبوية لأبي القاسم عبد الرحمن بن اسحاق المزجاجي (ت ٣٣٧) دار الكتاب العربي - بيروت . (وفي ذكر اسم المؤلف اضطراب مابين الغلاف والداخل) .

الأمالي لأبي عبد الله محمد بن العباس . . . اليزيدي (ت ٣١٠) - عالم الكتب - بيروت.

- البحر المحيط لمحمد بن يوسف الشهير بابي حيان الأندلسي الغرناطي أثير الدين (١٥٤- ١٧٤٥ هـ) ـ دار الفكر ـ بير وت . بدون تاريخ .
- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (ت ٦٧١) دار الكتب بالقاهرة ١٣٧٧ هـ / ١٩٥٧ هـ .
 خزانة الأدب للبغدادي تخقيق عبد السلام هارون القاهرة ١٣٦٧ هـ / ١٩٦٧ م

الخصائص أوخصائص العربية لأبي الفتح عثمان ابن جني (٣٢١ أو٣٣٢ ١٩٩٢ أو٣٩٣ هـ). حققه محمد علي النجار دار الكتب بالقاهرة ١٣٧١ هـ / ١٩٥٢ م

- دراسات في اللغة للدكتور ابراهيم السامرائي العراق
 ديوان الفرزدق شرح عبد الله الصاوي القاهرة ١٣٥٤ هـ / ١٩٣٠ م
- زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي المكتب الاسلامي بدمشق ١٣٨٤ هـ ١٩٣٦ م
- شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك (ت ٦٧٢) . تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ط ١٥ ـ القاهرة ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٧ م

شرح الكافية للرضي الاستراباذي (ت ٦٨٦)

- طبقات النحويين واللغويين لأبي بكر محمد بن الحسن الزُّبيدي الأندلسي (ت ٣٧٩). تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ـ دار المعارف بمصر ١٩٧٣
- الفعل: زمانه وأبنيته للدكتور ابراهيم السامرائي ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م . مؤسسة الرسالة بروت .

- في النحو العربي : نقد وتوجيه للدكتور مهدي المخزومي ـ المكتبة العصرية ببير وت ١٩٦٤ م
 - القاموس المحيط للفير وزبادي (ت٧١١م) ـ القاهرة ١٣٥٢ هـ / ١٩٣٣ م
- الكتاب لسيبويه (أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر) ت ١٨٠ على أرجح الاقوال تحقيق عبد السلام محمد هارون الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧ القاهرة (ط ٢)
 - السان العرب لابن منظور (ت ٧١١) مطبعة بولاق بالقاهرة ١٣٠٠
 - مجالس النحويين للزجاجي النحوي .

مختار الصحاح لمحمد ابن أبي بكربن عبد القادر الرازي (أواخر القرن السابع) .

المدحل الى دراسة النحو العربي على ضوء اللغات السامية ، للدكتور عبد المجيد عابدين ١٩٥١ مراتب النحويين لأبي الطيب اللغوي .

المزهر في علوم اللغة وأنواعها لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي تحقيق محمد أحمد جاد المولى ومحمد أبو الفضل ابراهيم ، وعلي محمد البيجاوي ـ ط عيسى البابي الحلبي ـ دار احياء الكتب العربية ـ بدون تاريخ .

المعاجم اللغوية في ضوء دراسات علم اللغة الحديث - دكتور محمد أحمد أبو الفرج - دار النهضة العربية - بيروت - ١٩٦٦

معاني القرآن لأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء (ت ٢٠٧) تحقيق أحمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٠ ـ القاهرة .

المعرَّب للجواليقي تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر ـ دار الكتب المصرية ـ ط ٢ ١٣٨٩ هـ ـ . ١٩٦٩ م .

وفع الحرج الحرب من جمال المحرب العرب العرب

د. عبد الرحن اسماعيل

لقد أعز الله العرب برسوله الأمين ، قال عز من قائل «هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلوعليهم آياته وينزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين» الجمعة / ٢٠

وخلد لسبانهم بالقرآن والذكر الحكيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلف تنزيل من حكيم حميد . ومن أجله شغل بلغتهم عباده عربا وعجها جيلا بعد جيل ، لايملون ولا يفتر ون ، فأسسوا بنيانها ، ثم رفعوا قواعدها وأركانها ، فجاءت كاملة غير منقوصة ، متواترة غير مبتوتة ، قوية غير مهتوتة .

وهانذا أجدني مدعوا للحديث عن هذا الموضوع (رفع الحرج من جلل توسع العرب) بسبب ما تختلقه الكثرة الكاثرة من أبناء العربية المثقفين من أن النحو العربي يمثل عبئا ثقيلا على كاهل العربية ، اذ به تقيدت حركة الالسنة وحدت حريتها ، بها يحتويه من الصراعات المذهبية ، والخصومات فردية كانت أو جماعية ، فالنحاة وحدهم _ هم الذين يتحملون تبعة العزوف عن العربية وانصراف الناشئة عنها ، وقد نسوا أو تناسوا أن العرب أنفسهم قد توسعوا في لغتهم بها يفوق طاقة البشر ، يشهد بذلك تراثهم الذي زخرت به أمهات الكتب والمكتبات في العالم قديمه وحديثه ، وأنهم كانوا متباينين في بيئاتهم مختلفين في بيانهم ، شأنهم في ذلك شأن أي مجتمع وضعفا ، متايزا لتايزهم في الكلام ، ومع هذا كانت لهم _ جميعا _ لغة مشتركة متميزة المعالم واضحة السات ، لهذا لا يستبعد أن يكون نتيجة حتمية لائتلافهم واختلافهم في لغتهم أن يختلف علماؤ ها فيها اختلفوا ، وأن يأتلفوا ، وصدق الله اذ يقول : «ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كبيرا» .

ولا يفوتني أن أذكر أن النحاة قد عكفوا أنفسهم على العربية يدونونها ويرسون قواعدها إيقافا للحن الذي فشا بين القوم ولم تسلم منه قراءة القرآن الكريم ، وذلك بسبب اختلاط العرب بغيرهم في ساحة الاسلام ، في حين كان العرب مشغولين بالجهاد وبناء الدولة الاسلامية .

وفي هذا البحث أعالج فيه رفع الحرج عن العربية ونحاتها فأقول:

بعض ملامح التوسع العربي:

لاشك أن دراسة النحو العربي دراسة جادة واعية - ان صح العزم - يتهدى بها الباحث أيّ باحث الى ألوان كثيرة من التوسع العربي الخصيب ، حيث لا نجد بابا من أبواب النحوبل ولا مسألة من مسائله الا وقد احتدمت فيها الخلافات وتأججت فيها الخصومات بين الفرد والفرد ، وبين الجمهور والجمهور ، الأمر الذي يضيق به الصدر ، لكن سرعان ماتنجلي هذه أو تلك عن علة مقبولة ، أو أصل يحمد عندهما القوم السرى .

ولقد أنعمت نظري فيها يتعلق بالتوسع العربي ، وما يحيط به من التفكير اللغوي المتجدد الذي بذله بسخاء نحاة العربية ، فتبدى لي حصنا منيعا يحول دون النيل من النحويين ، وهو هو وقاء للعربية يحمي حماها ويذود عن مرابعها كيد أعدائها . فأروني أيّ لغة أكبر من لغة التنزيل وأيّ فكر أسخى من فكر النحويين ، وجهذه الدراسة أمكنني أن أحصر مواطن التوسع العربي في اتجاهين اثنين :

أحدهما: يختص بنمو المفردات ومتن اللغة وهذا الاتجاه تغذيه روافد معينة كالتوليد الممثل في الاشتقاق والنحت، والاقتراض أو التعريب، وحسبي الاشارة اليها هنا للاستغناء عن القول فيها بها أشبعته كتب اللغة القديمة منها والحديثة.

ثانيهما : يختص بالاستعمال العربي ، وهذا ما جهدت فيه نفسي وفكري محاولا ابراز معالمه والكشف عن أنهره وروافده ، وأحسبني قد وفقت الى العديد منها ، ويكفيني أن ألمح اليها هنا وذلك بالآتي :

أ ـ التوسع في المجاز والكناية ، فمن المعلوم أن العرب قد استعملت كلماتهم فيما وضعت لها تارة ، وقد تتجاوزه الى غيره تارة أخرى حيث نجد كلمة (أصبع) قد وردت بمعنى السّلامي والظفر والانملة والاطرة والبرجمة ، والعضو المعلوم المتبادر الى النهن عرفا ، ثم نراه يستعار للاثر الحسي فيقال : لك على فلانٍ أصبع كقولك : لك عليه يد (1) . ومنه أن يأتي الكلام على مذهب الاستفهام وهو تقرير أو تعجب أو توبيخ أو نفي ، وأن يستعمل الامر في التهديد أو التأديب أو التسوية أو الاباحة أو القرض الى غير ذلك من ألوان المجاز (٢) مثل ذكر الشيئين مع ارادة أحدهما نحو قوله تعالى : «يامعشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم» الأنعام / ١٣٠ فظاهر ذلك أن الله قد بعث من الجن رسلا ، وهذا خلاف التحقيق بل المراد أحد الفريقين كقوله تعالى «يخرج منها اللؤلؤ والمرجان» الرحمن / ٢٢ ، وإنها يخرجان من الملح دون الوذيل المراد أحد الفريقين كالمراد أوله المرحمة المراد أوله المرحمة المراد أوله المرحمة الله قد بعث من المؤلؤ والمرجان» المرحمن / ٢٢ ، وإنها يخرجان من الملح دون المؤلف المرحمة الم

وتوسعت العرب في الكناية وبها يطلق على الشيء الواحد منها مثل تكنيتهم عن المرأة باللؤلؤة والبيضة والسرحة . . . والأثلة والنخلة والشاة والبقرة والنعجة والودعة والحربض والفراش والبيت أوعتبته والريحانة والظبية والدّمية والنعل والغل . . والجارة والمزخة والقوصرة والجفن قال الفرزدق :

وجفن سلاح قد رزئت ولم أنـح عليـه ولم أبعث عليـه البـواكيـا (٤)

وكنوا عن البغل بأبي الأشجع وأبي الحرون وأبي الصقر وأبي قضاعة وأبي قصوص وأبي كعب ، وأبي ملعون ثم ابن ناهق (٥) .

 ⁽١) انظر مفردات القرآن للراغب الأصفهاني / ١٩ تحقيق محمد سيد كيلاني ط مصطفى الحلبي بمصر .
 وأساس البلاغة للزمخشرى .

⁽٢) انظر تأويل مشكلة القرآن ٧٧٥ : ٢٩٨ تر عجبا .

⁽٣) تأويل مشكلة القرآن لابن قتيبة / ٢٨٧ ، والحيوان للدميري ١ / ٢١٢ .

⁽٤) انظر اعراب ثلاثين سورة لابن خالويه / ٢٢٤ ، ٢٢٥ .

⁽٥) الحيوان للدميري ١ / ١٣٨ .

ب ـ التوسع باستعمال الكلمة الواحدة في أكثر من معنى إيجازا أو اختصارا حيث جعل العرب اللفظة الواحدة لمسميات عدة ، إما بطريق الاشتراك كاستعمال (العين) في ثلاثين مسمى منها : خيار كل شيء والجاسوس والدينار والميزان ، وعين الانسان ، وعين الماء ، وعين الركية ، ومطريقيم أياما لايقلع ، وسحابة تنشأ من قبل العين أي الكعبة ، وقد ألف في معاني العين ابن خالويه رسالته (شكاة العين) (۱).

وك استعمال (الحِجْس) في أشاوي كثيرة هي : ديار ثمود ، وحجر الكعبة المشرفة والفرس الانثى ، والحرام ثم العقل ، قال الشاعر :

دنيا دنت من جاهل وتباعدت عن قرب ذي أدب له حجر

أي عقل ، ومنه قوله تعالى «هل في ذلك قسم لذي حجر» الفجر / • أي لذي عقل (١)

وإما بطريق التضاد كاستعمال كلمة وراء بمعنى خلف وبمعنى قدام . قال تعمالى : «وكمان وراءهم ملك يأخمذ كل سفينة غصبما» الكهف / ٧٩ ، : أي قدامهم ، وقال سوار بن المضرّب السعدي :

أترجوبنومروان سمعي وطاعتي وقومي تميم والقلاص ورائيا أي قدامي (٣).

وكاستعمال الفعل (قسط) بمعنى جار وبمعنى عدل ، وأما أقسط فبمعنى عدل لا غير قال عز وجل «ان الله يحب المقسطين» الحجرات / ٩ «أي العادلين» ودليل عبيء قسط بمعنى جار قوله تعالى : وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً» الجن / ١٥ : أي الجائرون ، وقال القطامي :

أليسوا بالألى قسطوا جميعا على النعمان وابتدروا السطاعا أي جاروا (٤).

⁽١) انظر اعراب ثلاثين سورة لابن خالويه / ٦٩ .

⁽٢) المرجع السابق / ٧٥

⁽٣) الأضداد / ٢٠ .

⁽٤) المصدر السابق / ٧٤ ، ١٧٥ .

ومثال مجيء قسط بمعنى عدل قراءة يحيى بن وثاب وابراهيم النَّخعِيّ «وان خفتم الا تقسطوا في اليتامى» النساء / ٣ بفتح التاء وضم السين وكسرها: أي تعدلوا ويرشح لهذه القراءة مجيء مصدر الثلاثي منه في القرآن دون مصدر الرباعي كما في قوله : «وأقيموا الوزن بالقسط» وبناء أفعل كذلك في قوله «ذلك أقسط عند الله»: أي أعدل ، وأفعل لايرد من غير الثلاثي إلا نادرا ولا يجوز حمل القرآن الكريم على النادر ، وقسط في حكمه وأقسط لغتان أي أن القسط يتوارد على فعله صيغتا فعلت وأفعلت كما في فصيح ثعلب والمخصص لابن سيده (٣) .

واستعمال الكلمات بهاتين الطريقتين مجال للايجاز والابهام في اللغة ، وفهم المراد منها يعتمد اعتمادا كليا على سياقات الكلام ومقاصد المتكلمين ، ومثل هذا اللون من الاستعمال يستخدم في لغة العقود ، وعقد المعاهدات المحلية أو الدولية .

ومن التوسع استعمال العرب عشرات الكلمات بل مئاتها في معنى أو مسمى واحد على طريق الـترادف ، لأن الحاجة قد تدعو الى تأكيد المعنى ، والتحريض والتقرير فلو كرر اللفظ لسمج ومج ، وقد قيل : اذا تكرر الشيء تكرج ، والطباع مجبولة على عادات المعادات ، فخالفوا بين الالفاظ ، والمعنى واحد (١١) .

ومن ذلك استعمالهم: الغِمْر والغِلّ والحسيكة والحسيفة والحزازة والاحنة والحِنَة والحِنَة والحِنَة والحِنَة والحِنَة والحِنَة والحِنَة والحِنَة والحِنَة الله الشاعر:

فأنت الحلال الحلو والبارد العذب كما اهتر تحت البارح الفنن الرطب(٢)

إذا كان أولاد الرجال حزازة وتأخذه عند المكارم هزة

الى غير ذلك مما لايخفى على أحد .

هذا .. وقد ثبت بطريق الاحصاء في كتب اللغة أن ابن خالويه أحصى لبيت المقدس سبعة عشر اسما ، وللجراد ستين (٢) وللحية مائتين ، وللأسد خمسمائة اسم (١)

كما ورد للداهية أربعمائة اسم الى غير ذلك مما يطول به القول ، وأخيرا ذكر (رينان) أن (دوهامر) جمع أكثر من 33.6 لفظا لشئون الجمل رفيق الاعرابي في الصحراء (٥) بنظر في ذلك تاج العروس للزبيدي والمصباح المنير للفيومي (مادة قسط) ومختصر القرآت الشاذة لابن

(۱) ينظري دلك ناج المعروض عوبيك في وتسميع الميو تعييري (عدد تسمه) . خالويه / ۲۶ . (۲) انظر المخصص لابن سيده ٤ / ١٣ / ٢٥٨ ، والمزهر للسيوطي ١ / ٢٤ .

(۳) انظر اعراب ثلاثين سورة لابن خالويه ۱۰۲، ۱۰۲. (۵) دنا مراب ثلاثين سورة لابن خالويه ۲۹،

(٤) انظر كتاب ليس في كلام العرب لابن خالويه / ٢٩٠ ، ٣٠٥
 (٥) المزهر للسيوطي ١ / ٢٣٨ ، وذيل الامالي / ١٨٠ .

(٦) انظر فقه اللغة العربية للدكتور صبحي الصالح ٢٩٣ : ٣٠١ ، والمزهر للسيوطي ١ / ٢٤٢ وما بعدها .

التوسع في المصدر في عدده وصيغه واستعمالاته ، بها لايمكن وضعه تحت قاعدة ، أو معيار معلوم ، فقد استعملت العرب للفعل (مكث) سبعة مصادر هي : مَكْث ومكوث ، ومُكْثان ، ومِكَيثى ، ومِكَيثاء ، ومَكْثَة ، وللفعل (لقى) عشرة مصادر هي : لِقاء ولقِاءة ولُقَى ، ولِقْيانه ولقَى ولِقِى ولِقْيَة ولِقْيان ولقِايَة (١)

ومن النوادر في ذلك أن أبا زيد ذكر مصدر الفعل (تفاوت) مثلث العين أي تفاوتًا والقياس ضمها كها هو الكثير الغالب ، وجاء منه على فعلان بسكون العين نحو: شنئته شنّانا وزدته زيدانا والقياس فَعلَان بفتح العين كالجولان والنزوان على أنه قد قيل : شنئته شنّا بتثليث الفاء ، وشِناء وشنانا وشنآنا وشنآنا وهذا قد ورد به القرآن الكريم في قوله «ولا يجرمنكم شَنَآن قوم» ومشنئة (٢) وجاء المصدر على وزن اسم المفعول نحو: لا مجلود لفلان ولا معقول : أي لا جلد ولا عقل ، وقد أقر الجمهور عيء المصدر على زنة اسم المفعول مثل معقول ومجلود ومفتون ومنه قوله «بأيكم المفتون» والمسور والمعسور . وذلك عملا بالاصل : لا اجتهاد مع النص ، وخالف في خيء المصدر على نزنة اسم المفعول من ليقيه اسم مفعول (٣). كها جاء أيضا على وزن فاعلة نحو: الكاذبة والعافية والباقية ، قال تعالى : اذا وقعت الواقعة ليس لوقعتها كاذبة وقوله : فهل ترى لهم من باقية قال الفراء : من بقاء ويقال : هل ترى منهم باقيا ، وكل ذلك في العربية جائز حسن (٤). كها ورد في باب المصدر عن العرب مايسمى بالمصدر الميمى والمصدر الصناعي واسم المصدر .

هذا _ وقد جاء المصدر على وزنين نحو الفُعْل والفَعَل نحو البُخْل والبَخْل إما لغتان ، وإما على سبيل التآخى في الأوزان ، وعلى نحو فُعول بفتح الفاء وضمها مثل : الوقود والقبول ، والوضوء ، وقد تنازع النحاة في الأخير فذهب فريق منهم الى أنها مصادر فتحت فاءاتها أوضمت ، وفريق فصل فجعل المضموم منها مصدرا قياسا على الكثير في ذلك نحو الجلوس والرجوع ، والمفتوح غير مصدر (٥) ، وعليه فالحركة هنا لرفع اللبس بين ما هو مصدر وما ليس كذلك .

⁽١) كتاب ليس في كلام العرب / ٥٨ ، ٥٩ .

⁽٢) انظر كتاب ليس في كلام العرب / ٣٤٥ ، ١٣٧ ، ١٣٨ .

⁽٣) المصدر السابق / ٦٢ ، ٣٤٥ ، والتبيان ٢ / ١٧٣٤ ، ومعاني القرآن للفراء ٣ / ١٧٣ .

 ⁽٤) انظر كتاب ليس / ٣٤٥ ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ٢ / ٢٦٧ ، ومعاني القرآن للفراء ٣ / ١٨٠ ، والتبيان للعكبري / ١٢٣٦ .

⁽٥) انظر كتاب ليس في كلام العرب / ٢٢٣ ، ٢٢٤ .

وقد يكون توسع العرب بالمصدر إشارة للمعاني التي يحتملها الفعل ، أو الصيغ التي يجيء عليها نحو قولهم في مصدر (رأي) مثل الرؤية والرؤيا والرأي ، فالأول منها يشير الى رأي البصرية ، والثاني يشير الى رأي الحلمية ، والثالث يشير الى رأي القلبية . والمصادر حَلْم وحِلْم وحُلُم ، فالأول بفتح الحاء معناه فساد الجلد وفعله / حَلِمَ ، لأنه وزن يغلب في العاهات الظاهرة كمرض وسقم ، والباطنة كحمق ورعن ، والثاني بكسر الحاء فهو الصفح وكرم الخلق وفعله حَلْمَ بالضم مثل كرم لأنه سجية ، والثالث بضم الحاء واللام مايراه النائم وفعله حَلَمَ كرأي (1)

وتوسعت العرب في المفرد والمثنى والجمع فاستعملت كلا منها فيها يدل عليه حقيقة وهذا لا يعد غريبا لضبطه وإلفه وفهمه إنها الغريب الذي لا يمكن ضبطه أن تستعمل واحدا منها بدل الآخر أو مكانه لكونه يسبب لبسا في الكلام أو ابهاما ، وإنها يفهم المراد منه إما بعود الضمير أو الاشارة أو الصفة أو قرينة الحال أو سياقات الكلام ، وليس كل الناس يدرك ذلك أو يعيه وعيا تاما .

أما كثرة الجموع التي قد طغت على قواعد النحاة بها لايستطيعون ضبطه لكثرتها عددا بها يفوق التصور اذ جاء لبعض المفردات ستة جموع مثل الجمل ، فقد وردت له الجموع التالية : أجمع وأجمال ، وجامِل ، وجامِل ، وجالات ، قال ابن خالويه : جَمْعُ الجُمَلِ أَجْمُلُ ثم جمعت العرب هذا الجمع ست مرات وأكثر مايكون الجمع مرتين أو ثلاثا (٢) وعليه فيجوز لنا تكبير المكبر على خلاف قاعدة المصغر لا يصغر .

ولبعضها عشرة جموع مشل جمع الناقة على : نُوق ، وأُنُق وأيانِق ، وأَيْنُق ، وأَيْنُق ، وأَيْنُق ، ونياق "".

وذكر ابن خالويه في كتابه الموسوم بالجمل خسة وثلاثين جمعا لما جاء على وزن فاعل في العربية (أفقال في كتاب ليس: ليس في كلام العرب فاعل تجمع الاعلى ماجعته لك في هذا الباب: فاعل وفاعلون: كاتب وكاتبون، وفاعل وفعال كاتب وكتب وفاعل وفعل: وفاعل وفعل: كتب وفاعل وفعل:

^{: (}١) انظر شرح بانت سعاد لابن هشام / ٣٩ .

⁽٢) انظر كتاب ليس في كلام العرب / ١٨٤ .

⁽۳) المصدر السابق / ۳۷۹ .

⁽٤) انظر اعراب ثلاثين ثورة لابن خالويه / ٨٩ .

صاحب وصحب ، وفاعل وأفعال : صاحب وأصحاب ، وفاعل وفعلان : صاحب وصحبان (۱) وفاعل وفعالة : صاحب وصحابة ، وفاعل وفعل : ناقة حائل والجمع حُول ، وفاعل وفعل : ناقة عائط ونوق عيط حُول ، وفاعل وفعل : ناقة عائط ونوق عيط بكسر أوله ، وفاعل وفعيل : عازب وعزيب وفاعل وفواعل : عازب وعزيب وفاعل وفواعل : حاجب وحواجب ، وفاعل وفواعيل : خاتم وخواتيم ، وفاعل وفعول : جالس وجلوس ، وفاعل وأفاعل وأفاعيل : باطل وأباطل وأباطيل ، وفاعل وفعكاء : شاعر وشعراء ، وفاعل وأفعلة : واد وأودية ، وفاعل وفعكة : قاض وقضاة ، وفاعل وفعلى : فاسد وفسدى ، ورائب وروبي ، وهالك وهلكى ، وفاعل وفعل : شارف وشرف للناقة (۱)

فهذه الكثرة من الجموع لوزن واحد في اللغة وراءها ما وراءها من الأسرار الخفية التي من شأنها أن يضل في تيهها الساري وتجعل أهل الصنعة يضربون في أودية أو وديان سحيقة لايكاد ينجو من هولها الصناديد .

ومن توسع العرب في الجمع أن قد وجدنا جموعا جاءت على غير بناء مفرداتها مثل جموع الضائر نحو: نحن وأنتم وأنتن وهم وهن ، وجموع أسهاء الاشارة نحو: هؤ لاء والألى ، وجموع الاسهاء الموصولة كالذين واللاء واللاتي ، وهذيل وبنوعقيل تعرب الذين واللاء التي أجريت مجراها فقالوا: الذون واللاوؤن رفعا والذين واللائين . . . نصبا وجرا (٣)، وهناك جموع جاءت على خلاف القياس كثيرا مما لا يمكن بيانه في هذه الدراسة العجلى .

ولا يفوتني أن أشير الى أنه ليس كل مفرد في العربية يثنى أو يجمع ولا كل مثنى أو جمع له مفرد بل جاءت أشياء في هذا الموضوع كخوارق العادات ، فمنها ما لايثنى ولا يجمع كألفاظ العدد حيث استغنى بمضاعفاتها عن تثنيتها وجمعها (أ)

⁽١) قال الزنخشري : وسمعت بعض بني نجيلة ينشد : اذا دمـعـت عيـني تعـللت بالـقـذى وقـلت لصـحـباني بصـير قذانـيـا الأحاجي / ٦٨ .

⁽٢) كتاب ليس في كلام العرب / ٣٣١ ، ٣٣٢ بتصرف .

⁽٣) أنظر بأنت سعاد لابن هشام / ٣٨.

⁽٤) مع أن القياس لايمنع تثنيتها وجمعها غير أن الاستعمال لم يرد بهما الا واحدا فقد جمع على واحدين ووحدان .

ومنها ما جاء صالحا للمثنى والجمع ، صنوان وقنوان (١) ولا فرق بين التثنية والجمع الا بكسر نون المثنى ، وضم أو فتح أو كسر نون الجمع في الدَّرْجَة ، ويستويان وقفا . وللمفرد والمثنى كالجلمين (مايحزبها ، والمقرضين والكلبتين لأن الكلبة الواحدة والمقراض الواحد لايقطع (٢) ، وللمفرد والجمع مثل فلك فقد ورد للمفرد والجمع ، قال تعالى : «في الفلك المشحون» يس / ٥ «وترى الفلك مواخر» فهومفرد في الاولى جمع في الثانية . وقرينة كل الوصف المذكور بعده ، قال الزنخشري : المفرد والجمع قد اتحدا في اللفظ إلا أنها في التقدير وتصور الضمير مختلفان اختلاف غيرهما مما تباينت الفاظ جموعه ووحدانه نحوغلام وأغلمة ، . . . وذلك أن الفلك الذي هو واحد على زنة الحموع التي هي أُسْد ، وعُرْب وعُجْم ، ومثل الفلك مفردا وجمعا جمل هِجَان ، وإبل هِجَان ، ودرع دِلاص ، ودروع دِلاص ، فهجان ودلاص في الوحدان نظير كِناز وضِناك ، وفي الجموع نظير ومال . . . فان الفروق التي تصورها الضائر كالتي تنطق بها الالسنة ألا تراك كيف تفرق في ضميرك بين الكُحْل والعيون الكُحْل . . فان قلت : كيف جمع فُعل على فُعْل ، قلت : فَعْل وفَعل بينها أخوة كقولهم : بُخْل وبَحَل . . فكما جمع فَعَل على فُعْل فقيل : أَسَدُ وأَسْد ، قيل : فُلْك وفُلك كأنها قيل فَلك وفُلك . . . فكما جمع فَعَل على فُعْل فقيل : أَسدُ وأَسد ، قيل : فُلك وفُلك كأنها قيل فَلك وفُلك . . . فكا جمع فَعَل

هذا وقد سمعت جموع لا واحد لها مثل العالم ، وقيل له مفرد لكن ليس من لفظه كرجل أو امرأة أو فرس ، قال الشاعر :

* فَخِنْدِف هامة هذا العالم *

وقال الفراء العالم يقع على الناس والملائكة والجن (٤). ومنها ما وقع مفردا وأريد به الجمع مثل (المعا) في قول القطامي :

كأن قتود رحلي حين ضمّت حوالب غرزا ومعاجياعا

. . . (فقد جعل المعا لفرط جوعه بمنزلة أمعاء جائعة) (٥)

⁽١) كتاب ليس / ٣٣٥ ، والاحاجي للزمخشري / ٣٧٪.

⁽٢) المرجع السابق / ٢٢٨ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ .

⁽٣) أنظر الاحاجي للزنحشري / ٣٦ ، ٣٧ .

⁽٤) اعراب ثلاثين سورة لابن خالويه / ٢٢.

⁽٥) الاحاجي / ٣١ .

ونحو (إنسان) فهو واحد في معنى جماعة قال تعالى: «والعصر ان الانسان لفي خسر» العصر / ٢ ، لقرينة استثناء الذين منه ولا يستثنى الكثير من القليل لكن العكس هو الصحيح (١). ومن ذلك ما أضيفت كل أوبين اليه وتمييزكم ، واسم لا النافية للجنس ، ولفظ مائة في نحو ثلاثهائة الى تسع مائة .

ومنها مالفظه مفرد ومعناه جمع وهولفظ (كل) (٢) ، والناس في قوله : «الذين قال لم الناس ان الناس قد جمعوا لكم» آل عمران / ١٧٣ ، قال أبو عبيدة : وقع المعنى على رجل واحد ، والعرب تفعل ذلك ، فيقول الرجل فعلنا كذا . . . وإنها يعني نفسه وفي القرآن : «ان كل شيء خلقناه بقدر» القمر / ٤٩ (٣) ، ومثل الناس في ذلك لفظ بشر ، فقد يستعمل مرة مفردا ومرة جمعا ، فالمفرد نحو قوله «ماهذا بشرا» يوسف / ٣١ لأنه وقع خبر اسم مفرد مخصوص بالاشارة ، والجمع نحو قوله : «قال ما أنتم الا بشر مثلنا» يس / ١٥ وذلك لانه وقع خبرا عن الجمع (٤)

ومنها ما لفظه جمع وقد أريد به مثنى نحوقوله تعالى: «فقد صغت قلوبكما» التحريم / ٤ وقوله «والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما» المائدة / ٤١ ، والمعنى: قلباكما ويديهما ، قال الخليل: نظيره قولك: فعلنا ، وأنتما اثنان ، تتكلم به كما تتكلم وأنتم ثلاثة (٥).

هذا _ وقدأنيب المفرد عن المثنى في قول كعب بن زهير :

من كل نضاخة الذفري اذا عرقت عرضتها طامس الأعلام مجهول

قال ابن هشام: الذفرى مفرد قائم مقام التثنية اذ الناقة لها ذفريان ، لاذفرى واحدة ، ونظيره قول الشاعر:

وكأن في العينين حب قرنفل أوسنبلا كحلت به فانهَلَت فانهُلَت فافرد الضمير في كحلت وهويريد كحلتا ، وكذلك فانهلت : فانهلتا (٦).

- (١) اعراب ثلاثين سورة لابن خالويه / ٤٣ ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ٢ / ٣١٠ .
- (٢) انظر شرح بانت سعاد لابن هشام / ٧٧ ، وشرح لامية العرب للزمخشري والمبرد / ٨٩ .
 - (٣) انظر مجاز القرآن لابي عبيدة ١ / ١٠٨ .
 - (٤) انظر مجلة البحث العلمي العدد الرابع سنة ١٤٠١ هـ ص ٥٥٨
- (٥) الأحـاجي للزمخشـري / ١٠١ وأعجب العجب في شرح لاميـة العـرب للزمخشـري والمبرد / ٨٠ ، ٨٨ واعراب الحديث لابي البقاء العكبري / ٢٠٠ وأمالي ابن الشجري ١١/١ وما بعدها

ثم انظر التبيان لابي البقاء العكبري ١ / ٢١٠ .

وقول الآخر:

أظن انهال الدمع ليس بمنته عن العين حتى يضمحل سوادها فالعين في البيت قامت مقام العينين ، وفي كلامهم عكس هذا ، وهو انابة الاثنين عن الواحد كقول بشر:

على كل ذي ميعة سابح يقطع ذو أبهريه الحزاما فأبهريه بمعنى أبهر ، وقول الآخر :

فجعلن مدفع عاقلين أمامنا وجعلن أمعز رامتين شهالا

أراد : عاقلا وهو جبل ، وأجاز الفراء أن يكون من هذا قوله تعالى : «ولمن خاف مقام ربه جنتان» الرحمن / ٤٦ ، قال الفراء : وقد يكون في العربية جنة تثنيها العرب في أشعارها أنشدني بعضهم .

ومهمه على قَذَفَينِ مَرْتَين قطعت بالأمِّ لا بالسيمتين يريد مهمها وسمتا واحدا ، وأنشدني آخر :

يسعسى بكيداء ولهذمين قد جعل الأرطاة جنتين

فجنتين بمعنى جنة ، وذلك أن الشعر له قواف يقيمها الزيادة والنقصان فيحتمل ما لايحتمله الكلام (١) .

وقد اجتمعت انابة الواحد والجمع عن المثنى في قول الهذلي :

فالعين بعدهم كأن حداقها سملت بشوك فهي عور تدمع فالعين بمعنى العينين ، وعور بمعنى عوراوين (٢).

وقد تجمع العرب المفرد على غير أصله اللغوي ، ثم نرى النحاة يجمعون عليه وينحازون اليه . لما فيه من رفع اللبس بين شيء وآخر كما يظهر من كلمتي عيد وعود إفرادا وجمعا وتصغيرا مع أن أصلها واحد وهو العين والواو والدال ، فقالوا في جمع عيد وتصغيره أعياد وعُيَيْد ، مع علمنا أن الجمع والتصغير مما يرد الأشياء إلى أصولها ، وقالوا في جمع عود وتصغيره : أعواد وعُويد ، فجاء على الأصل . هذا وقد ورد عنهم (١) انظر معاني القرآن للفراء ٣ / ١١٨ ، وشرح بانت سعاد لابن هشام / ٥١ .

(۲) شرح بانت سعاد / ۵۹

مايدل على الجمع وليس جمعا كاسم الجمع واسم الجنس الجمعي . أما ما يتعلق بالتثنية فقد قال ابن خالويه : ليس في كلام العرب أنواع التثنية إلا ما ذكرت ، وما أعلم أحدا جمعه ولا فرّعه نحو مائة وجه ، وحسبي أن أشير الى بعضها فيما يأتي :

أ _ كل اسم مفرد نكرة كان أو معرفة مذكرا كان أومؤنثا ، عربيا أو أعجميا ، جمادا أو حيوانا اذا أريد تثنيته فانه يرفع بألف ونون مزيدتين ، وينصب ويجربياء ونون كذلك . وهذه لغة جمهور العرب .

ب ـ لزوم المثنى الالف رفعا ونصبا وجرا وهذه لغة بني الحارث بن كعب قال الشاعر:

تزود منا بين أذناه ضربة دعت إلى هابي التراب عقيم والقياس اذنيه ، الى غير ذلك من الشواهد .

ج _ الكثير في لغة العرب كسر نون المثنى وقد جاء فتحها ، أنشد الفراء :

على أحوذيين استقلت عشية وما هي الالمحة فتخيب وقول الأخر:

أعرف منها الجيد والعيناناً ومنخران أشبها ظبيانا در الكثير في اللغة اثبات نون المثنى في غير الاضافة ، وقد جاء حذفها كذلك في حال عدمها نحو قول الشاعر:

أَبِنِي كليبِ إِنَّ عَمَّى اللَّذَا قيلا الملوك وفككا اغلالا (١)

يريد اللذان (وهو معرفة لاتضاف) ، ولعل ذلك مما اختص بالاسماء الموصولة ، لأن العرب يتخففون معها لطولها بالصلة .

(١) انظر الأحاجي للزمخشري ٣٩ : ٤٠ .

هـ نون المثني في المعربات مفردة بينها بعض العرب يشددها في المبهات نحو اللذانِّ ، وهذانَّ وهذا التضعيف عوض عن المحذوف من المفرد ، قال ابن مالك :

والنون من ذين وتين شددا أيضا وتعويض بذاك قصدا وتشديد نون المثنى من المبهات لغة أهل مكة .

و_مالفظه مفرد ومعناه مثنى مثل كلا وكلتا وفي ذلك خلاف بين البلدين لاطائل تحته . واعراب كلا وكلتا فيه ثلاث لغات : إعرابها اعراب المثنى مطلقا وإعرابها اعراب المقصور مطلقا ، واعرابها اعراب المثنى إن أضيفا لمضمر ، وإعراب المقصور ان أضيفا لمظهر (١).

ز ـ وجاء منه على خلاف القياس النحوي تثنية لفظين مختلفين على سبيل التغليب كالقمرين أو الشمسين ، للشمس والقمر ، وإن كان الكثير في التغليب ، أن يغلب المذكر على المؤنث ، ومن ذلك صيغ الضائر في التثنية نحو: (أنتها) لمخاطبين أو مخاطبين ، أو مخاطبة ، ونحو (هما) لغائبين أو غائبتين ، أو غائب وغائبة .

حــ ما جاء من المثنى صالحا للمفرد والمثنى والجمع ، والمذكر والمؤنث وهو الضمير المنفصل (نحن) والضمير المتصل في نحوضربنا وفعلنا فيقول المفرد نحن فعلنا ، والجهاعة : نحن فعلنا .

ط ما لا جمع له من المثنى نحو: بشران في نحو: هذان بشران ، وقوله تعالى: «أنؤ من لبشرين مثلنا» (٢) ، ولم يرد أبشار في اللغة ، اذ المفرد يغني عنه حيث صلح في المفرد كها في قوله «ماهذا بشرا إن هذا الا ملك كريم» وللجمع كها في قوله «ان أنتم الا بشر مثلنا» فقرينة الافراد في الاولى الاشارة اليه ، ووقوعه خبرا عن مفرد ، وقرينة الجمع في الثانية وقوعه خبرا عن جمع (٣).

⁽١) انظر حاشية عبادة على شذور الذهب ١ / ٧٦ ، ٧٧ .

⁽٢) انظر الحيوان للدميري ١ / ١٧٤ .

⁽٣) انظر كتاب ليس في كلام العرب : ٣٣٣ : ٣٤٣ ، والمخصص لابن سيده ٤ / ١٣ / ٢٢٣ وما بعدها .

هذه بعض مظاهر التوسع الاستعمالي في العربية ، وهي أخطر من التوسع الاعرابي ، حيث يمكن للكثير من الناس أن يقوّموا ألسنتهم بمراعاة القواعد الضابطة لأواخر الكلمات وبنايات الصيغ ، وليس في إمكان كل فرد استعمال الجمع بدل المفرد أو العكس عجزا أو خجلا .

وهناك توسعات في الاستعال أكبر من أختها أشير اليها عسى أن يستفاد منها وذلك مثل التوسع الاستعالي في الصيغ ودلالاتها ، وبالذكر أو الحذف والتقديم أو التأخير ، والهمز أو التليين ، والتشبيه أو التضمين ، والقلب أو التغليب ، والتذكير أو التأنيث والقصر أو الحد ، والزيادة أو النقصان والتأسيس أو التأكيد ، والاعلال أو الابدال أو الادغام ، ثم اللهجات وعود الضمير مطابقا مرة وغير مطابق أخرى ، وعلى مذكور طورا وعلى مفهوم آخر الى غير ذلك من ألوان التوسع الاستعالي عند العرب الذي لاتحده حدود ولا تنهض به قواعد أو ضوابط ، لأنه أسبق منها وأجل .

فهذا التوسع العربي الذي افتنت فيه العرب بالسليقة الحرة التي لم تعرف قيودا أو ضوابط ، وإنها يقودها اليه الحس المرهف ، والذوق والمران الدائب والسهاع الدائم المذي هو أبو الملكات اللسانية مثلها نلمس ذلك في أدبائنا المفطورين المطبوعين في حياتنا المعاصرة .

كان ذلك التوسع العربي بفنونه المختلفة ، أحد الأسباب الرئيسية في خصومات النحاة ، اذ لولاه ما اختصموا ، وفي الوقت نفسه كان مجالا خصبا لعطائهم وظهور عبقرياتهم ، فبه نها فكرهم اللغوي الذي صارت نتيجته تقعيدهم القواعد التي تسد عندنا اليوم مسد السليقة العربية الأولى ، تشدنا اليها وتربطنا بها ، ولولا اختلافات النحاة وتعليلاتهم وتحليلاتهم مابرزت العربية في زينتها المقدرة لها ، ولغابت عن الالباب لطافتها وطرافتها وما سبقت أخواتها وعداتها ، بل ربها كانت قد تهاوت من عليائها إغفالا أو إهمالا ، وتحطمت من وخذات اللحن والعجمة أزكانها ، وباتت تهوي الى الحضيض حاسرة خاسرة ، ولم يكن في مقدور انسان أيّ انسان أن يستوعب أو يحيط بأسرار البيان العربي وألوان جماله .

فلا عجب ولا حرج في اختلافات النحاة ، بل أراها كانت ضرورية حيث أثرى بها التفكير اللغوي عند العرب ، بها لم يكن لدى غيرهم من الأمم ، وهم فيها اختلفوا فيه يشبهون إلى حد بعيد أئمة المذاهب الفقهية ، وشأنهم فيه شأن أية بيئة علمية مفكرة ، الا أنهم لو أخذو أنفسهم بالأصل القائل : (لا اجتهاد مع النص) لأراحوا ثم استراحوا ، لكننا وجدناهم يوغلون في التأويل حين تصطدم بعض النصوص بأصولهم تعصبا منهم لها ، وضهانا لشموليتها واطرادها كها هو الشأن عند البصريين في ردهم على الكوفيين في كثير من المسائل الخلافية . ولو أن ثبوت قواعد اللغة ارتكب في الوصول اليه كثرة التقديرات والتمحلات لما ثبتت قاعدة أصلا .

وكذلك لوراعوا الاصل القائل: (الدليل اذا تطرق اليه الاحتمال سقط به الاستدلال) لكان خيرا لهم ولمن واصل المسيرة بعدهم، لكنهم في بعض مقامات الكلام يلجأون اليه ليكون ذريعة الى الجواز أو الاباحة.

وتتويجا لما أسلفت أو نتيجة له أجدني مضطرا الى بيان أمرين لا ثالث لهما .

- الامر الأول: ما يتعين علينا من اتخاذ موقف ملائم لدراسة النحو العربي ترغيبا للناشئة في دراسته ، وتهوينا عليهم في فهمه وقراءته ، لهذا أقترح الآتي:

أ _ الالتزام بكل ما يوافق أسلوب القرآن الكريم وقراءاته من القواعد .

ب_ الالتزام بكل ما اتفق عليه جمهور البصريين والكوفيين ، أو أحد الفريقين اذ إجماعها أو أحدهما حجة .

جــ الالتزام بها استدركه المتأخرون من النحاة ، وكان له وجه من العربية نقلا كان أو عقلا .

د_ أما ما تسميه النحاة شاذا أو نادرا أو قليلا فعلينا أن نستعمله كها كانت أوائلنا ، وأن نستفيد منه فيها استفادوا به فيه .

- الامر الثاني: بيان أسباب الخلافات النحوية ، ولم يكن بيانها اقحاما في التوسع العربي كما يتصور البعض ، لكنها نتيجة له وتتويج ، وهي في نظري ضربان :

الأول منها: مرده الى التفكير اللغوي عند النحاة وأكثر قضاياه مبنية على التوسع العربي ، وقليلها يرجع الى اجتهاد الآحاد من النحاة ، والثاني : مرده الى العرب أنفسهم واختلاف لهجاتهم . أما الأول ، فمنه المسائل التالية :

أ _ اختلافات بنيت على التوسع العربي حيث جاء بها يؤيد كل فريق ، ولكن النحاة اعتمدوا فيها على الحس والذوق . منها اختلافات في محل اعراب مثل (هي) بعد اذا الفجائية في نحوقول العرب : قد كنت أظن أن العقرب أشد لسعة من الزنبور فاذا هو هي ، أو فاذا هو اياها (١) .

فالبصريون يرون ضرورة رفع الجزءين ، وقد ورد النقل بتأييدهم في قوله تعالى : «فاذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا . . » الأنبياء / ٩٧ ، وقوله «فاذا هي حية تسعى» طه / ٢٠ .

ويذهب الكوفيون الى جواز النصب (فاذا هو اياها) ويؤيدهم في ذلك ماحكاه أبو زيد الأنصاري _ وهو حجة ثقة _ من روايته النصب عن العرب في قولهم : قد كنت أظن أن العرب أشد لسعة من الزنبور فاذ هو اياها ، وعليه فلا مانع من النصب ، اذ يجوز اثبات الحكم ، اذا ورد له نظير من كلام العرب . وكذلك اختلافهم في أُولَى العاملين بالعمل في التنازع ، فذهب الكوفيون إلى أن إعمال الفعل الأول أولى . . ، واستندوا في ذلك الى النقل والقياس ، أما النقل فقد جاء ذلك عن العرب كثيرا ، قال امريء القيس :

فلو أن ما أسعى لأدنى معيشة كفاني ولم أطلب قليل من المال فأعمل كفاني ولم يعمل أطلب ، اذ لو أعمل الثاني لنصب (قليلا) . . وقال رجل من بنى أسد :

فردٌ على السفؤ اد هوى عميدا وسوئل لويبين لنا السؤ الا وقد نغنى بها ونرى عصورا بها يقتدننا الخرد الخذالا

فأعمل الأول (نري) ولذلك نصب (الخرد الخذالا) ولو أعمل الفعل الثاني لقال : تقتادنا الخرد الخذال . . . وأما القياس فهو أن الفعل الأول سابق الفعل الثاني ، وهو صالح للعمل كالفعل الثاني ، الا أنه لما كان مبدوءا به كان اعماله لقوة الابتداء والعناية به . . . والذي يؤيد أن إعمال الفعل الأول أولى من الثاني ، أنك اذا أعملت الثاني أدي الى الاضهار قبل الذكر لا يجوز في كلامهم .

(١) انظر الانصاف ٢ / ٧٠٢ وما بعدها ، ومغني اللبيب لابن هشام ١ / ٨٠ وما بعدها ، والاشباه والنظائر للسيوطي ٣ / ٦٥ : ٦٦ .

وأما البصريون فقد ذهبوا الى أنَّ اعمال الفعل الثاني أولى واستندوا فيه إلى النقل والقياس كذلك ، أما النقل فقد جاء كثيرا قال تعالى : «آتوني أفرغ عليه قطراً» الكهف / ٩٦ فأعمل الفعل الثاني وهو أفرغ ، ولو أعمل الفعل الأول لقال : أفرغه عليه ، وقال تعالى : «هاؤم اقرأوا كتابية» الحاقة / ١٩ فأعمل (اقرأوا) ولو أعمل الأول لقال : اقرؤ وه . . . وأما القياس : فهو أن الفعل الثاني أقرب الى الاسم من الفعل الأول ، وليس في إعماله دون الأول نقص معنى . فكان اعماله أولى . . والذي يدل على أن للقرب أثرا أنه قد حملهم القرب والجوار حتى قالوا : جحر ضب خرب ، فأجروا خرب على ضبّ ، وهو في الحقيقة صفة للجحر .

ومن هنا يتبين لنا أن اختيار كل فريق كا مجرد استحسان وتذوق وليس مبناه على أن السماع أو القياس كان في جانب فريق دون آخر ، وعليه تكون كل مسألة قد ورد السماع فيها للفرقاء كان مبناها على الذوق والاستحسان ليس الا .

يقول أستاذنا المرحوم محي الدين عبد الحميد بعد تعليقه على شاهد البصريين: لرجل من باهلة:

ولقد أرى تغني به سيفانة تصبي الحليم ومثلها أصباه

قد تبين لك أن كلام العرب قد جاء باعهال أول العاملين في لفظ المعمول المتأخر عنهها ، وبإعهال الثاني في لفظه أيضا ، ومن إعهال العامل الأول الشواهد التي استدل بها الكوفيون ، ومن إعهال الثاني الشواهد التي استدل بها البصريون ، فليس لواحد من الفريقين أن يدعي أن الاستعمال العربي يؤيده وحده ، لأن الاستعمال العربي يؤيد كل واحد منهها . . . ولا نرى أن تحاول ترجيح احدى هاتين القضيتين فان لكل منها مستندا . . . (1)

(١) انظر الانصاف في مسائل الخلاف لابن الأنباري والانتصاف من الانصاف لمحي الدين عبد الحميد ١ / ٨٥ وما بعدها . ثم انظر المسألة / ١٤ تجد مستندا لكل فريق من القياس وكلام العرب ، ومشكل القرآن لابن قتيبة / ٢٤٥ .

ب اختلاف وجهات النظر في تفسير أصولهم التي تواضعوا عليها لكونها أكثر شبها بالقوانين التي يختلف فيها عند التفسير أو التطبيق ، ومن هذا القبيل اختلافهم في إضافة الشيء الى نفسه ويتمثل ذلك في اضافة الصفة الى الموصوف أو العكس ، أو الاسم الى المسمى أو العكس ، اذ الاصل في الاضافة أن يكون المضاف غير المضاف إليه ، لأن الاضافة تفيد اما تعريفا واما تخصيصا والشيء لايتعرف بنفسه ولا يتخصص بها ، وعليه فقد التزم البصريون بالمغايرة لفظا ومعنى وإذا فلا يجوز عندهم اضافة الصفة الى الموصوف أو العكس ، لأن الصفة والموصوف كالشيء الواحد ، واذا في ورد من النصوص على ذلك تأولوه وصرفوه عن ظاهره حتى يسلم لهم ذاك الاصل الذي أصلوا ، فتراهم يقولون في نحو : حبة الحمقاء ومسجد الجامع ، وحب الحصيد ـ ولدار الآخرة وكل ما أوهم ظاهره إضافة الموصوف الى صفته : حبة البقلة الحمقاء ومسجد المكان الجامع ، وحب الشيء الحصيد ، ودار الحياة الآخرة ، وذلك بتقدير موصوف محذوف ، وتراهم في إضافة الصفة الى الموصوف نحوقوله تعالى : «يعلم خائنة الاعين» غافر / ١٩ ، وقول الشاعر :

انا محيوك ياسلمي فحيينا وإن سقيت كرام الناس فاسقينا وان دعوت الى جلي ومكرمة يوما سراة الناس فادعينا

يقدرون موصوف محذوف قبل الصفة وتكون الصفة مضافة الى جنسها وعليه تكون الاضافة على معنى (من) فيقولون : يعلم خائنة من جنس الأعين وان سقيت صنفا كراما من جنس الناس ، ولا يخفي مافي ذلك التقدير من الثقل والسهاجة (١)

فأما الكوفيون فقد اكتفوا من الاصل السابق بالمخالفة اللفظية فحسب ، لذلك أجازوا الصفة الى الموصوف أو العكس والاسم الى المسمى دون تأويل اعتبادا منهم على الخلاف اللفظى فقط (٢).

فمذهب الكوفيين في ذلك سمح لخلوه من التأويل وقبولهم ما جاء به صريح الاستعمال الذي لاحاجة الى منعه ولا الى تأويل ما ورد منه ، لأن ما لا يحتاج الى تأويل أولى ، والسماع في ذلك أقوى من القياس . وانها يلجأ الى التأويل اذا ورد ما يخالف اصطلاحات الائمة .

⁽١) وقد وافق ابن مالك البصريين في هذه المسألة فقال : ولا يضاف اسم لما به اتحد معنى وأول موهما اذا ورد

⁽٢) انظر المقنع في الدراسات النحوية للباحث: ٢٤: ٢٧ ، وحاشية الخضري ٢ / ٦ وشرح الكافية للرضى ١ / ٢٨٥: ٢٨٨ ، ثم انظر الخصائص لابن جني في إضّافة الاسم الى المسمى ٣ / ٢٤ وما بعدها

قالوا أبوحيان: التأويل يسوغ اذا كانت الجادة على شيء، ثم جاء شيء يخالف الجادة فيتأول، أما اذا كانت لغة طائفة من العرب لم تتكلم إلا بها فلا تأويل، ومن ثم كان مردودا تأويل أبي على (ليس الطيب الا المسك) على أن فيها ضمير الشأن، لأن أبا عمرو نقل أن ذلك لغة تميم (١).

وما ورد من اضافة الصفة الى الموصوف أو الموصوف الى الصفة ليس كلام العرب فقط بل لغة الوحى والتنزيل كذلك .

جــ اختلافات مبناها على انفكاك الجهة بينهم مع احتمال كلام العرب لمذهب كل فريق وكان خلافهم في ذلك كلا خلاف ، ومن هذا النوع اختلافهم في أصل اشتقاق الاسم .

فم ذهب الكوفيين: أن الاسم مشتق من الوسم ، لأن الوسم في اللغة هو العلامة والاسم وسم على المسمى ، وعلامة لها يعرف بها ، فزيد وعمر قد دل كل لفظ منها على مسهاه وصار كالوسم عليه . . . قال أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب: الاسم: سمة توضع على الشيء يعرف بها والأصل في الاسم وسم ، الا أنه حذفت منه الفاء التي هي الواو في وسم ، وزيدت الهمزة في أوله عوضا عن المحذوف ووزنه اعل لحذف الفاء منه .

وذهب البصريون إلى أن الاسم مشتق من السمو، لأن السموفي اللغة هو العلو ، : يقال سما يسموسموا ، اذا علا . . . والاسم يعلوعلى المسمى ، ويدل على ماتحته من المعنى .

قال أبو العباس محمد بن يزيد المبرد: الاسم: ما دل على مسمى تحته ، وهذا القول كاف في الاشتقاق لا في التحديد ، فلم سما الاسم على مسماه وعلا على ما تحته من معناه دل على أنه مشتق من السمولا من الوسم (١). ومنها اختلافاتهم في نيابة الظرف عن الفاعل مع وجود المفعول به الى غير ذلك من المسائل التي يطول بها البحث .

⁽١) انظر الاقتراح للسيوطي تحقيق الدكتور / أحمد قاسم / ٧٥ .

 ⁽۲) انظر الانصاف لابن الانباري ۱ / ٦ (المسألة الأولى) ، ومسائل خلافية في النحولابي البقاء العكبري
 / ٤١ وما بعدها تحقيق د / محمد خير الحلواني ، ثم انظر المسألة : ١١٧ في الانصاف ٢ / ٨٠٩ .

د ـ اختلافات تأثر أهلوها بالفلسفة والمنطق نلمسها في الحدود والمصطلحات ولم يكن النحو وحده الذي ابتلى بها بل تعدى خطبها الى سائر العلوم ، من ذلك اختلافهم في حد الاسم والفعل والحرف . ونكتفى هنا بالأول اختصارا ، فسيبويه لم يحده حدا يفصله عن غيره بل اكتفى بالمثال فقال : الاسم : رجل وفرس (١) وحده السيرافي بقوله : كل شيء دل لفظه على معنى غير مقتر ن بزمان محصل من مضيّ أوغيره فهو اسم (١) وحده المنطقيون وبعض النحويين حدا خارجا عن أوضاع النحو فقالوا : الاسم : صوت موضوع دال باتفاق على معنى غير مقرون بزمان (١) .

قال أُبو القاسم الزجاجي:

وليس هذا من ألفاظ النحويين ولا أوضاع المنطقيين ، وان كان قد تعلق به جماعة من النحويين ، وهو صحيح على أوضاع المنطقيين ومذهبهم ، لأن غرضهم غير غرضنا ، ومغزاهم غير مغزانا . . . لأنه يلزم منه أن يكون كثير من الحروف أسهاء ، لأن منها مايدل على معنى ، دلالة غير مقترنة بزمان نحو إنْ ولكن وما أشبه ذلك .

وقال آخرون: الاسم: صوت موضوع دال باتفاق على معنى بلا زمان ولا يدل جزؤه على شيء من معناه، وهذا أيضا من كلام المناطقة وإن كانت فيه زيادة يسيرة وقال الأخفش سعيد بن مسعدة: الاسم ماجاز فيه نفعني وضرني: يعني: ما جاز أن يخبر عنه، وهذا اصطلاح تعليمي لا علمي، وفساده يظهر من أن بعض الاسماء ما لا يجوز الاخبار عنه نحو: كيف وأين ومتى، وأني وأيان . . .

وقال الزجاج: الاسم في كلام المعرب ماكنان فاعلا أو مفعولا أو واقعا في حيز الفاعل والمفعول . . . الى غير ذلك من الحدود مما يطول بها الكلام ونطيل (٤)

هـ اختلافات فردية أساسها البحث والنظر قد تصيب وقد لاتصيب ، وهذه كثيرة جدا كالخلافات بين سيبويه والمبرد (٥) ، وبين سيبويه والأخفش في وزن اقامة واستقامة مصدرين (٦) ومقول ومبيع اسمي مفعول .

- (١) الكتاب ١ / ٢ .
- (٢) شرح السيرافي للكتاب ١ / ٧ .
 - (m) الصاحبي / ٤٩ : ٥١ .
- (٤) انظر الايضاح في علل النحو لأبي القاسم الزجاجي / ٤٨ : ٥٥ تحقيق د / مازن المبارك .
 - (o) ينظر في ذلك ذيل المقتضب للمبرد تحقيق الأستاذ / محمد عبد الحالق عضيمة .
- (٦) انظر حاشية الأمير على المغني ١ / ١٨٣ ، والتبصرة والتذكرة للصيمري ٢ / ٧٧٤ ، والتعويض وأثره في الدراسات النحوية للباحث / ٨١ .

ومثل آراء ابن كيسان في رفع الاسم بعد لولا بها على أنه فاعلها (1) مرتفع بها ارتفاع الفاعل بفعله ، أو أصل الضمير : أنت وأنت . . . الخ ، وجمعه نحو حمزة وطلحة جمع مذكر سالما شريطة تحريك اللام من طلحة ، فيصير طلحون كأرضون حملا لهذا الجمع على أرضات (٢) . ورأي الخليل في نحو : اياي واياك ، ورأي الكسائي في اجازته وصف ضمير الكناية في نحو : اللهم صلى عليه الرؤ وف الرحيم الكسائي غير ذلك بما يعل ويمل الى غير ذلك بما يعل ويمل .

- أما الخلاف ات النحوية التي هي من صنع العرب ، ولا ذنب للنحويين فيها ، بل هم بعيدون عنها كل البعد ، بريئون منها براءة الذئب من دم يوسف المصنوع ، فهي أكبر من أن تعد أو تحصى ، ولنضرب منها الامثلة التالية :

- ميل بعض القبائل الى الفتح ، وبعضها الى الرفع ، وبعضها الى الاضجاع في بعض أنواع الكلام .

الزام المثنى الالف رفعا ونصبا وجرا عند كنانة وخثعم وزبيد ، ومثله في ذلك اضافة
 لدى الى الضمير ودخول الى وعلى عليه فيقولون : لداه وعلاه والاه (٣).

⁽١) أعجب العجب للزمخشري / ٦٧ .

⁽٧) انظر المخصص لابن سيده ٥ / ١٧ / ٧٩ ، والانصاف ١ / ٤٠ وما بعدها .

⁽٣) اعراب الحديث لأبي البقاء العكبري / ١٥٦ ، والكشاف ٣ / ٥٦ ومعاني القرآن ١ / ١٠٦ ، وشذور الذهب / ٤٦ / وما بعدها .

⁽٤) انظر الاحاجي للزمخشري / ٩٢ وما بعدها .

وقول الشاعر:

هذا خليلى وذو يعاتبني يرمي ورائي بأمسهم وامسلمة (١)

_ حكاية أهل الحجاز في المنصوب منصوبا في نحو: من زيدا ، فيمن يقول : رأيت زيدا ، والمجرور مجرورا في نحو: مَنْ زيدٍ ، فيمن يقول : مررت بزيد ، وغيرهم يحكيه مرفوعا في جميع ما تقدم فيقولون : من زيد فيمن يقول : عندي زيد ورأيت زيدا ومررت بزيد (*)

_ قلب بني دبير وهـ ذيـل عين الأجـوف واوا خالصـة عند بنائه للمجهول وعليه قول رؤ بة :

ليت وهل ينفع شيء ليت اليت شباب بوع فاشتريت وقول الأخريصف ناقته بالقوة :

حوكت على نيرين اذ تحاك تختبط الشوك ولا تشاك

وبها قرأ عيسى وطلحة قوله تعالى: «ولما أن جاءت رسلنا لوطا سيء» هود / ٧٧ فقالا سوء ، وجهور العرب والقراء يقلبون الألف ياء ويكسرون ما قبلها وأشمها نافع وابن عامر والكسائي ، وهذه اللغات الثلاث تجري في فاء المضعف الثلاثي كذلك عند بنائه للمجهول (٣)

- اتمام بني تميم اسم المفعول من الأجوف اليائي فيقولون في مدين مديون ، وفي مبيع مبيوع ، قال أبوعشهان المازني : وسمعت الاصمعي يقول : سمعت أبا عمروبن العلاء يقول : سمعت في شعر العرب :

* وكأنها تفاحة مطيوبة *

والقياس مطيبة ، وقال علقمة بن عبدة :

* يوم رذاذ عليه الدّجن مغيوم *

(١) انظر الاحاجي للزمخشري / ٤٥ وما بعدها ، وأعجب العجب للزمخشري / ٣٧

(٢) انظر الاحاجي للزنخشري / ٣٣ وما بعدها .

(س) انظر شرح الشافية للرضي ٣ / ١٥٥ ، والمصنف ١ / ٢٥٤ ، والمغني في تصريف الافعال للدكتور / محمد عبد الخالق عضيمة / ٢٠٧ وما بعدها ، وتهذيب التوضيح للشيخ أحمد المراغي / ٤٨ وما بعدها .

قال أخبر ني أبوزيد أن تميها تقول ذلك ، ورواه الخليل وسيبويه عن العرب .

قال أبو الفتح هذه شواهد لجواز اتمام مفعول من ذوات الياء ، وقد قالوا : طعام مزيت ومزيوت ، ورجل مدين ومديون ، وهو واسع فاش (١) .

- يكسر بعض العرب لام الجراذا جرت الضمير ماعدا ياء المتكلم فيقول: له مال، ويفتحها مع الاسم الظاهر نحو: لزيد مال، وجمهور العرب يفتحها مع الضمير ماعدا ياء المتكلم ويكسرها مع الاسم الظاهر (٢).
- فتح أسد همزة «أخال» والمشهور كسرها وهو فصيح استعمالا شاذ قياسا ، وحكم حرف المضارعة في غير هذا الحرف أن يضم باجماع ان كان الماضي رباعيا ، نحو: أدحرج وأكرم ويفتح في لغة الحجازيين فيها نقص أوزاد كيضرب وينطلق ويستخرج ، وغيرهم يكسر غير الياء في ثلاث مسائل:
- احداها: في يفعل بالفتح مضارع فعل بالكسر كعلمت تعلم ، بخلاف تذهب فان ماضيه مفتوح ، ويثق فإن المضارع مكسور ، ومن قال تحسب بالفتح كسرومن كسر فتح ، وقريء «ولا تركنوا الى الذين ظلموا» هود / ١١٣ ، قال ابن هشام: سمعت بدويا يقول في المسعى : انك تِعْلَمُ ما لا نِعْلَمُ بكسر التاء والنون .
- الثانية: أن يكون الماضي مبدوءا بهمزة الوصل نحو: ينطلق ويستخرج وقريء «يوم تبيض وجوه وتسود وجوه» آل عمران / ١٠٦، «واياك نستعين» أم الكتاب / ٥، بكسر حرف المضارعة (قاما من كسر في (نعبد) فقد ناسب بين النونين: أي على المشاكلة.
- الثالثة: أن يكون مبدوءا بتاء المطاوعة أوشبهها نحو: تتذكر وتتكلم وكأنهم جعلوا هذا الكسر عوضا عن كسر أول الماضي في نحو: نستعين ، وثانية في نحو تعلم ، وأما نحو تتكلم ، فكأنهم حملوا تفعل على انفعل ، لأنها للمطاوعة نحو: كسرته بالتشديد فتكسر ، وكسرته بالتخفيف فانكسر .

وانها لم يجيزوا كسر الياء لثقل الكسر عليها ، ولكنهم جوزوه اذا تلاها واو ليتوصلوا به الى قلبها ياء نحو: وجل ييجل (٤)

⁽١) المنصف لابن جني ١ / ٢٨٧ ، والمصباح المنير مادة (باع) وتاج العروس للزبيدي ٥ / ٢٨٤ مادة (باع)

⁽٢) أعجب العجب للزنخشري / ٤٠ .

⁽٣) مختصر من شواذ القراءات من كتاب البديع لابن خالويه / ١

هذا هو التوسع العربي الذي أعيا العلماء دركه خلفا بعد سلف ، وما هم بالغيه . وتلك أمتنا العريقة ، ولغتنا العتيقة ، وها هم أولاء نحاتها النجباء أبوا الا أن يعيشوا لها ومن أجلها ، فأقضوا مضاجعهم ، وأفنوا أنفسهم في مدها وجزرها وفاء لدينهم ، وخدمة لكتابهم ، ونحن على الدرب نسير ، حفاظا علي لغة التنزيل وصدق الله اذ يقول : «ان نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون» .

* * *

وبعد: فاننا اذا استثنينا بعض الآراء التي أثقلت النحوبها يسوؤه وينوؤه حيث لا سند لها من نقل أوعقل ، فان النحاة قد نَمُّوا الفكر اللغوي ، وقدموا للعربية ذخرا من خير الدراسات ، الأمر الذي يجعل العربية تفخر به على سائر اللغات وبه تظل شامخة مرفوعة الرايات .

مصادر البحث				
جهة النشر	عنته	مؤلفه	مسلسل اسم المرجع	
			١ - القرآن الكريم	
المعرفة بيروت	عبد الرحيم محمود	جار الله الزمخشري	٢ _أساس البلاغة	
زید بن ثابت دمشق • .	عبد الاله نبهان	أبو البقاء العكبري	٣ - اعراب الحديث	
حيدر أباد	***************************************	ابن خالويه	٤ ـ اعراب ثلاثين سورة	
الطبعة الاولى		الزمخشري والمبرد	 اعجب العجب في شرح 	
			لامية العرب	
دمشق	مصطفى الحدري	الزمخشري	٦ ـ الأحاجي	
بيروت	-	للأصمعي وغيره	٧ ـ الأضداد	
القاهرة	طه عبد الرؤوف سعد	جلال الدين السيوطي	. ٨ ـ الاشباه والنظائر	
السعادة / القاهرة	_	كهال الدين أبو البركات ابن الأنباري	٩ - الانصاف في مسائل الخلاف	
بيروت	مازن المبارك	أبو القامسم الزجاجي	١٠ ـ الايضاح في علل النحو	
مصر	_	ابن فارس	١١ ـ الصاحبي	
القاهرة	د/ أحمد قاسم	جلال الدين السيوطي	١٢ ـ الاقتراح	
بولاق-بيروت	_	ميبويه	١٣ ـ الكتاب	
******	_	جارالله الزمخشري	١٤ ـ الكشاف	
القاهرة	_	محمد محي الدين عبد الحميد	١٥ ـ الانتصاف من الانصاف	
القاهرة	على محمد البجاوي	- أبو البقاء العكبري	١٦ ـ التبيان في اعراب القرآن	
القاهرة	****	عيد الرحمن محمد اسهاعيل	١٧ ـ التعويض وأثره في الدراسات النحوية	
المكتبة الاسلامية	_	كيال الدين اللميري	١٨ ـ الحيوان	
بيروت	محمدعلي النجار	أبو الفتح عثمان بن جني	١٩ ـ الخصائص	
بيروت	: ابن سيده —	أبوالحسن على بن اصاعيل	٧٠ ـ المخصص	
مصر	_	جلال الدين السيوطي	۲۱ ـ المزهر	
_	Manager .	أحمد بن محمد بن على	۲۲ ـ المصباح المنير	
		المقري الفيومي		
القاهرة	محمدسيدكيلاني	أبو القاسم المعروف	۲۳ ـ المفردات	
		بالراغب الاصفهاني		
القاهرة	_	محمد عبد الخالق عضيمة	٢٤ ـ المغني في تصريف الافعال	
القاهرة	محمد عبد الخالق عضيمة	أبو العباس المبرد	٧٥ ـ المقتضب	
القاهرة	_	عبد الرحن محمد اساعيل	٢٦ ـ المقنع في الدراسات النحوية	
القاهرة	ابراهيم مصطفى وغيره	أبو الفتح عثمان بن جني	۲۷ ـ المنصف	

المقاهرة	أخدصتر	أبونحمد عيدالله بن مسلم	24 - تأويل مشكل القرآن
		الزبيدي	٢٩ ـ تاج العروس
المكتبة التجارية مصر	_	الشيخ أحد المراغي	٣٠ ـ تهذيب التوضيح
دار احياء الكتب العربية مصر			٣٢ ـ حاشية الأمير علي المغني
دار احياء الكتب العربية مصر			٣٢_حاشية الخضري
دار احياء الكتب العربية مصر			٣٣ ـ حاشية عبادة على الشذور
بيروت	_	د/ صبحي صالح	٣٤ ـ دراسات في فقه اللغة
_	_	_	٣٥ ـ ذيل الامالي
القاهرة	محي المدين عبد الحميد	ابن هشام	٣٦ ـ شلور اللعب
		ابن هشام	۳۷_شرح بانت سعاد
القاهرة	محي الدين وآخران	رضي الدين الاستراباني	٣٨ ـ شرح الشافية
استانبول		رضي الدين الاستراباذي	سي ٣٩_شرح الكافية
			٠٤ - شرح السيرافي للكتاب
بيروت	أحمد عبد الغفور عطار	ابن خالويه	٤١ - كتاب ليس في كلام العرب
مصر	محمد فؤاد سزكين	أبو عبيلة معمر بن المثنى	٢٤ _ عباز القرآن
		لقرى العلد الرابع سنة ١٤٠١ هـ .	27 _ مجلة البحث العلمي _ جامعة أم ا
مصر	ج. برجتراسر	ابن خالويه	٤٤ _ غنصر القراءات الشاذة
دمشق	محمد خير الحلواني	أبو البقاء العكبري	ه ٤ _مسائل خلافية في النحو
مصر .	محمد علي النجار	أبو زكريا الفراء	٤٦ _معاني القرآن
احياء الكتب العربية مصر		ابن هشام	٤٧ _ مغني اللبيب

.

في مسكلات البحباليوي

للدكتور/ على أبو المكارم

في مشكلات البحث النحوي

الحمد لله والصلاة والسلام على خير خلق الله ، وبعد .

فارجو أن تأذنوا لي في بداية هذا الملتقي العلمي المبارك إن شاء الله ، أن أسجل منذ الوهلة الاولى _ عددا من الملحوظات لا أجد مناصا من التمهيد بها :

الأولى _ أن ما سأقوله هنا ضرب من التفكير بصوت عال ، وليس نتائج التفكير ومحصلته النهائية ، ومقتضى هذا أن هذا الحديث لا يقدم حلولا لمشكلات قائمة بالفعل في البحث النحوي ، بل يهدف الى محاولة بناء «تصور شامل» لجوانب بعينها من هذه المشكلات ، وإذا صح هذا التصور ، كان علينا أن نمضي مع التفكير خطوة أخرى نحو البحث عن حلول لهذه المشكلات . ان الخطوة الاساسية في تقديري تبدأ من تحديد المشكلات وتلمس أبعادها والوقوف على أسبابها ونتائجها ، وهذا هوما نحاول القيام به في هذا الحديث ، وإني لأعترف بأنني أختلف مع نفسي في كثير من الأحيان في وضع بعض ما سأعرض من مشكلات في مكانها وسلكها في اطارها ، الأمر الذي يؤكد بأننا مازلنا في مرحلة البحث في الاحتالات القائمة ولما نصل بعد الى مرحلة التصور النهائي ، وإني لأرجو أن يكون هذا اللقاء خطوة في سبيل الوصول اليه .

والشانية - أنه لا مفر في هذا الحديث من التفرقة بين عدد من المشكلات المتصلة والمترابطة تلك التي تتناول جوانب مختلفة من النحو العربي ، وهي مشكلات البحث فيه ، والتعليم له ، والتأليف فيها ، ولقد تبدو العلاقة بين هذه الجوانب جميعا من التعقد والتشابك والتداخل والامتزاج بحيث تصبح فكرة الفصل بينها محور اختلاف ، بل لقد يذهب البعض الى وصف مثل هذه المحاولة بالتعسف لفصمها بين ما هو مترابط بالضرورة . بيد أنني أحسب أن على الباحث النظري أحيانا أن يلجأ لأسلوب (البحث المعملي) الذي يتم فيه عزل بعض الظواهر عاهي عليه في الطبيعة لتصبح عينات قابلة للتحليل ، مع التسليم سلفا بأن في مثل هذا العزل من المخاطر ما قد يسم عملية البحث كلها بالبعد عن الحقيقة ويضع حول نتائجها علامات الاستفهام . ولكن مع ذلك لاسبيل الى تجنب مثل ذلك الاسلوب على أن تلحقه دراسة دقيقة لمعرفة مدى تأثر الظواهر المدروسة ببيئتها والى أي حد تتغير طبيعتها .

والثالثة ـ أن هذا الحديث يدخل في اطارين لا أجد من الإشارة اليها مفرا ، فهو أولا حديث في المنهج ، وهو ثانيا مدخل الى منهج ، هو حديث في المنهج بحكم أن القضايا التي يثيرها ليست مسائل جزئية ولا مشكلات تفصيلية ، وإنها هي قضايا كلية تمس الأسس العامة للبحث النحوي ، وغايات هذا البحث ، ونتائجه . وهو مدخل الى منهج لأن المناهج القائمة بالفعل في البحث النحوي سواء أكانت تراثية أم معاصرة ليست مسلمة عند المتحدث ؛ فالمناهج التقليدية الشائعة في التراث النحوي قد أسلمت بها التزمت به من أصول الى اضطراب في تصور اللغة وخلط في تحديد نظمها ، والمناهج اللغوية المعاصرة ، وبخاصة المنهج الوصفي ، تبدأ من مسلمتين يأباهما انتحليل الموضوعي للغة العربية الفصحى ، وهاتان المسلمتان هما : التحديد يأباهما انتحليل الموضوعي للغة العربية الفصحى ، وهاتان المسلمتان هما : التحديد الزماني ، والتحديد المكاني ، وفي العربية الفصحى لانجد مناصا من رفض هاتين المقدمتين ؛ نظرا لأن الحقيقة الموضوعية الأساسية في هذه اللغة ارتباطها بالنص القرآني ، وهو نص عمتد عبر الزمان والمكان جميعا .

وبرغم أن هذا الحديث يتصل أوثق اتصال بالمنهج ، فانني عدلت ـ عامدا ـ عن لفظ المنهج في العنوان الذي اخترته له ، بعد أن لاحظت ـ ومعي كثير ون ـ أن كثيرا من المعاصرين قد أسرفوا في استعمال هذه الكلمة في مجالها وفي غير مجالها ، حتى فقدت أو أوشكت أن تفقد مدلولها ، وصارت بفضل هذا الاسراف في الاستعمال ذات دلالة غير محددة :

ان أي تصويب في طريقة ذكر المصادر أو المراجع ، أو أي اشارة الى طريقة وضع علامات الترقيم في بحث يوصف الآن دون شطط فيها أقرر ، فلقد سمعته بأذني - بالمنهجية . والمنهج في جوهره طريقة التفكير والضوابط الكلية التي تحكمها ، وليس أساليب الأداء والأشكال المتنوعة التي تتخذها . لذلك آثرت عامدا البعد عن لفظي : (المنهج) و(المنهجية) مع يقيني بأن هذا الحديث - في موضوعه ومادته - في صميم المنهج والمنهجية معا .

ولقد يتبادر الى الذهن تساؤل: وهل بعد أن نضج النحو العربي طوال هذا التاريخ الذي تضافرت فيه على البحث عقول رائعة الخصوبة، وقدرات عظيمة الاستعداد والاستيعاب، وتركت فيه كل هذه الآثار العلمية ما نشر منها وما لم ينشر، هل بعد أن نضج النحوحتى قيل إنه قد احترق، ما زلنا في حاجة الى الحديث عن منهج البحث فيه ؟ وعن منهج للبحث فيه ؟

واني لأستأذنكم في أن أو جل الاجابة عن هذا السؤ ال أو التساؤ ل قليلا ، حتى أفرُغ من تحديد موقف من عدد من الظواهر تمثل في مجموعها الحقائق البارزة في البحث النحوي حتى يوم الناس هذا :

الظاهرة الأولى: تعدد مجالات البحث النحوي وتنوع مستوياته ، ولعل من الممكن ـ مع شيء من التجوز محدود ـ التمييز في هذه المرحلة بين عدد من الاتجاهات أرجو ألا أكون مسرفا في التفصيل حين أشير الى أهمها فيها يأتى:

1 - الاتجاه الموضوعي ، الذي يعني بالتناول المباشر لمشكلات الجملة العربية ونظمها وقوانينها ، وقد يمس مع ذلك بعض المشكلات الأخرى التي تتصل بالصوتيات أو الصرف أو المعجم أو بعض المباحث الدلالية أو بعض مسائل الاشتقاق وقضاياه . (1)

٢ ـ الاتجاه الشخصي ، وغايته تحديد الآراء الذاتية للشخصية النحوية التي تكون محور دراسة لمعرفة الاطار النظري الذي حكم هذه الآراء من جهة ، والنتائج التطبيقية لها في موضوعات البحث النحوي ومسائله من جهة أخرى . (٢)

٣ - الاتجاه المدرسي أو الاقليمي ، وهويقوم على تصور عناصر قرابة في المواقف والآراء والاتجاهات سواء ما يتصل منها بالأصول والمقومات ، أو ما يتعلق منها بالنتائج والمعطيات ، بين العلماء الذين ينتمون الى تجمع بعينه أو اقليم بذاته ، بغية الوقوف على عوامل التأثير المشتركة بينهم ، ونتائجها المباشرة في صياغة اتجاهاتهم . (٣)

الاتجاه التاريخي، ومحوره تتبع التطور التاريخي للآراء النحوية في مجالات ثلاثة أساسية، هي : الأصول العامة، والقواعد الكلية، والمسائل التفصيلية، وذلك بهدف التعرف الى أساليب تغير الأفكار والآراء، ووسائل نموها، واتجاهات تطورها وما وراء ذلك كله من عوامل ذاتية أو خارجية . (٤)

الاتجاه الفلسفي أو النظري ، وهدفه البحث فيها وراء القواعد النحوية من قوانين وأصول ، بغية استكشاف هذه القوانين وتحديدها من ناحية ، ثم فهم طبيعة العلاقة بينها وبين القواعد من ناحية أخرى . (٥)

الظاهرة الثانية _ أن ثمة مشكلات عديدة في كل مجال من هذه المجالات ، أو في كل اتجاه من هذه المتجاهات . ولست بصدد الحديث المفصل عن هذه المشكلات بأسرها ولكن حسبي أن أشير الى عدد منها تحرَّيت أن يكون من قبيل ما هومشترك سنا :

١ - فهناك - أولا - مشكلة نقص المعلومات المباشرة ، وبخاصة في مجال دراسة النحاة ، فان قدرا كبيرا من الأحكام التي تصدر في هذا المجال تمتد عن مصادر غير مباشرة ، اذ لم يتم حتى الآن نشر قدر كاف من المصنفات النحوية ، ومن ثم فان ما بين أيدينا من مصادر المعلومات لا يمثل الا نسبة محدودة من المصادر التي يجب العودة اليها في درس موضوعات النحو وبحث آراء رجاله ، ثم ان قدرا كبيرا مما نشر لم تتوافر في نشره ضوابط التحقيق العلمي التي تتطلب مع العناية بالجزئيات - من توثيق النقول، وتحرير الآراء ، وتخريج الشواهد ، ومقابلة النسخ . . . الغ - الاهتمام بالنظرة الشاملة للعمل المحقق ، بها تتطلبه هذه النظرة من استقصاء ما فيه من ظواهر لتحديد مدى ما تتسم به من شيوع وانتشار ، وتتبع ما فيه من أفكار لردها الى جذورها من ناحية وما لها من صور الامتداد وأشكاله من ناحية أخرى .

ولقد درست موضوعات كثيرة في اطار هذا النقص من المعلومات المباشرة ، كها تنوولت شخصيات عديدة في رحاب هذه الظروف ، ولست أريد أن أضرب أمثلة ؛ فأنتم بها عليمون ، وأحسب أنه لا مفر من اعادة درسها بأسرها من جديد ، في ضوء ما ينبغى جمعه من معلومات عنها ، ومنها .

٧ - وهناك - ثانيا - مشكلة التناول الجزئي للموضوعات النحوية ، وخلاصة هذه المشكلة أن كثيرا من المدققين يلحظون انحصار الدارسين في الموضوعات التي يعالجونها - لا يكادون يتجاوزونها الى ما يدرسونها وتقوقعهم في اطار الشخصيات التي يعالجونها - لا يكادون يتجاوزونها الى ما يحيط بها مما يؤثر فيها الا نادرا ، ثم انهم - في غالب الاحيان - لا يتطلعون الى ما وراءها مما يبدو أنه لا تأثير له فيها ولا علاقة له بها . ولقد يعد هذا الانحصار في اطار جزئيات بعينها قمة العمل العلمي ودليل الموضوعية الكاملة ، تحت وهم تصور أن (العمق) يقتضي هذا الانحصار ويستلزمه - وذلك غير صحيح ، فإن العمق يتطلب الإحاطة بكافة العوامل المؤثرة في الظاهرة المدروسة ، ومن الثابت أن النحو بطبيعة مادته وموضوعاته تركيبي لا تراكمي ، فالأفكار فيه لا تتجاور مستقلة ، بل تتفاعل

وتتداخل، وهي في تفاعلها قد تسلم الى اتجاهات بادية الجدة تبدو غريبة في موضعها ، منبتة الصلة بجذورها ، ولكنها عند التحقيق نتاج ما كان بين الأفكار من اتصال وتواصل ، إن (١) + (١) لاتعني بالضرورة في البحث النحوي (٢) ، بل تعني بالقطع نتيجة ما قد لا تكون (٢) من بينها ، ولكن هذه النتيجة مرتبطة ايجابا بالعناصر الأولية المكونة لها .

٣- وهناك أخيرا تلك الأحكام العامة التي يستطيع القاريء أن يجدها بيسر في كل مجالات البحث النحوي ، وفي كل مستوى من مستوياته ، وهي أحكام تصدر متأثرة بعوامل شتى ، منها ما هو ذاتي ومنها ما هو موضوعي ، منها ما هو جوهري ومنها ما هو عرضي ، ولكن في طليعة هذه العوامل في أتصور عاملان أساسيان: أولها: عدم اللجوء الى الأساليب الاحصائية في بحث القضايا اللغوية والمسائل النحوية . وثانيها: الاعتاد المطلق على مقولات نحوية لم يتم تحليلها لمعرفة مدى صدقها ولكنها تأخذ سبيلها باعتبارها (حقائق) بديهية في التراث النحوي لمجرد وجودها في هذا التراث .

الظاهرة الثالثة: أن ثمة مستوى آخر من المشكلات يمكن اعتباره أكثرها خطرا وأعمقها أشرا وأبعدها شمولا - انها مشكلات لاتسم نتائج البحوث النحوية الموجودة بالفعل بل توجد في الأسس التي تبنى عليها والمباديء التي تستند اليها والأصول التي تلتزم بها، وفي طليعة هذه الأسس والمباديء والأصول - فيها أرى - أمران: أولها - يتصل بالنصوص التي يتم استنباط القواعد منها.

وثانيهما _ يمتد عن الأصول التي يجب ـ في استخلاص القواعد ـ رعايتها .

أما فيما يتصل بالنصوص فان من المقرر نحويا ضرورة الالتزام بكافة النصوص المنسوبة الى عصر الاستشهاد ، دون تفرقة بين ماكان منها ينتمي الى مستوى اللغة العامة ، أو المشتركة ، أو الفصحى ، وماكان ينتمي الى مستوى قبيلة بعينها لا يتجاوزها الى غيرها .

ومقتضى هذا الالتزام أن كل نص ثبتت نسبته الى هذا العصر لابد من مراعاته في التقعيد النحوي ، بغض النظر عن صاحبه ، وهل هومعروف أو مجهول ، وهل هو مجنون أو عاقل ، وهل هو كبير أو صغير ، وهل هو ممن تعنيهم الصياغة اللغوية أو ممن تقصر قدرتهم عن فهم تراكيبها وتذوق أساليبها .

وبغض النظر عن الظروف المصاحبة له ، وهل تتطلب الارتفاع فوق مستوى (اللهجة) الخاصة أو تسمح بالأخذ بها ، وهل تتم في اطار اجتهاعي خالص أو في نطاق مجتمع ثقافي ، وهل تصدر عن رغبة في تحقيق حاجة عابرة أوينتجها وعي بتجاوز اللحظة المعاشة ومحاولة ترك بصهات لغوية متمثلة في (نمط تعبيري) خاص يكون له حظه من الاستمرار والانتشار .

وبغض النظر عما في هذا النص من سمات وخصائص ، فهل تتسق مع ما أثر لغويا من خصائص اللغة العامة ، أو المشتركة ، أو تختلف معها ، والى أي مدي تتسق أو تختلف ، وفي أي مستوى من مستويات الأداء يكون هذا الاتساق أو الاختلاف .

ولقد أسلم هذا الالتزام المطلق بنصوص عصر الاستشهاد الى وجود مشكلات شتى في البحث النحوي ، أهمها فقدان الاتساق فيه وتضارب الظواهر بين نصوصه ، ارجع ان شئت الى القواعد النحوية وبخاصة في مجالات التصرف الاعرابي وما فيه من ضوابط الاعراب والبناء والتطابق بشقيه العددي والنوعي ، والترتيب وما يعرض له من تقديم وتأخير واتصال وانفصال فسوف تجد وراء كثير من الأحكام النحوية المختلفة نصوصا مسموعة . ولو أنك وقفت عند كثير من هذه النصوص لوجدتها تتتمي الى مستويات شتى ، منها ما هو في مستوى اللغة الفصحى ، ومنها ما هو في مستوى اللهجات القبلية . ولو أننا نحينا جانبا ، في مجال التقعيد للفصحى ، تلك النصوص التي تحمل ظواهر لهجية ليسرنا كثيرا مما يتسم به البحث من صعاب، ولحققنا ما هو أكثر خطرا من تيسير البحث النحوي ، وهو تحقيق الاتساق الموضوعي في النصوص اللغوية محور البحث والتحليل .

ولا يحسبن أحد أنني بذلك أدعو لالغاء تلك النصوص القبلية ، فانها يجب أن تكون مجال بحث ودرس وتحليل ، ولكن في نطاق الدراسات اللهجية وليس في مجال التقعيد اللغوي للعربية الفصحى . ان اللهجات ـ أوعلى حسب ما كان يصطلح عليها الاقدمون اللغات آحجة ، ولكن في مجال دراستها وليس في رحاب الفصحى نفسها .

وأما فيما يتصل بالأصول ودورها في اضطراب البحث النحوي وتعدد مشكلاته فان ذلك لا يحتاج الى بيان . وحسبي أن أشير الى جانب واحد فقط من جوانب هذه

الأصول لعله ليس أعظمها خطرا ، ولكن أوضحها أثرا ، وهو الاختلاف الكمي في تحديد النصوص التي تبني عليها القاعدة النحوية ، إن الباحث في التراث النحوي يجد نفسه أمام مصطلحات شتى تدل على الكم الصالح لبناء القاعدة عليه ، نحو : المطرد ، والغالب ، والكثير ، والشائع ، ويجد نفسه أمام مصطلحات مغايرة تدل على عدم صلاحية الكم لبناء القاعدة عليه مثل : القليل ، والنادر ، والشاذ ، ولكنه لن يجد في التراث النحوي كله تحديد كميا دقيقا لأي مصطلح من هذين النوعين من المصطلحات ، ولقد نتج عن عدم التحديد ما يمكن وصفه باضطراب استعمال هذه المصطلحات ، ولقد نتج عن عدم التحديد ما يمكن وصفه باضطراب استعمال هذه المصطلحات جميعا ، وهو اضطراب يسم كلا من النوعين على حده ، كما يسم العلاقة بينها ، بحيث وجدنا من يعبر عن بعض الظواهر بمصطلحات الاطراد والشيوع والكثرة ، دون تفرقة بينها ، أو القلة والشذوذ والندرة ، من غير تمييزبين دلالاتها . كما وجدنا من يعبر عن بعض الظواهر بالشيوع مستندا الى بعض ما وقف عليه من نصوص ، في حين يصفها غيره بالقلة أو الشذوذ .

وليست المشكلة في جوهرها مشكلة مصطلحات حتى يقول قائل إنه لا مشاحة في الاصطلاح ، ولكنها مشكلة تحديد القيمة العددية للمصطلحات ، وفقدان هذا التحديد يسم دلالات هذه المصطلحات - ومن ثم نتائجها التطبيقية - بالغموض والاضطراب والتضارب في اعتبار ما تحمله النصوص من ظواهر .

وأحسب أن هاتين المشكلتين الأخيرتين: مشكلة الالتزام المطلق بنصوص عصر الاستشهاد مع فقدانها الاتساق واتسامها بالتضارب، ومشكلة الغموض المحيط بالدلالالة الكمية للنصوص قد يسرتا السبيل للنحاة الى تقرير ما يرون من آراء وما يأخذون به من أقوال، حتى شاع بأن النحوي لا يخطيء، اعتبادا على أنه بتمرسه بتأويل النصوص ومراعاته لبعض مالا يعتبره سواه قادر على تخريج ما لا يُقبّل من نصوص. وأحسب أن هذا كله مؤشر واضح على أن اللغة التي يقدمها النحو العربي في بعض جوانبها ليست العربية الفصحى بحال.

وبعد: فلعله قد آن الأوان للاجابة عن ذلك السؤال أو التساؤل الذي قلناه في بداية هذا الحديث، وهو: هل بعد أن نضج النحوحتى قيل إنه احترق مازلنا في حاجة الى الحديث عن منهج البحث فيه ؟ ، وعن منهج للبحث فيه ؟ .

وجليّ أن هذه المشكلات العديدة التي تكتنف البحث النحوي تتطلب حلولا . ولكني أجد من الأسباب ما يحملني الى تقرير أن أكثر هذه المشكلات أهمية وأشدها تأثيرا تلك التي تتصل بأمرين يمثلان معا نقطة البدء المنهجية في البحث النحوي : أولها مفهوم عصر الاستشهاد ، ذلك المفهوم الذي يجب أن تحال فيه الدلالة الزمنية الى خصائص لغوية لا علاقة لها بالزمن ، ثم أساليب تناول هذه النصوص ، ولا مناص من الاعتراف في هذا المجال بأسلوب الأرقام الاحصائية حتى نجلوتلك الصورة الضبابية الغائمة التي تحيط بالتحديد الكمي للنصوص اللغوية وظواهرها .

ان البحث النحوي في حاجة قبل كل شيء الى تحديد النصوص التي تكون محور دراسة وتحديد المنهج الذي تتم على أساسه هذه الدراسة . واذا لم يتم لهذا البحث أن يحدد أيا من هذين الأمرين فها أحسب الا مستمرا في هذه الحلقة المفرغة من الموضوعات التي نأت بالبحث النحوي على أن يسهم اسهاما حقيقيا في توضيح اللغة المفصحى وجلاء خصائصها ونظمها .

كيف السبيل اذا الى تحديد نصوص عصر الاستشهاد على نحويحقق فيها الاتساق؟ وما المنهج الذي يجب الأخذبه في هذا التحديد من ناحية ، وفي تقعيد ما في النصوص من ظواهر من ناحية أخرى؟

ان الاجابة عن كل ذلك تحتاج الى حديث آخر ، بيد أن هذه الأسئلة ـ في ذاتها ـ تدل على أننا فيها أظن في حاجة الى منهج جديد . ولعل الله يأذن بأن يكون ذلك موضوع لقاء جديد .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، ، ، د. علي أبو المكارم

هامش (۱) :

١ _ نكتفى في هذا المجال بالاشارة الى البحوث التالية :

الاضافة في النحو العربي الأفعال الناسخة الموصولات وجملة الصلة أساليب القسم حروف القسم اسم الفاعل بين الفعلية والاسمية أقسام الكلام العربي من حيث الشكل والوظيفة أساليب التوكيد التضمين بين حروف الجر التضمين في ضوء الدراسة النحوية التضمين في النحو العربي التعدي واللزوم العطف اسناد الفعل (ما) واستعمالاتها الحروف العاملة

لابراهيم خليفة سليمان شعلان لصفاء محمد على الحلي لعبد الله على الجمال لكاظم فتحى الراوي لطالب الرفاعي لفاضل مصطفى الساقى لفاضل مصطفى الساقي لطه عبد الحميد لخليل اسهاعيل العاني لمحمد محمد عبد الرحمن لعبد الفتاح بحيري لخليل العطية لعبد الوهاب الكحلة لرسمية المياح لحمد بن عبد الرحمن المفدى لهادي عطية مطر

(٢) هامش (٢) :

لعل من المفيد هنا أن نذكر أن الدراسات التي تمت في هذا الاتجاه تسير في مجالين متميزين: أوَّلها تناول الشخصية النحوية من خلال آثارها الباقية في مجموعها، وغالبا ما تتمثل هذه الآثارفي آراء نحوية متفرقة مبثوثة في كتب النحو وأحيانا تكون للشخصية النحوية موضوع الدراسة أعمال علمية لم تنشر، ومن ثم يقرر الباحث عادة أنه قد أتم الاتصال المباشر بهذه الأعمال ليقف منها على الاتجاهات الحقيقية للشخصية محور البحث. وثانيها دراسة الشخصية من خلال كتاب أو أثر محدد، يتم تحقيقه غالبا. وعادة ما تنحصر مشل هذه الدراسة في رؤية الشخصية من خلال الكتاب أو العمل العلمي الذي يتم تحقيقه.

وحسبنا أن نشير هنا الى الدراسات الآتية :

أولا:

مذهب الخليل النحوي مذهب الكسائي في النحو أبوعمروبن العلاء ومذهبه في النحو منهج الاخفش الاوسط في الدراسة النحوية أبوزكريا الفراء ومذهبه في اللغة والنحو سيبويه

لمهدي المخزومي لجعفر هادي الكريم لكامل محمد لطفي لعبد الامير الورد لأحمد مكي الانصاري لعلي النجدي ناصف

لعبد الفتاح شلبي لرشيد العبيدي لطالب عبد الرحمن التكريتي لصباح سالم الخفاجي لأحمد حنفي لهدى قراعة لحمد علي القصاص لنعمة رحيم الغزاوي لمازن المبارك لعبد الحسين المبارك لعبد الغفار حامد هلال لجميل علوش لطه عبد الحميد لخديجة الحويثي لعبد المنعم أحمد صالح التكريتي لمحمد صالح التكريتي لطارق عون الجنابي لعبد الفتاح الحموز لمحمد الدسوقي الزغبي لمحمد على حمزة السعيد لعبد الرحمن محمد السيد لفاضل السامرائي لعبد الله بن سالم الدوسري لعلى مظهر الياسري لمحمد ابراهيم البنا لعلى فودة نيل

لمازن المبارك لخليل العمايرة لاسهاعيل العمايرة لزهبر غازى زاهد لأحمد محمد قراط لطه عبد الرحمن لصاحب جعفر أبوجناح لحمد سعيد الحافظ

أبوعل الفارسي أبوعثمان المازني ومذهبه في الصرف والنحو يونس بن حبيب آراؤ ه ومنهجه في اللغة والنحو عيسى بن عمر الثقفي ثعلب وأثره في النحو واللغة الزجاج وأثره في النحو والصرف ابن جني النحوي أبوبكر الزبيدي وآثاره في النحو واللغة الوماني النحوي الزجاجي ومذهبه في اللغة والنحو ابن جني ابن الأنباري أبو البركات الانباري أبوحيان النحوي ابن الشجري ومنهجه في النحو الزجاج : حياته وآثاره ابن الحاجب النحوي : آثاره ومذهبه ابن خالويه وأثره في النحو واللغة السيوطي ابن الناظم نحوابن مالك بين البصرة والكوفة الدراسات اللغوية والنحوية عند الزمخشري الدراسات النحوية عند ابن القيم الجوزية ابن كيسان ورّاؤه في النحوواللغة السهيلي النحوي ابن هشام: آثاره ومذهبه النحوي الايضاح في علل النحوللزجاجي (تحقيق ودراسة) الاغفال في اعراب القرآن المنسوب للفارسي المسائل المشكلة المعروفة بالبغداديات اعراب القرآن للنحاس

رصف المباني للمالقي

الجني الداني في حروف المعاني للمرادي

المسأئل والاجوبة لابن السيد البطليوسي

شرح جمل الزجاجي لابن عصفور

لعلى حيدر المرتيل في شرح الجمل لابن الخشاب لخليل الحسون اللباب في علل البنا والاعراب لهادي عطية مطر لب الالباب في علم الاعراب لمحمد على هادي الحسيني أوضح المسالك لابن هشام لمحمد عبد المجيد الطويل شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك كتاب شرح الجمل الكبرى لابن هشام لعلى توفيق محمد الحمد لمحمد على هادي الحسيني الواقية في شرح الكافية للاستر باذي لعبده الراجحي منهج ابن جني في كتابه المحتسب الحلل في إصلاح الخلل من كتاب الجمل لسعيد عبد الكريم سعودي

لكاظم بحر المرجان المقتصد في شرح الإيضاح لعبد القاهر لحسن عبد الكريم الشرع شرح لمع ابن جني للواسطي لجسين محمد شرف اللمع لابن جني لفايز فارس شرح اللمع لابن برهان لمحمد على سلطان شرح أبيات الكتاب لابن السيرافي لحاتم صالح الضامن مشكل اعراب القرآن لمكي بن أبي طالب لاحمد خطاب العمر القطع والائتناف للنحاس لعبد الحسين الفتلي أصول النحولابن السراج لحسن شاذلي فرهود الايضاح للفارسي لموسى بناي العليلي الايضاح في شرح المفصل لابن الحاجب

لعلى موسى الشوملي شرح المقدمة الأجرومية

لكامل محمد يعقوب

لأحمد حسن كحيل

هامش (۳) -

كشف المشكل في علم النحولعلي

ابن سليهان اليمني

النحوفي الاندلس

لا بأس من أن نشير هنا الى الأعمال العلمية الآتية : لمهدى المخزومي مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو لعبد الرحمن محمد السيد مدرسة البصرة النحوية لمحمود حسني محمود المدرسة البغدادية في النحو لأمين على السيد الاتجاهات النحوية في الاندلس لخضر الياس خضر اللغة العربية بين المدرستين البصرية والكوفية لعبد العال سالم مكرم المدرسة النحوية في مصر والشام لعبد القادر رحيم الهيتي خصائص مذهب الأندلس النحوي لشوقي ضيف المدارس النحوية لمحمد طنطاوي نشأة النحووتاريخ أشهر النحاة

14

هامش (٤)

قد يكون من المفيد أن نسجل هنا ما نلحظه من أن كثيرا من الدراسات التي حرصت على رصد مسار الآراء والاتجاهات النحوية للوقوف على دور الزمن في تطورها لم تنفصل في كثير من الأحيان عن الاتجاهين السابقين وهما : الاتجاه الشخصي في دراسة النحو ، والاتجاه الاقليمي في تناوله - اذ يتم عادة أثناء دراسة الشخصية النحوية أو التجمع النحوي في اقليم ما التعرض للمراحل التاريخية السابقة واللاحقة وتحليل ما قد يكون من عوامل ذات أثر في الأخذ ببعض الآراء أو رفضها ، وتحديد ما قد يقف عليه الباحث في هذا المجال من تطور . وان كانت بعض الدراسات القليلة حاولت التخلص من أسر النظر من خلال الشخصيات أو التجمعات والرؤية المستقلة للظواهر في اطار المسائل أو المشكلات ، ويحضر في هذا الأعمال العلمية الآتية :

تاريخ النحو العربي لعلي أبو المكارم اصول التفكير النحوي لعلي أبو المكارم القياس في النحو العرب من الخليل إلى الصابر بكر أبو السعود ابن جني لقرن العاشر لأحمد عبد اللاه هاشم اللغة والنحو اللغة والنحو اللغة والنحو اللغة اللغة والنحو اللغة اللغة والنحو اللغة ال

هامش (٥)

من المؤكد أن الدراسات التي تناولت الأصول النحوية تسير بدورها في اطارين: أولهما في اطار «الموضوعات» أو «المشكلات» أو «الشخصيات» أو «التجمعات» ، وثانيهما تناولها بصورة مباشرة دون التقيد بمشكلة أو شخصية أو تجمع . ولعل أبرز ما يحضرني الآن من البحوث في هذا الإطار ما يأتي

لعلى أبو المكارم لسعيد الأفغاني لمحمد رفعت فتح الله لعبد العزيز صالح رضوان لعبد الجبار علوان النايلة لمحمد خير الحلواني لمنا حداد لفتحي عبد الفتاح الدجني لمحمد عبد الحميد سعد تقويم الفكر النحوي في أصول النحو أصول النحو الساعية الشواهد في النحو العربي التقعيد النحوي بين الساع والقياس الاحتجاج وأصوله في النحو العربي شواهد النحو الشعرية ظاهرة الشذوذ في النحو العربي الشذوذ والضرورة

المحتويات

١) محاضرات الموسم الثقافي - بكلية اللغة العربية

٣) هيئة الاشراف

٥) مقدمة (لهيئة الأشراف)

٧) تقديم (د. حسن محمد باجوده)

المحاضرات

● الوقوف على الأطلال عند شعراء المعلقات

• الاعراب سمة العربية الفصحي

• نظرات في تحقيق التراث

● القراءات في فتاوي شيخ الاسلام ابن تيمية

• نزعة العالمية في الأدب

● النحو صنعة الموالي (دراسة حديثة لقضية قديمة) د. سيد رزق الطويل

● الحطام المتناثر في تضاعيف اللغة العربية

• رفع الحرج من جلل توسع العرب

• في مشكلات البحث النحوي

د. مصطفى عبد الواحد

د. محمد ابراهيم البنا

د. نعمان محمد أمين طه

د. عبد الفتاح اسهاعيل شلبي

د. صالح جمال بدوی

د. عبد العزيز برهام

د. عبد الرحمن اسهاعيل

د. عـــلى أبو المكارم